



آفاق ثقافية

انتصار إراسموس ومأساته

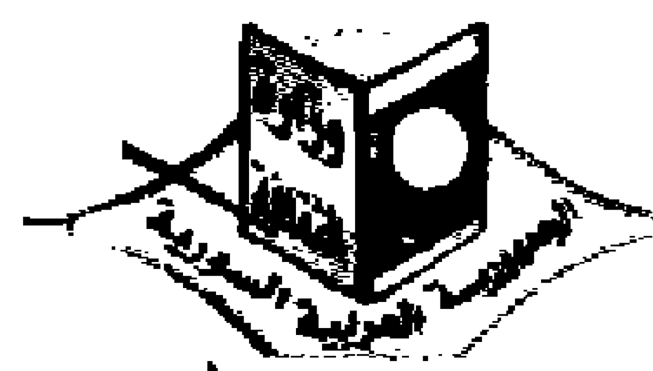
تأليف: ستيفان تسفايغ
ترجمة: محمد جديد

انتصـار إراسموس ومأساته

انتصار إراسموس ومأساته

تأليـف : ستيفان تسفايغ

ترجمة: محمـد جديـد



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ٢٠٠٦

العنوان الأصلي للكتاب:

Stefan Zweig

Triumph und Tragik
Des Erasmus von Rotterdam

آفاق ثقافية

العدد (٤٤)

كانون الأول ٢٠٠٦

مُقَدِّمَة

أطلق ستيفان تسفايغ على إراسموس فون روتردام، لقب «الإنساني الكبير» و«الأوروبي الأول عن وعي وقصد». وكان «الاستاذ المُبَجّل» بالقياس إليه، ذلك الذي كان يشعر أنه يمتُ إليه بأصرة القربى في مضمار الفكر، ولا سيما في رفض كل سلطة أو عنف. «وكانت الشخصية التي لا تكون على حق في مضمار الواقع المبني على النجاح، بل تكون عليه بالمعنى الأخلاقي فحسب»، تفتِنُه. وكانت طاقة الفكر والعجز عن التصميم على الفعل يشكلان انتصار إراسموس ومأساته وفي الساعة الحاسمة، حين يسأله الأمير الناخب عن موقفه من النزاع العقائدي بين لوثر والبابا، يشيْرِ في تعاطف صريح مع الإصلاح الديني، بـــ « قضاة مرموقي السمعة، وغير مشتبهٍ فيهم». مغلِّفاً رأيه الخاص باقتراح حَذِر، ويقول إنه «لا يريد أن يكون كفيلاً تجاه ذنب لا يمكن تقدير أبعاده بعد». ورأى معاصروه، والأجيال اللاحقة – أيضاً –، في هذا الموقف الذي لم يكن من الممكن الحيلولة دون الانقسام المذهبيّ عن طريقه، ما يتَميَّز به إراسموس من الافتقار إلى الحزم، ويحاول ستيفان تسفايغ بترجمته، أن يُولي إراسموس ما كان يمثّل عنده معنى الحياة: وهو العدالة. وهو يعلم: «أن الفكر الحر، المستقل، الذي لا يرتبط بعقيدة أو مذهب، ولا يريد أن ينحاز إلى طرف أو حزب». لا يجد مستقراً له ومُقاماً في أي مكان على وجه الأرض.

ولد ستيفان تسفايغ في ٢٨ تشرين الثاني عام ١٨٨١، في فينا، وعاش من عام ١٩١٩، إلى ١٩٣٤، في زالتسبورغ، ثم هاجر إلى إنكلترا، وفي عام ١٩٤٠، إلى البرازيل، وبعد أن لمع نجمه في مرحلة مبكرة، مترجماً لبن وبودلير، وعلى وجه الخصوص لــفــيرهيرنِ، نشر في عام ١٩٠١، أولى قصائده بعنوان «الأوتار الفضية». على أن عمله الملحميّ أكسبه الشهرة مثلما فعلت دراساته التاريخية الوجيزة، ودراساته في السِّيَر. وفي عام ١٩٤٤ ظهرت ذكرياته، وهي العمل القصصي الذي يتناول حقبةً انصرمت «عالم الأمس». وفي شباط ١٩٤٢، فارق الحياة في بيتروبوليس، بالبرازيل، بمحض إرادته.

لقد حاولت أن أعرف هل كان إراسموس فون روتردام يقف إلى جانب ذلك الحزب، ولكن تاجراً معيَّناً ردَّ عليّ قائلاً: «إراسموس يقف دائماً لوحده».

Epistolae obscurorum virorum , 1515

الرسالة ومعنى الحياة

لا ننكر أن إراسموس فون روتردام، الذي كان في سالف الأيام، يمثل المجد الأكبر والأكثر إشراقاً في قرنه، ما عاد اليوم يزيد عن اسم.

أمّا أعماله التي لا تحصى، والتي وضعها بلغة منسيّة، تتخطى الحواجز التي تفصل بين الأمم، وهي لاتينية الحركة الإنسانية، فراقدة في المكتبات لا يزعجها عن نومها أحد، وما من كلمة واحدة تتناهى إلى مسمَع عصرنا بعدُ من هذا الذي كان في غابر الأيام تُطَبِّق شهرتُه الآفاق، وحتى سِمته الشخصية باتت تخيِّم عليها ظلال الشخصيات الأقوى والأكثر عنفاً، شخصيات مصلحي العالم الآخرين، إذ تصعب الإحاطة به، وتتماوج فيه الألوان المتعاقبة والأضواء البيْنية، والتناقضات، وقلّما تتوافر، من حياته الخاصة أمور مسلية تُروى عنه: وذلك أن إنسان السكينة والهدوء والعمل الذي لا يني، ولا يفترُ، قلّما ينشىء لنفسه سيرة حياة محسوسة.

ولكنْ حتى عمله الحقيقي محجوب عن وعي الحاضر وخفيٌّ دفين مثلما يكون على الدوام حجر الأساس تحت الصرح المَشيد. ولذلك فلْنذكر، بين يَديْ حديثنا، وبوضوح، وإيجاز، ما يجعل إراسموس فون روتردام المنسيّ الكبير، حتى اليوم، وفي هذه الأيام على وجه الخصوص، غالياً وعزيزاً - وهو أنه كان، من بين كل أولئك الذين

يكتبون ويبدعون، في الغرب، الأوربي الأول، عن وعي وقصد، وكان محبَّ السلام الأول الذي ينزع إلى المشاكسة، ولأبلغ المدافعين عن المثال الإنساني الذي ينطوي على محبة العالم ومحبة الفكر، على أن كونه ظل، فوق هذا، مهزوماً في كفاحه من أجل صياغة أكثر عدالة وإنصافاً، وأقرب إلى ما يتوافق الناس عليه، لعالمنا الفكري، أي مصيره هذا المأساويّ، لا يزيد ارتباطه بشعورنا الأخويّ إلاّ وثوقاً بعدُ.

لقد أولع إراسموس بالكثير من الأمور التي نحبها، بالأدب والفلسفة، وبالكتب والأعمال الفنية، وباللغات والشعوب، وأولع بالبشرية كلها، من أجل رسالة التهذيب الأخلاقي الأعلى، من دون تفريق بين هذه الأبواب جميعاً، ولم يكن يكره إلاّ شيئاً واحداً على الأرض حق الكراهية على أنه الروح المناقض للعقل، ألا وهو التعصب.

ولمّا كان إراسموس ذاته أكثر البشر طُرّاً بعداً عن التعصب، وكان فكراً، ربما لا ينتمي إلى أعلى المراتب قاطبة، غير أنه يتمتع بالمعرفة الأوسع نطاقاً على الإطلاق، وكان قلباً غير مفعمَ بالفضيلة المُسكِرة على وجه الخصوص، ولكنه يمتاز بسلامة القصد وحُسْن الطويّة، فقد كان يرى في كل شكل من أشكال العقلية المتعصبة ما يمثل للوَبال المتوارَث في عالمنا.

وكان على يقين أن كل ألوان الصراع تقريباً بين البشر والشعوب يمكن تسويتها من دون عنف، بالمُلاَينة والتساهل المتبادل، لأنها تدخل جميعاً، بلا ريب في باب ما هو إنسانيّ، ويكاد يكون من الممكن

الفصل في كل نِزاع، نسبياً، لولا أن يفرط المحرِّضون والمبالغون في شدِّ قوس الحرب. ومن أجل ذلك كان إراسموس يحارب كل تعصب، سواء أكان ذلك في مضمار الدين، أم في المضمار القوميّ، أم في مضمار النظرة إلى العالم ومكانة الإنسان فيه، بحكم كونه المدمِّر الفطري، والعدوّ اللدود، لكل تفاهم.

كان يكرههم جميعاً، يكره المعاندين وذوي التفكير الأحاديّ الجانب، سواء أكانوا في مسوح الكهنة، أم في أردية الأساتذة الجامعيين، ويكره المفكرين ذوي الأفق الضيق، والمتحمسين المتعصبين لقومهم، الذين يطالبون ، في كل مكان بالامتثال الأعمى لرأيهم الخاص،وينظرون إلى كل نظرة مختلفة نظرة الازدراء، على أنها هرطقة أو عقلية منحطة.

ومثلما كان هو نفسه لا ينزِع إلى أن يفرض نظراته الخاصة على أحد، كان يقاوم، مقاومة المصمِّم، أنْ يدع أي مذهب ديني أو سياسي يُفْرَض عليه. وكان استقلال المرء بنفسه في التفكير أمراً بَدَهيّاً بالقياس إليه، وكان هذا الفكر الحر يري، على الدوام وَأْداً للتعدُّدية الربانية، في نهوض المرء، سواء على منبر الواعظ، أم على منصة التدريس، وتحدُّثه عن الحقيقة الشخصية الخاصة به كما لو كان يتحَّدث عن رسالة ألقى بها الرب في رُوعه، أو أوحي بها إليه وحده، وكان يكافح، بكل طاقة ذكائه المتلألىء، ذي الحجة الدامغة طوال حياة بأسرها، في كل الميادين، المتعصبين لجنونهم الخاص، من المعاندين المتشبثين بآرائهم – ولم يكن يبتسم من جراء مواقفهم إلاّ في ساعات

حظ نادرة كل الندرة، وفي أمثال هذه اللحظات التي تتسم بالرفق والحلم، لم يكن التعصب المتسم بضيق الأفق يبدو له إلاّ في صورة محدوديةٍ للفكر باعثة للأسى، بحكم كونه شكلاً من الأشكال التي لا تحصى، التي يتخذها الحمق والغباء (stultitia)، الذي صنف لُوَيْناته ومتغيّراته في كتابه «الإشادة بالحماقة» ورسم ملامحها رسماً كاريكاتورياً ممتعاً للغاية.

وبحكم كونهِ العادلَ المنصف والمتجرِّد من الأحكام المسبقة، حقاً، كان يفهم حتى أكثر أعدائه لَدداً ومرارة، ويرثي له، ولكن إراسموس كان يعرف، على الدوام، في أعمق أعماقه أن روح الشر المستطير هذا، المستكنّ في الطبيعة البشرية، أي التعصب سوف يفسد عليه عالمه الخاص الأكثر رفقاً وحُلماً، كما يفسد حياته.

ذلك لأن رسالة إراسموس ومعنى حياته كانا يتمثلان في الجمع المتناسق بين المتناقضات، في إطار الروح الإنساني، وقد كان وُلدِ في صورة طبيعة تنزِع إلى الربط، أو إذا شئنا أن نعبِّر عن ذلك بأسلوب غوته، الذي كان مماثلاً له في رفض كل ما ينزع إلى التطرّف، في صورة «طبيعة صريحة غير متّحفظة». وكان كل انقلاب يتسم بالعنف، وكل صخب وجلَبة باعثين لاختلاط الأمور، وكل شجار جماعي في جوٍ متكدِّر، يتعارض بالقياس إلى شعوره، مع الجوهر الصافي الخاص بما يسمى (عقل العالم)[1] الذي كان يشعر بأنه ملتزم

---

(١) Weltvenunft –هو العقل الذي يوجِّه تاريخا العالم ويهيمن عليه «المترجم».

أن يكون رسوله المخلص والهادئ، وكانت الحرب على وجه الخصوص تبدو له شيئاً لا يمكن التوفيق بينه وبين البشرية التي تفكر تفكيراً أخلاقياً، لأنها تمثل الشكل الأكثر فظاظة من أشكال تسوية التناقضات الداخلية. وكان الفن النادر المتمثل في تخفيف حدة الصراعات، عن طريق الفهم المبني على سلامة الطَّوية وتَجلية ما هو غامض، مختلط مشوَّش، وحبْكِ ما تمزَّق ورتْقه من جديد، وإضفاء سياق مشترك، أعلى، جديد، على كل ما هو غريب معزول، يمثل الطاقة الحقيقية في عبقريته التي تتحلّى بالصبر والحُلْم. وكان المعاصرون يطلقون على هذه الإرادة التي تعمل عملها من وجوه عديدة، أي إرادة التفاهم مطلقاً، اسم «الإراسْمِيّة»، في تعبيرٍ منهم عن الامتنان، وكان هذا الرجل الواحد يريد أن يكْسِبَ العالم لصالح هذا «الإراسمي»، ولأنه كان يجمع في نفسه ذاتها كل أشكال الإبداعيّ وقوالبه، في أديب، وباحث في فقه اللغة التاريخي المقارَن، ولاهوتيّ، وعالم من علماء التربية، كان يرى، في مجال العالم بأسره، أن الارتباط ممكن، حتى بما يبدو في الظاهر ممتنِعاً على المصالحة والتوفيق، ولم يبق مجال من المجالات يتعذر الوصول إليه بالنسبة لفنه الذي يقوم بدور الوساطة، أو يعدُ غريباً عن هذا الدور، فبالقياس إلى إراسموس لم يكن يوجد فرق بين يسوع وسقراط، أو بين التعاليم المسيحية وحكمة القدماء، وبين التقوى والنزعة الأخلاقية، وكان يتقبل الوثنيين، وهو رجل الدين المكرَّس ذو الرِسامة، في إطار التسامح، في مملكة جنة فكره، ويضعهم على صعيد واحد مع آباء الكنيسة، وكانت الفلسفة

بالقياس إليه شكلاً آخر يتسم بمثل النقاء الذي يتسم به قالب البحث عن الله، كاللاهوت. وكان يرفع طرفه إلى الأوليمب الإغريقي في نظرة ليست أقلَّ إيماناً ولا امتناناً، من نظرته إلى الفردوس المسيحيّ. أما عصر النهضة، بما ينطوي عليه من فيض السرور بالسعادة الحسِّية فلم يكن يبدو له، مثلما كان يبدو لـ«كالـفـن» ولآخرين من المتحمسين المتعصبين، في صورة عدو الإصلاح الدينيّ، بل كان يبدو له في صورة شقيقه الأوفر حظاً من الحرية. ولم يكن يعترف، وهو الذي لم يكن يقرُّ له قرار في بلدٍ ما، وكان يبدو كأنه في داره، في كل البلدان، وكان أول المواطنين العالميين، والأوربيَّ الأول، عن وعي وقصد، بتفوُّق أمة على أخرى، ولأنه كان ربَّى قلبه على ألاَّ يقيِّم الشعوب إلاّ بالنظر إلى أنبل رجال الفكر فيها وأوفرهم حظاً من الصياغة، والتشكُّل، إذ كانوا يبدون له، بموجب انتمائهم إلى النخبة التي وُجِدوا بين ظهرانيها، جديرين بالمحبة جميعاً. على أنه أخذ على عاتقه الآن في صورة هدف الحياة الحقيقي، هذه المحاولةَ السامية الجليلة، وهي أن يدعو كل هؤلاء المُتَّسمين بالعقلية الطيِّبة، من كل البلدان، والأعراق، والطبقات، إلى رابطة كبرى للمثقَّفين. وفي الوقت الذي كان فيه يرتقي باللاتينية، التي هي اللغة التي تعلو على اللغات، لتصل إلى قالب فنيٍّ، وإلى مستوى لغة للتفاهم، أبدع لشعوب أوربا – وإنه لعمل لا ينسى – مدة ساعة عالمية – قالباً موحَّداً من قوالب التفكير والتعبير، يتخطى الحدود الفاصلة بين الأمم، وكانت معرفته الواسعة ترتد بنظرتها عائدة إلى ما مضى وانقضى، ممتنَّة، عارفةً للجميل،

بينما كان عقله المؤمن يتطلع إلى المستقبل مفعماً بالثقة. أما الجانب البربري في العالم، وهو ذلك الجانب الذي يطمح إلى بعث الاختلاط في مخطط الرب، من جديد على الدوام، بمكر أخرق وبعداء دائم مستحكِم، فكان يمرُّ به مرور الكرام، بمثابرة وجَلَد، ولم يكن يجتذبه إلاّ الجوّ الذي يشكِّل، الجوّ الإبداعي، اجتذاب الأخ لأخيه، وكان يرى أن من واجب كل امرىء من أهل الفكر توسيع هذا المجال ومَدّ نطاقه لكي يحيط ذات مرة، مثلما يفعل النور السماويّ، بالبشرية كلها، بوحدته ونقائه. ذلك لأن هذا كان العقيدة الأعمق (والخطأ الجميل المأساوي) في هذه النزعة الإنسانية المبكِّرة: فقد كان إراسموس وأتباعه يرون تقدم البشرية ممكناً عن طريق التنوير، وكانوا يأملون الوصول إلى القدرة على تربية الفرد وتربية المجموع على حد سواء عن طريق النشر الأكثر عموماً للثقافة، والكتابة، والدراسة، والكتاب. وكان هؤلاء المثاليون المبكرّون ينطوون على ثقة مؤثرِّة، تكاد تكون دينية، بالمقدرة على إكساب الطبيعة البشرية صفة النبل عن طريق الرعاية المتواصلة المستديمة للتعلُّم والقراءة. ولم يكن إراسموس، من حيث كونه مؤمناً بالكتب. يرتاب أبداً في إمكانية التعلم الكامل، وإمكانية اكتساب السمة الأخلاقية والتهذيب، وكانت مشكلة الانسجام والتناغم الكاملين في الحياة تبدو له مضمونة الحل عن طريق هذا الإضفاء الذي يحلم به، للسِمة الإنسانية، على البشرية على أنه حلم قريب المتناول إلى حد بعيد.

وكان مثل هذا الحلم البعيد ملائماً بلا ريب، لاجتذاب أفضل البشر قاطبة من كل البلدان، كالمغناطيس القويّ. وكان يرى أن الإنسان الذي يتمتع بالحِسّ الأخلاقي سوف تبدو له حياته الخاصة غير ذات شأن وخالية من الجوهر لولا الفكرة التي تبعث في النفوس العزاء، والجنون الذي يوسِّع نطاق النفوس، والذي يوحي إليه أنه يستطيع، هو أيضاً، برغبته وعمله، ومن حيث كونه فرداً، أن يضيف شيئاً ما إلى عملية الإضفاء العام، للسمة الأخلاقية، على العالم، فحاضرنا، فيما يرى، ليس إلاّ مرحلة تفضي إلى اكتمال أعلى، وليس إلاّ تمهيداً لقضية حياة أكثر اكتمالاً إلى حد بعيد. ومَنْ عَرَفَ كيف يجعل طاقة الأمل هذه، أي الأمل في التقدم الأخلاقي للبشرية عن طريق مثل أعلى جديد، جديرة بالإيمان بها، فقد أصبح زعيماً لجيله. وكذلك كان شأن إراسموس. وكانـت تلك الساعة مواتية مواتاة هائلة لفكرتـه المتعلقة بـالاتحاد الأوربي بـروح الحركـة الإنسانيـة. ذلك لأن الاكتشافات والاختراعات الكبرى التي تمت عند منعطف القرن، وتجديد العلوم والفنون عن طريق عصر النهضة، عادا منذ عهد بعيد، يمثلان تجربة جماعية باعثة للسعادة، تتخطى الحواجز التي تفصل بين الأمم في كل أصقاع أوروبا، ولأول مرة باتت تُفْعِم عالم الغرب بعد سنين ثقيلة لا حصر لها ساد فيها المزاج السوداويّ، ثقة برسالته، وكانت تتدفق، من كل البلدان، أفضل الطاقات المثالية، على الحركة الإنسانية، وكان كل امرىء يريد أن يكون مواطناً، بل مواطناً عالمياً

في مملكة الثقافة هذه، مملكة الأباطرة والبابوات، والأمراء والكهنة، والفنانين ورجال الدولة، وكان الفتيان والنساء يتنافسون في الاطلاع على الفنون والعلوم، وأصبحت اللاتينية لغة الأخوة المشتركة بينهم، إسبيرانتو الفكر الأولى : ولأول مرة نمجِّد هذا العمل ! ومنذ انهيار الحضارة الرومانية كانت قد نشأت للمثقفين، عن طريق جمهورية إراسموس، من جديد، حضارة مشتركة في طور التكوُّن، ولأول مرة لا يكون صلَف أمة واحدة، بل رخاء البشرية بأسرها، هدف طائفة مثالية من حيث الأخوّة، وهذه الرغبة عند أهل الفكر، في الارتباط برباط الفكر، وتوطيد دعائم السلام النهائي في إطار ما يتخطى الحدود بين القوميات، بدلاً من اللغات، وتوطيد دعائم السلام النهائي في إطار ما يتخطى الحدود القومية، بدلاً من الأمم العديدة، هذا الانتصار للعقل كـــان أيضاً انتصار إراسموس، وساعته العالمية المقدَّسة ، ولكنها الوجيزة، الصائرة إلى الفناء.

فلماذا لم يكن من الممكن أن تدوم مملكة تتميَّز بالنقاء، كهذه - وإنه لسؤال مؤلم؟ ولما تظل المُثُل العليا، والإنسانية، مُثُل التفاهم الفكري، والسِمة الإراسمية لا تحظيان إلاّ بالقليل القليل من السلطان الفعلي، في إطار إنسانية لا ريب في أنها تعلَّمت منذ عهد بعيد كيف تتجاوز التناقض الكامن في كل أشكال العداوة ؟ لا بُدَّ لنا، مع الأسف أن نتبيَّن بوضوح، ونقرّ، أنه لم يحدث أبداً أَنْ كان مثلٌ أعلى كافياً بصورة كاملة للجماهير العريضة، وهو لا يضع نصب عينيه سوى

الرخاء العـــام . ففي حالة الطبائع ذات المستوى المتوسط تطالب الضغينة – أيضاً – بحقِّها الذي يبعث الرهبة في النفوس، إلى جانب سلطان مجرد المحبة، والمنفعة الخاصة للفرد تنزِع إلى الاستفادة الشخصية السريعة، من كل فكرة. ويظل المحسوس الملموس، بالنسبة للجمهور، شيئاً يستهويه ويتملَّقه بدرجة أكبر مما هو تجريدي، ومن أجل ذلك يظل كل شعار، في المضمار السياسي، يجد الأتباع والأنصار بأسهل الطرق حين ينادي بخصومة لجهة معينة بدلاً من أن ينادي بمَثَل أعلى، أي أنه يشدِّد النكير على تناقض سهل الاستخدام، ويتوجَّه ضد طبقة أخرى، أو عرق آخر، أو ديانة أخرى، لأن أسهل الأمور قاطبة بالنسبة للتعصب أن يتمكن من أن يوريَ بلهيبه الشائن زناد الكراهية، وفي مقابل ذلك فإن المثل الأعلى الذي يُقَيِّد فحسب، ويتخطى الحواجز الفاصلة بين الأمم، ويتسم بسمة الجامعة الإنسانية، كما هو حال المثل الأعلى الإراسمِيّ، يفتقر، بحكم البدهية إلى شباب يريدون أن ينظروا في عيون خصمهم نظرة المحارب، كما يفتقر إلى المؤثِّر بصريّاً، ولا يخرج أبداً بتلك الجاذبية الأولية، مثلما هو شأن الجانب الذي يعزل ويفرِّق فخوراً مباهياً، ويكشف في كل مرة عن العدو الذي يلوح من وراء حدود بلاده هو، ولذلك سوف يكون العمل الأسهل هو عمل الأطراف المتحزِّبة التي تطارد الاستياء الذي هو من شأن البشر دائماً، في إطار اتجاه محدَّد للريح، غير أن الحركة الإنسانية، أو النظرية الإراسمية التي لا يتوافر لديها مجال لانفعال

يتصل بالكراهية، توجّه، بأسلوب بطوليّ، جهدها الذي يتذرّع بالصبر، نحو هدف بعيد لا تكاد تراه العين، فقد كانت وستظل مثلاً أعلى يتسم بأرستقراطية الفكر، ما دام الشعب الذي تحلم به لنفسها، وما دامت الأمة الأوروبية، غير متوافرِين، ولا متحَقّقِين، ولما كان أتباع حركة التفاهم المستقبليّ بين البشر مثاليين مع كونهم، في الوقت ذاته، من الخبراء العارفين بالطبيعة البشرية، فإنه لا يجوز لهم أن يكونوا على غير بيِّنة مِنْ أَنَّ عملهم يظل مهدَّداً من جهةٍ لا عقلانيةِ العاطفة، ولا بُدَّ لهم أن يظلوا واعين، وهم يقدمون التضحيات ويتفانون، أن ثمة طوفاناً عارماً من التعصب سوف يطغى، المرة بعد الأخرى، خلال العصور، على كل السدود ويُصَدِّعها إذ يتكدَّس ويتراكم قادماً من الأغوار السحيقة لعالم الغرائز البشرية: وكل جيل جديد تقريباً يشهد مثل هذه النكسة، وتكون مهمتهم الأخلاقية عندئذ، أن يتجاوزوها من دون أن تجرفهم وتقضي عليهم، ومن دون أن ينتابهم اختلاط في الأمور وتشوُّش داخلي.

غير أن المأساوية الشخصية عند إراسموس كانت تكمن في أنه، هو، على وجه الخصوص، وهو أبعد الناس إطلاقاً عن التعصب يُجتَرَف، على وجه الخصوص في اللحظة التي تتألّق فيها الفكرة التي تتخطى حدود القوميات، لأول مرة، مظفَّرة، فوق أوربا، إلى دَرْك أكثر اختراقات العاطفة الجماهيرية الدينية القومية التي عرفتها البشرية وحشية وجموحاً. وعلى وجه العموم لا تصل آثار تلك

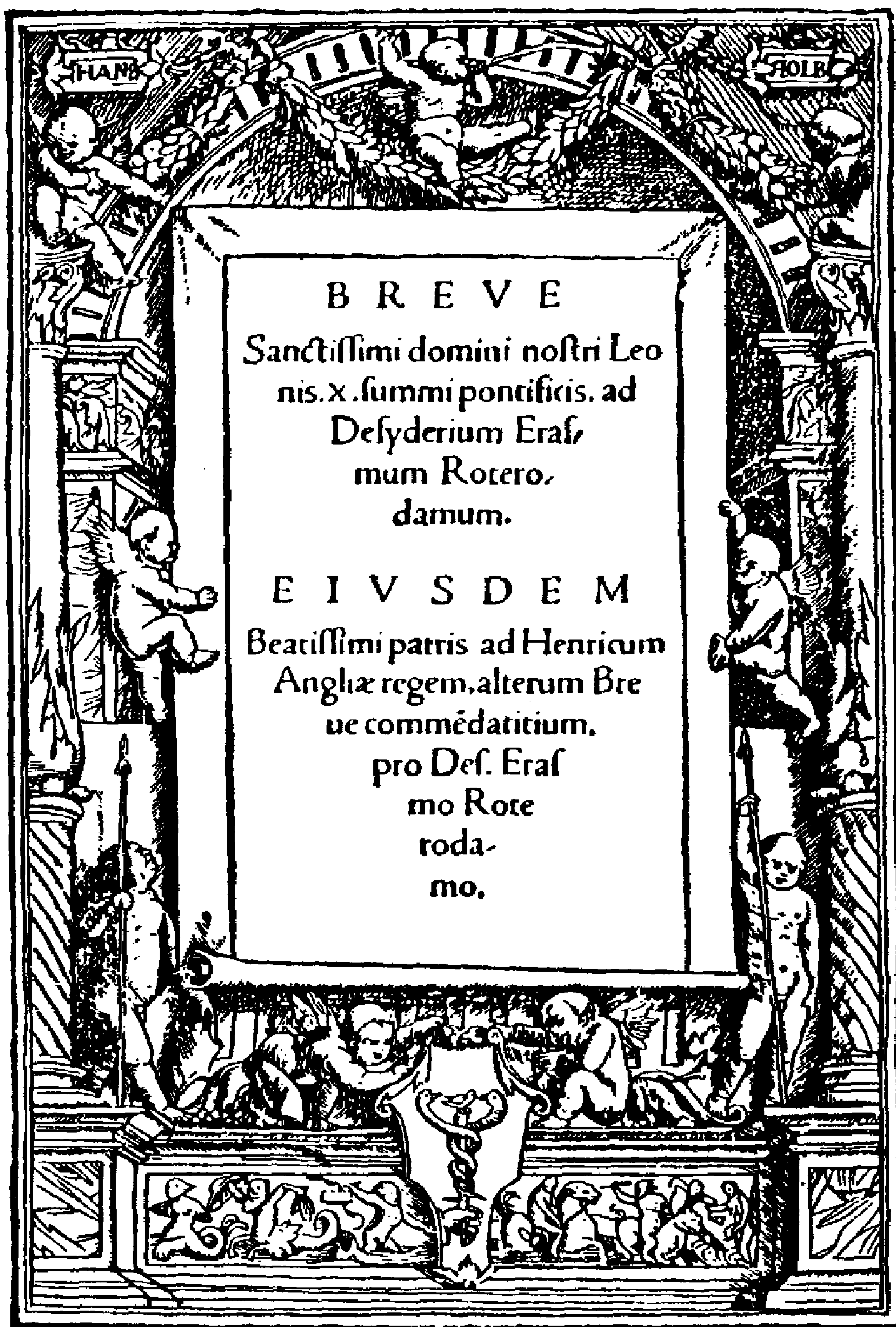
الأحداث التي نعدُّها ذات أهمية من الوجهة التاريخية، إلى الوعي الحيّ عند الشعب، وحتى أمواج الحرب الكبرى العاتية لا تمسُّ في القرون الأولى إلاّ شعوباً متفرّقة، وأقاليم متفرّقة، وعلى وجه العموم، كان من الممكن، في حالة أشكال النزاع الاجتماعي أو الديني، أن ينجح الفكريُّ في الانتحاء جانباً، وأن يمر مرور الكرام، متفادياً الجَلَبة واللغط، خَلِيَّ البال، بالعواطف الجامحة المرتبطة بالسياسيّ ولعل غوته أفضل مثال على هذا، وهو الذي يبدع في عمله الداخلي، لا يكدِّر صفوه مكدِّر في غمار جَلَبة الحرب النابليونية. ولكن في بعض الأحيان، وفي حالات جدّ نادرة، عبر القرون، تنشأ أشكال من التوتُّر متعارضة متناقضة، يبلغ من شدة اندفاع الريح فيها، أن العالم بأسره ينشطر شطرين مثل قطعة قماش. وهذا الصَّدْع الهائل يسري عبر كل البلدان، وكل مدينة، وكل منزل، وكل أسرة، وكل قلب. هنالك تمسك الجماهير الغلاّبة بالفرد من كل جوانبه، بضغطها الهائل، وهو لا يستطيع أن يحمي نفسه من الجنون الجماعي، فمثل هذا التصادم الجنوني بين أمواج الحرب العاتية الجبّارة لا يتيح لأحد موقفاً مأموناً، ولا موقف الانتحاء جانباً، وذلك أن أمثال هذه الأشكال من انقسام العالم على نفسه بصورة كاملة يمكنها أن تشتعل على مِحكّ التناقض الذي يرتبط بمشكلة اجتماعية ودينية، وكل مشكلة أخرى نظرية فكرية، ولكن في الأساس لا يبالي التعصب، دائماً، بماهية المادة التي تشتعل ناره بها، فهو لا يريد سوى أن يشتعل وتستعِر ناره، وأن يفرِّغ

شحنة طاقة الكراهية المختزلة عنده، وعلى وجه الخصوص في أمثال هذه اللحظات الحاسمة من تاريخ العالم، التي تحمل معها الشر المستطير والتي ترتبط بجنون العالم، يكون أكثر ما يحدث تواتراً أن ينسِف شيطان الحرب سلاسل العقل، وينقضَّ على العالم، قد أفلت عِنانه واستحوذ عليه الشعور بالمتعة والنشوة.

وفي أمثال هذه اللحظات الرهيبة من جنون الجماهير وانقسام العالم إلى حزبين تصبح إرادة الفرد عزلاء لا دفاع لها، ويكون من العبث أن يفزَع المرء بنفسه إلى جَوِّ التأمل المنعزل، إذ يرغمه العصر على أن يزج بنفسه في أتون المعمعة، يميناً أو شمالاً، وأن ينخرط في هذه الفئة أو الأخرى ، وأن ينضوي تحـت لواء هذا الشعار أو يلتحق بالحزب الآخر، هنالك لا يعود أحد، بين مئات الآلاف، والملايين، من المحاربين، يحتاج إلى المزيد من الجرأة، ولا إلى المزيد من القوة، ولا إلى المزيد من التصميم الأخلاقيّ، في أمثال هذه الحقب، أكثر من حاجة رجل الوسط الذي يأبى الخضوع لجنون الفئة أو الحزب، أو لأحادية الجانب في التفكير. وهنا تبدأ مأساة إراسموس، فقد كان يحاول، بحكم كونه المصلح الألماني الأول (وهو في الحقيقة الوحيد، لأن الآخرين كانوا أقرب إلى أن يكونوا ثوريين منهم إلى أن يكونوا مصلحين) أن يجدِّد الكنيسة الكاثوليكية بالاستناد إلى شراع العقل، ولكن القدر يبعث إليه، وهو إنسان الفكر البعيد النظر، والثوري، بإنسان الفكر البعيد النظر، والثوري، بإنسان الأفعال، لوثر الثوري،

المدفوع بالدوافع الشيطانية الناجمة عن قوى شعبية ألمانية غامضة. وبضربة واحدة تحطم قبضة الدكتور مارتن لوثر الفلاّحية، الحديدية، ما كانت يد إراسموس، اللطيفة المُرْهَفة، التي لا تتسلّح إلاّ بالقلم، تجتهد في الربط بين أجزائه، في تردُّد ووَجَل، فتحوّله إلى أنقاض، ويظل العالم المسيحي، الأوروبي، قروناً من الزمان منقسماً على نفسه، فالكاثوليك في مقابل البروتستانت، والشمال في مقابل الجنوب، والجرمان مقابل الرومان (اللاتين) ولا يوجد في هذه اللحظة إلاّ خيار، أو قرار واحد بالقياس إلى الإنسان الألماني، بل الغربي: فإما أن يكون موالياً للبابا وإما أن يكون لوثرياً، وإمّا السلطة الكنسية العليا التي يتقلّدها البابا والأساقفة، وإما الإنجيل، ولكن إراسموس - وسيكون هذا عمله الجدير بالتنويه وعدم النسيان - يرفض الانحياز إلى أحد الفريقين، وهو في هذا، الوحيد بين قادة العصر. فهو لا يقف إلى جانب الكنيسة، ولا يقف إلى جانب الإصلاح الديني، لأنه مرتبط بكليهما، أما ارتباطه بالنظرية الإنجيلية فلأنه أول من طالب بها وشجّعها، وأما ارتباطه بالكنيسة الكاثوليكية فلأنه كان يدافع عما يكمن فيها من قالب الوحدة الفكرية الأخير في عالم آخذ بالانهيار. ولكن كان يوجد عن اليمين المبالغة، وعن الشمال المبالغة، وكان التعصب قائماً عن اليمين، وكان قائماً عن الشمال، أما هو، الإنسان المناوىء للتعصب الذي لا سبيل إلى تغييره البتة، فلا يريد أن يكون في خدمة هذه المبالغة ولا تلك، بل يريد أن لا يخدم إلاّ مقياسه الخالد، مقياس

العدالة، وعبثاً يتصدّى لمسألة إنقاذ الإنسانيّ، والتراث الحضاريّ المشترك، من غائلة هذا الشقاق بحكم كونه وسيطاً في نقطة الوسط، وبالتالي، لكونه في المركز الأشد خطورة على الإطلاق، فهو يحاول أن يخلط النار بالماء، بيديه العاريتين، أن يعقد مصالحة بين هذا التعصب وذاك. وإنه لجهد مستحيل، وهو يمتاز من أجل ذلك، بعظمة مضاعفة. وفي البداية لا يفهم القوم، في كلا المعسكرين، موقفه، ويأملون في كسبه إلى جانب قضيّتهم الخاصة، ولكن لا يكاد كلاهما يدرك أن هذا الحر الطليق لا يهب الشرف، ولا يؤدي قَسَم الولاء، لرأي غريب عنه، ولا يريد أن يبذل لعقيدة من العقائد معونة الحماية، حتى تنهال الكراهية عليه والسخرية من اليمين والشمال. ولأن إراسموس لا يريد الانحياز إلى أي حزب من الحزبين، يغدو منشقاً عن كليهما «أنا في نظر الكاثوليك بروتستانتي، وفي نظر البروتستانت كاثوليكي». أما لوثر البروتستانتي فيتفوّه بلعنة كبيرة على اسمه، وأما الكنيسة الكاثوليكية فتضع، بدورها، كل كتبه، في لائحة الكتب التي تُحظر قراءتها على الكاثوليك، ولكن لا التهديد ولا السباب والشتائم، يستطِعْن أن يحملن إراسموس إلى الانحياز الى حزب معين أو إلى سواه، (nulli concedo)، لا أريد الانتماء إلى أحد، وهذا الشعار الذي يتخذه يظل يحققه، حتى اللحظة الأخيرة، فيجعل منه إنساناً في ذاته أو لذاته (homo per se) (أو: رجلاً بذاته، وحده). حتى النتيجة المنطقية الأخيرة. وفي مواجهة رجال السياسة والقادة، الذين يُغرون



BREVE

Sanctissimi domini nostri Leo
nis. X. summi pontificis. ad
Desyderium Eras-
mum Rotero-
damum.

EIUSDEM

Beatissimi patris ad Henricum
Angliæ regem, alterum Bre
ue commẽdatitium,
pro Des. Eras
mo Rote
roda-
mo.

بالانحياز إلى هوىً أحاديّ الجانب، تترتب على الفنان، ورجل الفكر بالمعنى الذي يتصوره إراسموس، مهمة القائم بالتوسُّط على أساس من التفهمُّ، وأن يكون رجل الاعتدال والتوسط، وأَنْ لا يقف في جبهة من الجبهات، بل لا يقف إلاّ ضد العدو المشترك لكل تفكير حر: أي ضد التعصُّب، لا ينتبذ مكاناً قصيّاً عن كل الفُرَقاء، لأن الفنان مندوب للتعاطف مع كل ما هو إنساني، بل يكون فوقهم، فوق المنازعات (au – dessus de la mêlée)، يحارب هذه المبالغة عند هذا، والأخرى عند ذاك، يحارب لدى الفرقاء جميعاً، البغضاء الملعونة ذاتها، البغضاء العبثية الحمقاء.

وهذا الموقف من جانب إراسموس هذا الابتعاد عن الحسم، أو بعبارة أفضل، نزوعه إلى عدم الفصل في الأمور، عَدَّه المعاصرون واللاحقون، بمنتهى البساطة، جُبْناً، وتهكَّموا على المتردد، مع صفاء ذهنه، على أنه خامل بارد، متقلِّب، شأن تقلُّبات الطقس. وفي الواقع لم يكن إراسموس يقف أمام العالم مكشوف الصدر، كنبتة الحلْفاء إذ تميل مع الرياح كيفما هبَّت، وذلك أن البطوليّ الخالي من الخوف لم يكن من طبعه وقد انتحى جانباً في حذر، وتذبذب، شأن المتلطِّف المجامِل، مثل قصبة، ذات اليمين وذات الشمال، ولكن كان يفعل هذا لمجرَّد أن لا يتهشَّم أو يتقصَّف تحت وطأة الضغط، ولتنتصب قامته المرة بعد الأخرى، من جديد. ولم يكن يحمل معه إيمانه بالاستقلال، أو عدم الرغبة في الانتماء إلى أحد، يتقدَّمه، فخوراً به مباهِياً، مثلما يُحْمَل

وعاء القربان المقدّس، بل كان يحمله مثلما يُحمَل مصباح اللص، تحت المعطف، مُخَبَّأً، وكان يستكِن، مؤقتا، في الزوايا والأركان الخفية، و طرق التسلُّل، ويستخفي، أثناء الصِدامات الأكثر وحشية وشُموساً، فيما ينجم عن جنون الجماهير - ولكنه كان يعود إلى داره - وهذا هو الأهم - بما لديه من أشياء ثمينة، وبإيمانه بالبشرية، سليمة لم يمسَسْها سوء، من إعصار البغضاء الرهيب في عصره. وبهذا الفتيل الضئيل الآخذ في الإضاءة استطاع سبينوزا، وليسنغ، وفولتير. وما زال يستطيع كل الأوروبيين المستقبليين أن يُشْعلوا أضواءهم، وبحكم كونه الوحيد، في جيله من أهل الفكر ظل إراسموس عزيزاً على البشرية بأسرها، عشيرةً منفردة مستقلة، ومات بعيداً عن ميدان المعركة، غير تابع لجيش، وحيداً، وحده. وكان وحيداً، ومع ذلك فقَد كان - وهذا هو الأمر الحاسم - مستقلاً وحراً.

غير أن التاريخ لا ينصف المهزومين، فهو لا يحب كثيراً أهل الاعتدال، والقائمين بدور الوساطة، والمصالحة، أُناسَ الإنسانية، بل يختص بالمحبّة أهل العواطف الجامحة، الذين يتجاوزون الحدود، ومغامِري الفكر والعمل، الجامحين: وهكذا يمرُّ مرور الكرام بهذا الخادم الهادىء الإنسانيّ، لا يَحتِفل به، ويكاد يزدريه، ففي صورة عمالقة الإصلاح يتخذ إراسموس لنفسه مكاناً في خلفيّتها. وفي الميدان الدرامي يحقق الآخرون مصيرهم. هؤلاء الذي تستحوذ عليهم عبقريتهم وعقيدتهم. أمّا هُسْ فيختنق في اللهب المستَعِر، وأما سافونا

رولا فعلى وتد الحَرَق في فلورنسا – وأمّا سيرفيه فيُطرح في النار، من قِبَل كالـــفــــن المتعصب، ولكلٍّ ساعته المأساوية: أمّا توماس مُنْتسَر فيمسكون به بكمّاشات متوهجة، وأمّا جون كنوكس فيسَمِّرونه على سفينته (الغاليرا). وأما لوثر فيُثْبِت قدميه في الأرض الألمانية، مباعداً بين ساقيه، يُرْعِدُ في وجه الإمبراطور والمملكة، بقوله: «لا أستطيع أن أفعل غير هذا»، وأما توماس مور وجون فيشر فيدقون رأسَيْها بكتلة الصخر القاتلة وأما تسفينغلي فيرقد، صريعاً، بالبلطة في سهل كابلِ – وهم جميعاً شخصيات لا تُنسى، مؤهّلة للدفاع عن نفسها حين تستحوذ عليها غَضْبَة الإيمان، وحَمِيَّته، تنتابها حالة الوَجْد في معاناتها، عظيمة في مصائرها، ويشتعل من روائها اللهيب الذي ينذر بالطامّة، لهيب التصوّرات والأخيلة الدينية، فيبلغ المدى البعيد، على أن الحصون المدمَّرة في حرب الفلاحين يشهدن شهادة الطاعِن العيَّاب، على كل مسيح يُساء فهمه بطريقة تختلف باختلاف كل متحمس متعصب، والمدن المدمَّرة، والمزارع المنهوبة، في حرب الثلاثين عاماً، وفي حرب المائة عام، هذه المناظر الطبيعية التي تنذر بنهاية العالم، تَجأَر بالشكوى، إلى السموات، من جنون أهل الأرض، ذلك الجنون المتمثل في رفض التساهل والتسامح. ولكن من قلب هذه المعمعة التي يختلط بعضها ببعض، وإلى الخلف من قلبها قليلاً، وراء قادة الحرب الكنسية، وفي مكان ناءٍ عنهم جميعاً، بوضوح، يطِلُّ وجه إراسموس الرقيق، الذي يغشاه ظِلٌّ من الأسى اليسير، فهو لا ينتصب

على وتَدٍ من التعذيب، ولا تمتشق يده حساماً، وما من هوى جامح، حارّ، يُشوِّه محيّاه، ولكن العين ترتفع صافية، العين الزرقاء المضيئة، الرقيقة التي رسمها هولباين، خالدة لا يعتريها الفناء، تطل من خلال كل هذا الصخب واللغط المتصل بعواطف الجماهير الجامحة، فينتهي بها المطاف إلى عصرنا الذي لا يقلُّ عما عداه ثوراناً واضطراباً، وإذا استسلامٌ رزين، رابط الجأش يغشى بظله جبهته - واعجباً، إنه يعرف حمق العالم، هذا الخالد! ولكن ابتسامة يسيرة، ضئيلة كل الضآلة، تنمُّ عن اليقين، تموج حول فمه فهو يعرف. وهو المتمرِّس: أن جوهر كل العواطف والأهواء الجامحة يتمثل في أنَّ الكلل يتطرَّق إليها ذات مرة، وإنما يتمثل مصير كل تعصب في أنه يقضي على نفسه بنفسه، إذ يستنفد طاقته، أما العقل، الخالد، الصابر بهدوء. ففي وسعه أن ينتظر، في إصرار. وفي بعض الأحيان، حين يُجَنُّ جنون الآخرين، في سكرهم، يضطرُّ إلى السكوت والإخلاد إلى الصمت، ولكن ساعته تَأزِفُ، ويظل يعود أبداً، من جديد.

نظرة في العصر

يعدُّ الانتقال من القرن الخامس عشر إلى القرن السادس عشر ساعة من ساعات القدر في أوروبا ولا يمكن مقارنته إلاّ بالانتقال إلى قرننا، في تزاحُم أحداثه وتسارُعها الدراميّ. فبضربة واحدة يتوسَّع المجال الأوروبي ليصل إلى النطاق العالمي، وإذا الاكتشاف يقْفو الآخر، وخلال سنواتٍ قلائل يَتمُّ، بفعل الجسارة التي تصدر عن جيل جديد من البحارة، استدراك ما فوَّتته القرون بلامبالاتها أو بانعدام جرأتها. وإذا الأرقام تتواثب على نحوٍ ما يحدث في ساعة كهربائية: ففي عام ١٤٨٦ يتجرّأ دياز، فيكون أول أوروبي يصل إلى رأس الرجاء الصالح، وفي عام ١٤٩٢ يصل كولومبس إلى الجزر الأمريكية، وفي عام ١٤٩٧ يصل سيباستيان كابوت إلى شبه جزيرة لابرادور، وبالتالي إلى القارة الأمريكية، وإذا قارة جديدة تنتمي إلى وعي العرق الأبيض، ولكن ها هو ذا فاسكو داغاما يُبْحِر، بسفينته الشرعية، مندفعاً من زنجبار، إلى كلكتا، مُدَشِّناً الطريق البحري إلى الهند، وفي عام ١٥٠٠ يكتشف كابرال البرازيل، وفي النهاية يقوم ماجلان، بين عامَيْ ١٥١٩ و١٥٢٢ بالعمل الأكثر جدارة بالتَذكرُ والتنويه، العمل التتويجيّ، ألا وهو الرحلة الأولى لإنسان من البشر حول الأرض كلها، من إسبانيا إلى

إسبانيا، وبذلك باتت «تفاحة الأرض» وهي الكرة الأرضية الأولى التي اصطنعها بيها يم في عام ١٤٩٠، عند ظهوره، وكانت تتعرَّض للضحك والسخرية، على أنها فرضية مخالفة للمسيحية، وعمل من أعمال المجانين، يُعتَرَف بصحتها، لقد تولى العمل الأكثر جسارة على الإطلاق دعم الفكرة الأكثر جرأة على الإطلاق، وإذا الكرة المستديرة تتحوّل، بالقياس إلى البشرية المُفَكِّرة، وهي الكرة التي كان الناس يدورون عليها حتى الآن، في غير يقين، قد أصابهم الهمُّ، إذ يجوبون مجال النجوم كمن يطأ أرضاً مجهولة، بين عشية وضحاها، إلى واقع يمكن الاطلاع عليه والتّطواف في آفاقه، وإذا البحر، الذي كان حتى الآن مجرد بيداء زرقاء تتلاطم فيها الأمواج العاتية بلا نهاية في الإطار الأسطوري، عنصر يمكن حصر طوله وعرضه، وقياسه، واستخدامه من أجل البشرية، وبنَخْسَة واحدة تنهض الجرأة الأوروبية، والآن ما عاد ثمة توقُّف، ولا التقاط أنفاس، في غمرة السباق الجامح على اكتشاف الكَون، وكلَّما أدت مدافع قادش، أو لشبونة إلى سفينة عائدة تحية الترحيب تدفَّق حشد من الفضوليين على الميناء ليسمعوا عن رسالة أخرى من البلدان الأخرى المكتشفة حديثاً، وليعجبوا بطيور وحيوانات وأناسيٍّ لم يروْها من قبلُ أبداً، وينظرون وقد انتابتهم الرعدة، إلى الحمولات الهائلة من الفضة والذهب، وتنتشر الرسالة في كل اتجاهات الريح، إلى كل أصقاع أوروبا، التي أصبحت، بين عشية وضحاها، بفضل

البطولة الفكرية التي تتجلى في عَرَقِها، محوراً للكونُ كله، وحاكمة له، ولكن في الوقت ذاته تقريباً يستقصي كوبير نيكوس أفلاك النجوم التي لم تُسْبَر من قبل، فوق الأرض التي أشرق فيها النور فجأة، وكل هذه المعرفة الجديدة تتغلغل، بفضل فن الطباعة المكتشف حديثاً، بسرعة لم تُعْرَف من قبل حتى الآن أيضاً، لتصل إلى أبعد المدن، وإلى أكثر المستوطنات عجزاً وقصوراً في الغرب: فلأول مرة شهدت أوروبا، منذ قرون، تجربة تُسْعِد وترتقي بالحياة، وخلال جيل واحد تحظى العناصر الأولية للنظرة البشرية، بمكان وزمان ذَوَيْ مقاييسَ وقِيَمٍ مختلفة كل الاختلاف ولم تعرف إلاّ انعطافة قرننا، عن طريق تقصير أمد المكان والزمان، أي تقصير الأمد المتفوّق على نحو مفاجيء، وبالقدر ذاته، من خلال الهاتف، والمذياع، والسيارة، والطائرة تقييماً جديداً مماثلاً لإيقاع الحياة، عن طريق الاختراع والاكتشافات.

ولم يكُن بُدٌّ لمثل هذا التوسيع للفضاء الكوني الخارجي، أن ينجم عنه، بحكم البدهية، تحوُّل كبير، بالقدر ذاته في المضمار النفسي، ويضطر كل فرد، على نحو مباغت، إلى التفكير في إطار أبعاد أخرى، وإلى الحساب، والعيش في إطار أبعاد أخرى، ولكن قبل أن يكون الدماغ تكيَّف مع التبدُّل الذي لا يكاد يُحاط به، يكون الشعور قد تبدَّل – ويكون الارتباك الحائر الذي يتقاسمه الخوف والترنُّح من فرط الحماسة، على الدوام، جواب النفس

الأول، عندما تفقد معيارها فجأة، أي عندما تنزلق من تحتها بعيداً، كل المعايير والقوالب التي كانت ترتكز عليهن بحكم كونهن شيئاً موجوداً حتى الآن، كما يَنْسَرِبُ الشبح، ويكون كل شيء يقيني قد أصبح موضع الشك بين عشية وضحاها، وكل ما ينتمي إلى الأمس كأنه يبلغ من العمر ألف سنة، وقد ولّى زمانه. فهذه خرائط بطليموس، التي تمثل شيئاً مقدّساً لا يمكن تبديله أو إلغاؤه على مدى عشرين جيلاً من الزمان، تغدو، عن طريق كولومبس وماجلان، موضع سخرية الأطفال، أما الأعمال التي كان يجري نسخها - مع الإيمان بها - منذ قرون، وتحظى بالإعجاب على أنها خالية من كل عيب وشائبة في الجغرافيا والفلك والهندسة والطب والرياضيات، فتفقد اعتبارها ويتخطاها الزمن، وكل ما كان بالأمس، يذوي ويولي الأدبار أمام الأنفاس الحارة للعصر الجديد. الآن ولّى عصر كل تعليق وجدال، وتأخذ في الانهيار السلطات القديمة على أنها أنقاض أوثان الرهبة والخوف، وتسقط أبراج العصر المدرسي، وتغدو الإطلالة على المستقبل حرة طليقة، وتنشأ حميّ فكرية من الظمأ إلى المعرفة والعلم عن حقن العضوية الأوروبية بمادة دنيوية جديدة، ويتسارع الإيقاع، أما التطوُرات التي كانت تمر بمرحلة انتقال وئيد الخطى، فتحصل من هذه الحمى، على مسيرة سريعة مُستَحثَّة، وكل ما هو قائم يدخل في طور الحركة كأنما عن طريق زلزال،

وتتحوّل نظم الطبقات المتوارثة عن العصر الوسيط إلى شكل جديد، فمنها ما يعلو شأنه، ومنها ما ينحطّ، وتفتقر طبقة الفلاحين وتزدهر التجارة والترف بطاقة مَداريّة بفضل السماد المستمدّ من ذهب أوقيانوسيا، ويزداد التخمرُ عنفاً على نحو مطّرِد، ويجري قَلْبٌ كامل لنظام التصنيف الاجتماعي، على غرار ما حدث عندنا عن طريق دخول التقنية، وتنظيمها وعقلنتها المفاجئتين إلى حد مفرط أيضاً. وتأزف إحدى اللحظات التي تبدو فيها البشرية كأنما يكتسحها إنجازها هي، وتضطر إلى بذل كل طاقتها، لتلحق بَركْبِها هي، من جديد.

وكل مناطق النظام البشري تتعرَّض للزلزلة من جراء هذه الصدمة الهائلة، وحتى تلك الطبقة المتدنية إلى الحد الأقصى، من طبقات مملكة النفس، يتم الوصول إليها في لحظة هذه الانعطافة الرائعة للعوالم، بين نهاية قرنٍ أدْبَر وقرنٍ أقبل، والتي تظل في العادة راقدة تحت عواصف العصر، لم يَمْسَسْها شيء، ألا وهي طبقة الدينيّ، ولما كان القلب الجامد محظوراً من قبل الكنيسة الكاثوليكية، فقد صمدت العقيدة كالصخرة من دون أن تتزحزح، في وجه كل الأعاصير وكانت هذه الطاعة الكبيرة ، المبنية على الإيمان ، كأنها سمة العصر الوسيط. أما في الأعلى فكانت تتصبب السلطة، وتمارس سلطتها، وأما في الأسفل، فكانت البشرية تشخص بأبصارها نحو الكلمة المقدَّسة، متفانية بإيمانها،

ولم يكن ثمة شك يجرؤ على التصدي للحقيقة الكهنوتية، وحيثما تحركت المقاومة، كانت الكنيسة تكشف عن طاقة دفاعها: فكانت لعنة الحرمان تحطِّم سيف الإمبراطور وتخنق أنفاس الهرطيق، وكانت الشعوب والقبائل والأعراف والطبقات، مهما تكن غريبة، يناصب بعضها بعضاً العداء، تربطها آصرة الطاعة هذه المتميزة بالإجماع، والخضوع، هذا الإيمان الذي ينتهي بصاحبه إلى نعيم الآخرة، ويفيد في الوصول إلى مجتمع رائع: ففي العصر الوسيط لم يكن للبشرية في الغرب إلاّ روح واحد، هو الروح الكاثوليكي، وكانت أوروبا تتوسَّد حضن الكنيسة تحركها في بعض الأحيان وتستثيرها الأحلام الصوفية، غير أنها كانت راقدة، ساكنة، وكانت كل رغبة في الحقيقة والعلم غريبة عنها. والآن يبدأ، للمرة الأولى، اضطراب معين في تحريك النفس الغربية. فما دامت أسرار الأرض تمَّ استقصاؤها وسَبْر غورها، لماذا لا ينبغي أن يحدث ذلك في المضمار الإلهيّ أيضاً؟ وشيئاً فشيئاً ينهض أفراد عن رُكَبِهم التي كانوا يرقدون عليها منكِّسي الهامات، ويرفعون الطرف إلى أعلى متسائلين، وكان يُفْعِم نفوسهم، بدلاً من الخضوع والذلّ، جرأة جديدة على التفكير، وجرأة على التساؤل، وإلى جانب المغامرين في البحار المجهولة، إلى جانب كولومبس، وبيزّارو، وماجلان، ينشأ جيل من الفاتحين في مضمار الفكر يجرؤن بعزم وتصميم، على ما لا حدود له ولا

يُسْبَر غورُه. وكانت السلطة الدينية، على مدى القرون، منغلقة على نفسها كأنها حبيسة قارورة مختومة، فكانت تنبعث منها رائحة الأثير، وكانت السلطة تنتشر من المجامع الكهنوتية حتى أعماق الشعب. وفي هذا الجو الأخير أيضاًكان العالم يريد أن يتجدَّد ويتغيرَّ، وبفضل ثقته بنفسه التي اختبرها اختباراً مظفراً، ما عاد إنسان القرن السادس عشر يحسُ أنه ذروة من هباء ضئيلة للغاية، تتعطَّش لندى الرحمة الإلهية، بل بات يحس أنه محور الحدث، وحامل الطاقة في العالم، ويتحوَّل الخضوع والتجهُّم، فجأة إلى اعتداد بالنفس نحيط بأكثر أشكال السكْر بالسلطان فيه حِسِّيةً، وبقاءاً على الزمن، من خلال كلمة (النهضة، أو الانبعاث)، وإلى جانب العالم الكهنوتي، يظهر معلم الفكر، متمتعاً بحقوق مساوية له، وإلى جانب الكنيسة يظهر العلم، وهنا أيضا تكون السلطة العليا قد تحطَّمت، أو انتهت المسألة بها إلى التَّرنُّح على الأقل، وولى عصر البشرية الصامتة في ذُلّ، والعائدة إلى العصور الوسطى، وها هي ذي بشرية جديدة تبدأ، تتساءل وتبحث، مع حرارة العاطفة الدينية ذاتها، وتؤمن وتصلي كما كانت تفعل البشرية التي سبقتها، ويهاجر الاندفاع نحو المعرفة، من الأديرة إلى الجامعات التي تنشأ في كل بلدان أوروبا، وفي وقت واحد تقريباً، حصوناً في مقابل حصون معادية، للفكر الحر. ويتم إفساح المجال للأديب، وللمفكر، وللفيلسوف، وللوُعّاظ،

ويصب الفكر طاقته في قوالب أخرى، فتحاول الحركة الإنسانية أن تَردُ الإلهيَّ إلى البشر من دون وساطة أهل الكهنوت. وإذا المطالبة الكبيرة، في تاريخ العالم، بالإصلاح الدينيّ تعلو موجتها، متفرِّقة مشتَّتة في البداية، غير أنها تُحمَلُ بعد ذلك على عاتق يقين الجماهير.

وإنها لَلَحظةٌ رائعة، انعطافة قرن، تتحوَّل إلى انعطافة حقبة من الحِقَب: إذ تكون أوروبا، هنيهةً من الزمن كأنما بات لها قلب واحد، ونفس واحدة، وإرادة واحدة، ورغبة واحدة. فهي تشعر شعوراً طاغياً غلاّباً، بأن ثمة أمراً ما زال غير مفهوم، يدعوها، بحكم كونها كلاًّ متكاملاً، إلى التبدُّل، وتكون الساعة واسعة النطاق إلى حد رائع. ويتخمَّر الاضطراب في البلدان، والخوف الثقيل الأنفاس، نفاد الصبر في النفوس، وفوق هذا كله يتذبذب، ويسبح في الهواء إصغاء غامض وحيد إلى الكلمة المحرِّرة، إلى الكلمة التي تحدِّد الهدف، الآن يُتاح للفكر أن يجدِّد العالم، وإلاّ فلن يكون ذلك أبداً.

صِباً غامض

ومن الرموز التي لا يتفوَّق عليها رمز، عند هذا العبقري التي يتجاوز الحدود الفاصلة بين القوميات والذي ينتمي إلى العالم كله، أن إراسموس ليس له وطن، ولا منزل والدين بالمعنى الصحيح للكلمة، فقد وُلِدَ في فراغ خالٍ من الهواء، إن صح التعبير. أما اسم إراسموس روتردامُوس الذي يحمله من الشهرة العالمية فلم يرثه من الوالدين، ولا من الأجداد، بل هو اسم اتخذه لنفسه. وأما اللغة التي يتحدث بها طوال حياته فليست الهولندية، لغة دياره، بل اللاتينية المكتسبة، وأما يوم ميلاده، وظروف مولده فيلفُّهما غموض يلفت النظر، ولا يكاد يوجد، مما هو مُستَيقَن، سوى سنة الميلاد المجرَّدة، ١٤٦٦، ولم يكن إراسموس بحال من الأحوال مبرّءاً من الجريرة في صدد ما يخيِّم عليه من الظِلال، لأنه لم يكن يحب الحديث عن أصله، لأنه «كان طفلاً غير شرعي، وثمة ما هو أكثر من ذلك، وأدعى إلى الغيظ وهو أنه كان ابن كاهن (ex illicito ut timet incesto damnatoque coitu genitus) وما يسرده تشارلز ريد في روايته المشهورة «الدير والقلب» بأسلوب رومانسي، عن طفولة إراسموس فهو اختلاق بحكم البدهية». ويموت الوالدان في مرحلة مبكرة، ومن المفهوم أن ذوي قُرباه يظهرون القدر الأكبر من الاستعجال في إبعاد النَغْل عنهم بأقل كلفة ممكنة. ومن حسن الحظ أن

الكنيسة تميل دائماً إلى اجتذاب الغلام الموهوب. وحين يبلغ التاسعة يرسل الصغير المرغوب فيه (desiderius) (وهو في الحقيقة غير المرغوب فيه) إلى مدرسة نظام الرهبنة في ديـفـينتر، ثم إلى هيرتسورغنبوش: وفي عام ١٤٨٧ يدخل دير الأوغسطينيين، دير ستاين، ولم يكن ذلك ناجماً عن ميل ديني بدرجة كبيرة، بل لأن هذا الدير كان يملك أفضل مكتبة كلاسيكية في الإقليم، وهناك خلع عنه نذر الرهبانية في عام ١٤٨٨. أمّا أنه كان في سنوات الدير هذه المتميِّزة بتوقُّد النفس، يصارع في سبيل إحراز قصب السبق الخاص بالتقوى والورع، فذلك ما لم يشهد به طرف من الأطراف، بل الأحرى أن المرء يعرف، من رسائله أن الفنون الجميلة، والأدب اللاتيني، والتصوير هي التي كانت تشغله أكثر مما عداها. وعلى كل حال فهو يتلقى، في عام ١٤٩٢، من يد أسقف أو تريشت، رسامة الكاهن.

ولم يَرَ إراسموس في ثوبه الكهنوتي هذا، طوال حياته إلاّ القلائل، في أي يوم من الأيام، على أن المسألة تحتاج دائماً إلى جهد معيَّن، لكي يتذكر المرء أن هذا الرجل المتميِّز بحرية التفكير والذي يكتب دونما عوائق، ظل حتى ساعة وفاته ينتمي إلى طبقة رجال الكهنوت، غير أن إراسموس كان يفهم فن الحياة الكبير، وهو أن ينضُوَ عن نفسه، بطريقة حذرة، لا تلفت النظر، كل ما كان غير مستحب بالقياس إليه، وأن يحافظ على حريته الباطنية مهما يكن الثوب الذي يرتديه، ومهما يكن القسر الذي يتعرَّض له فقد حصل من اثنين من البابوات،

باستخدام أبرع الذرائع، على الإعفاء من وجوب ارتداء الثوب الكهنوتي، وتحرر من الصيام الإجباري بشهادة صحية، ولم يعد إلى تربية الدير مدة يوم واحد آخر، على الرغم من كل التوسلات، والتحذيرات، بل التهديدات، من قبل رؤسائه. وبذلك وحده تتجلى سمة هامة، بل ربما السمة الأكثر جوهرية، في شخصيته: فإراسموس لا يريد أن يقيِّد نفسه بشيء، ولا أن يرتبط بأحد، ولا يريد أن يأخذ على عاتقه خدمة أمير، أو سيد، أو حتى عبادة الرب، على الدوام، إذ لا بد له أن يظل حراً بدافع داخليّ في طبيعته يقسُرُه على الاستقلال، وأن لا يكون من رعايا لأحد، ولم يحدث قط أن اعترف، في قرارة نفسه، برئيس، ولا ببلاط، ولا بجامعة، ولا بمهنة، ولا بدَيْر ولا بكنيسة، ولم يكن يشعر، في أي مدينة، وفي أي يوم من الأيام، بأنه ملتزم، ومثلما كان يدافع عن حرية فكره، كان يدافع، طوال حياته، عن حريته المعنوية بعنادٍ هادىء وجَلْد.

وينضمُّ إلى هذا الملْمَحِ الجوهري من ملامح شخصيته، من الوجهة العضوية، ملْمَحٌ ثانٍ. فالحق أن إراسموس من المتعصبين للاستقلالية، غير أنه لا يُعَدُّ، من أجل ذلك، متمرِّداً بحال من الأحوال، أو ثورياً، بل على النقيض من ذلك، فهو يشمئز من كل أنواع الصراع المكشوف، وهو يتجَّنب، بحكم كونه من أهل التكتيك الأذكياء، كل مقاومة غير مجدية ضد الدول وأصحاب السلطان، بل يؤثر الاتفاق معهم على معارضتهم، ويفضل الحصول على استقلاليته بالحيلة

والتملق والخداع، على الحصول عليها بمحاربتهم، ولا ينضو عن نفسه، مثل لوثر، طيلسان الراهب الأغسطيني، بلفتة درامية جرئية، لأنها تُمسك بخناقه وتضيّق عليه، كلاّ، بل يفضل أن يخلعها بهدوء، بعد الحصول على إذن بطريقة خفيّة، في إطار من السكينة الكاملة، وبحكم كونه تلميذاً نجيباً لابن بلده راينيكه فوكس، يُفلِت ببراعة ورشاقة من كل شَرَك ينصبه الناس له، ولمّا كان أكثر حذراً من أن يتحوّل إلى بطل في أيّ يوم من الأيام فهو يصل إلى مبتغاه، عن طريق فكره الصافي الذي يقدّر مواطن الضعف في البشر، بأسلوب متفوّق، ويحسب حساباً لكل ما هو ضروري من أجل تطوُّر شخصيته: فهو ينتصر في معركته الخالدة من أجل الاستقلالية في تشكيل حياته، لا عن طريق الجرأة، بل عن طريق السيكولوجيا.

ولكن هذا الفن العظيم، المتمثل في تشكيله حياتَه بحرية واستقلال (وهو أصعب الفنون عند كل فنان)، يقتضي اكتسابه بالتعلُّم. وقد كانت مدرسة إراسموس قاسية، طويلة الأمد، مُجْهِدة. إذ لم يُفْلِت من قبضة الدير إلاّ وهو في السادسة والعشرين، وكان ما فيه من ضيقِ المجال وضيق الأفق قد غدا شيئاً لا يُحتَمَل، وما من شك – وهذا هو الاختبار الأول لبراعته الدبلوماسيّة، في أنه لا يفلت من قبضة رئيسه بصفته راهباً حانثاً بالقسم، بل يطلب إلحاقه بأسقف كمبراي لكي يصحبه في رحلته إلى إيطاليا، سكرتيراً لاتينيّاً، وفي السنة ذاتها التي اكتشف فيها كولومبوس أمريكا، يكتشف حبيس الدَيْر لنفسه أوروبا، عالمه المستقبليّ،

وكان من حسن الحظ أن الأسقف يؤجل رحلته، فبذلك يتوافر لإراسموس، بطريقة مريحة، الوقت اللازم للاستمتاع بالحياة على طريقته إذا لا يضطر إلى ترتيل أدعية القداس، بل يستطيع أن يجلس إلى المائدة الكبرى التي أُحسِن انتقاء مآكلها، فيتعرَّف على الأذكياء من البشر، ويقبل بحماسة وشغف على دراسة الكلاسيكيين اللاتين والكلاسيكيين الكنسيين، ويتابع الكتابة فضلاً عن ذلك، في حواره الذي يحمل عنوان «مناوأة البربرية» (antibarbari) وبالمناسبة، فقد كان من الممكن، لهذا العنوان الذي تحمله باكورة أعماله، أن يَرِدَ على كل صفحات الغلاف في أعماله، ومن دون شعور منه استهل الحملة الكبرى في حياته ضد انعدام الثقافة، والحماقة والتعاظم التقليدي بتهذيب أخلاقه وصقلها وتوسيع معارفه. ولكن من المؤسف أن أسقف كمبراي يتخلى عن رحلته إلى روما، ويُقَدَّر للوقت الجميل أن ينتهي فجأة. والآن ما عاد ثمة حاجة إلى أمين سر لا تيني، وبات من الواجب الآن أن يعود الراهب المستعار إلى دَيْرِه، ولكِنْ الآن، إذ تجرع سُمَّ الحرية الحُلْو ذات مرة، ما عاد يريد أن يمسك عنه بعدُ، أبداً. وهكذا يتظاهر، نفاقاً، بالإحساس برغبة لا تُقاوم، في الوصول إلى الدرجات العليا من العلم الكهنوتي، ويُلِحّ، بكل الهوى الجامح، وبكل الطاقة التي تنبعث من خوفه من الدير. وفي الوقت ذاته، بفن السيكولوجيا الذي نضج عنده فجأة، على الأسقف الطيب، أن يبعث به، مع منحة دراسية إلى باريس، ليستطيع أن يحصل هناك على

درجة الدكتوراة في اللاهوت، وأخيراً يمنحه الأسقف بركته ويمنحه، وهذا هو الأهم عند إراسموس، كيساً صغيراً من النقود، بصفة منحة دراسية وعبثاً ينتظر رئيس الرهبان عودة الرجل العديم الإخلاص والوفاء، غير أنه سيضطر إلى اعتياد انتظاره سنين وعقوداً من الزمان، لأن إراسموس كان قد منح نفسه منذ عهد بعيد إجازتها من الرهبانية، ومن كل قسرٍ آخر على مدى حياته بأكملها، ممارساً سيادته الكاملة على نفسه.

وكان أسقف كمبراي قد منح الطالب الكهنوتيّ الفتى، كيس النقود المألوف، ولكن كيس النقود هذا ضئيل إلى حد يبعث على اليأس، من حيث كونه منحة دراسية لرجل في الثلاثين من عمره، وبتهكمٍ مرير يُعمِّد إراسموس راعيه المقتصد المُقتِّر بلقب (antimae cenas)، ويضطر الرجل الذي اعتاد الحرية فجأة، وأفسده التدليل على مائدة الأسقف، في (domas pauperum)، إلى اتخاذ مسكن له في الكوليج مونتيغ، ذي السمعة السيئة، الذي قلّما يريحه بما يسود فيه من قواعد التقشُّف، وإدارته الكهنوتية الصارمة، ولما كان واقعاً في الحي اللاتيني، على جبل سان ميشيل (عند البانتيؤون الحالي تقريباً)، فقد كان سجن الفكر هذا يوصد الأبواب في وجه الطالب الفتى المفعم بالرغبة في الحياة، دون الممارسات المرحة لزملائه من أهل الدنيا، كأنما بدافع الغيرة، على نحوٍ كامل، وهو يتحدث عن هذا السجن اللاهوتي الذي كان يحبس فيه أجمل أيام صباه كأنما يتحدث عن فترة عقوبة يقضيها. وذلك أن إراسموس،

الذي بات يحمل تصوُرات حديثة عن قواعد الصحة، على نحو مفاجىء، ينتقل في رسائله من شكوى إلى أخرى: أما حجرات النوم فغير صحية، وأما الجدران فباردة كالجليد، وأما طلاء الجدران فعارٍ، وإن المرء ليحس بقربها من المرلحيض، وما من أحد يستطيع أن يسكن طويلاً في «كلية الخلّ» هذه من دون أن ينتابه مرض قاتل، أو يموت. وحتى الغذاء لا يريحه، فالبيض، أو اللحم فاسدان والخمر فاسدة، والليل حافل بالكفاح المشين ضد الحشرات (كالقمل والجرذان)، ويقول فيما بعد، في حلقاته الدراسية: «أأنت قادم من كلية مونتيغ؟. لا شك في أنك كلّلت هامتك بإكليل الغار؟ – كلاّ بل بالبراغيث. وكانت تربية الدير في تلك الأيام لا ترتدع، فوق هذا، عن عمليات التأديب الجسدي: وما ظل زاهد متقشف، متعصب، مثل لويولا على مدى عشرين عاماً، يفكر فيه، وهو احتمال العصا، والخيزرانة، برزانة، من أجل تربية الإرادة، في المنزل ذاته، تمتعض منه طبيعة عصبية، نزّاعة إلى الاستقلال مثل طبيعة إراسموس، وحتى التعليم يثير اشمئزازه: فعلى وجه السرعة يتعلّم الاشمئزاز من روح المذهب المدرسي بصورتّيه المنقرضة، ونزعاته التلمودية، وألوان سفسطته ومراوغته، إلى الأبد، فالفنان فيه يتذمّر – لا بمثل المسرح المُسَلي كما كان الحال فيما بعد عند رابليه، ولكن بالازدراء ذاته – من اغتصاب الفكر، في سرير بروكروستيس[1] هذا. «ما من أحد يستطيع أن

---

(١) هولصٌ كان يمطُّ أعضاء المسافرين الراقدين على سريره أو يبترها إلى أن تأتي ملائمة لمقاس السرير «المترجم».

يفهم أسرار هذا العلم، إذا ما دأب على التعامل مع إلاهات الشعر والجمال والظُرف، ولا بُدَّ أن تضيِّع هنا كل اكتسبته من الآداب الجميلة، ولأن تتقيَّأ كل ما شربته من ينابيع هيليكون[1]، على أنني أفعل أفضل ما أستطيع أن أفعله، حين لا أتفوَّه بشيء من اللاتينية، أو بشيء جميل ساحر، أو ظريف وأحقق في ذلك من خطوات التقدم ما يجعلها تعترف ذات مرة بأنني فتاها». وفي النهاية يتيح له المرض الذريعة التي طال شوقه إليها، لكي يهرب من سفينة التجديف هذه البغيضة الخاصة بالأشغال الشاقة، سفينة تعذيب الجسد والروح، مع التخلّي عن درجة الدكتوراة في اللاهوت والحق أن إراسموس يعود أدراجه، بعد فترة استجمام وجيزة، إلى باريس، من جديد غير أنه لا يعود بعدها إلى «كلية الخلّ» (college vinaigre)، بل يؤثر أن ينأى بنفسه بعيداً، بأن يعمل مدرساً خصوصياً ومساعداً على التقوية، لفتيان من الألمان والإنكليز الموسرين: وكان استقلال الفنان بذاته قد بدأ في الكاهن.

ولكن الاستقلال بالنفس بالنسبة للإنسان المفكر، في العالم الذي كان ما يزال يتسم بسمة العصور الوسطى جزئياً، لم يكن وارداً على الإطلاق، إذ كانت كل الطبقات ذات حدود مرسومة في سلسلة واضحة من المراحل، فكان هناك الأمراء الزمنيون وأمراء الكهنوت، ورجال الدين، والنقابات، والجند، والموظفون، والعمال اليدويون، والفلاحون، وكانت كل طبقة على حدة، وكل فئة جامدة، قد أقيمت دونها الأسوار

---

(١) Helikon : جبل في اليونان ، فيه مقر آلهة الشعر .

بعصايه في وجه كل دخيل، ولمّا يتوافر بعد، في هذا النظام العالمي، مجال لرجل الفكر، أو للإنسان المبدع، أو للمثقف أو للفنان الحر، أو للموسيقي، لأن أجور أصحاب المهن الحرة التي باتت تتيح الاستقلالية فيما بعد، لمّا تُختَرَع. وعلى هذا لا يبقى أمام الإنسان المفكِّر خيار آخر سوى أن يخدم أيّاً من هذه الطبقات الحاكمة، ولا بُدَّ له أن يكون خادم الأمراء، أو قائماً بأمر القدّاس، ولمّا كان الفن ما زال لا يعدُّ قوة قائمةً بذاتها، فلا بُدَّ له أن يلتمس الحُظْوةَ لدى الأقوياء، ولا بُدَّ له أن يغدو من ذوي الحُظْوة عند سيد جليل، وأن يحصل، بالتوسُّل، على وظيفة كنسية، ويكون له هناك معاش، ولا بُدَّ له - حتى عام موتسارت وهايدن - أن يلوذ بأكناف المحيط العام من العاملين في الخدمة، ولا بُدَّ له، إذا لم يُرِد أن يموت جوعاً، أن يتملّق أهل الصلف والخال بألوان التفاني، ويفزع أهل الخوف بالكتيِّبات، ويلاحق الأغنياء برسائل الاستجداء، من دون انقطاع ؛ ومن دون يقين، وعند وليّ النعمة هذا، أو عند الكثيرين من أمثاله، يتجدد بالقياس إليه هذا الكفاح غير اللائق من أجل لقمة العيش اليومية. ولقد عاشت عشرة من الأجيال أو اثنتا عشرة، من فالتر فون دير فوغلـفـايده إلى بيتهوفن، الذي كان أوّل من يقتضي من الأقوياء، شأن السيد، حقّ الفنان العائد إليه، ويأخذه من دون مراعاة. على أن هذا التضاؤل، والتعلّق بالأنيال، واللّواذ والتماس الملاذ، لم يكُنَّ يعنين، بالطبع، بالقياس إلى رجل من أهل الفكر بمثل هذا التفوّق، وهذه السخرية، مثل إراسمو»

تضحية كبيرة، وذلك لأنه ينظر منذ مرحلة مبكرّة، في مسرحية الخداع التي يمثلها عالم المجتمع، ولأنه لم يكن ذا طبيعة متمرّدة، فهو يتقبّل قوانينه السارية من دون شكوى، ولا يكرّس جهده إلاّ لكي يخترقه بطريقة بارعة، ويلتفَّ عليه التفافاً، ولكن طريقه إلى النجاح يظل، على الرغم من ذلك، يستغرق وقتاً طويلاً، وقلّما يُحسَد عليه. فحتى عامه الخمسين، إذ يخطب ودَّه الأمراء من جانبهم، ويتوجَّه إليه البابوات وأهل الإصلاح الديني بالرجاء والالتماس، ويزحف نحوه الطابعون كالعاصفة، ويتشرَّف الأغنياء بإرسال هدية إليه في منزله، يعيش إراسموس مما يُهدى إليه من لقمة العيش، بل مما يُنال بالتوسُّل. ويظل يضطر، حتى بعد أن يعلوه المشيب، إلى الانحناء، والركوع، ولا تحصى عبارات الإهداء التي تتضمن التفاني وتكريس النفس، ولا رسائل تملُّقه، فهي تشكِّل جزءاً كبيراً من مراسلاته وإنها لخليقة، إذا ما جُمِعَت وحدها، أن تشكل مجموعة كاملة، كلاسيكية على وجه الخصوص، من أنواع ونماذج شتى، من أجل أهل التوسُّل والتضرُّع، وبقدر جدٍّ رائع من المكر والفن، يعرض ألوان توسُّله. ولكن يكمن لديه وراء هذا النقص الذي يُؤسَف له في كثير من الأحيان، في اعتداده بشخصيته، إرادة مصممة، رائعة، تتعلّق بالوصول إلى الاستقلال. وذلك أن إراسموس يتملَّق في رسائله ليستطيع أن يكون أكثر أصالة في أعماله. وهو يدع للناس على الدوام يتقدمون إليه بالهدايا، ولكنه لا يدع فرداً لوحداً يشتريه، وهو يردُّ كل ما يمكن أن

يربطه على نحو دائم بشخصية بذاتها. وعلى الرغم من كونه من مشاهير أهل الثقافة والعلم على الصعيد العالمي، وكانت العشرات من الجامعات تودُّ لو تشدَّه إلى منابرها، فهو يفضل أن يكون مجرد مصحح في مطبعة، في مطبعة أَلْدوسْ في البندقية، أو يصبح كبير الأمناء في قصر، أو موظفاً رفيع المستوى، مختصاً بالأسفار لدى الأرستقراطيين الإنكليز المتميزين بحداثة السن، أو مجرد طفيليّ لدى معارفه الأغنياء. ولكن هذا كله لا يدوم، على وجه الدقة، إلاّ ما دلم يروق له، ولم يكن يقرُّ له قرار في مكان إلى أجل طويل. وقد جعلت هذه الإرادة المصممة بعناد، على التشبُّث بالحرية، وعدم الرغبة في خدمة أحد، من إراسموس بدوياً مُتَرَحِّلاً طوال حياته، فهو يظل، بغير انقطاع، يجوب البلدان كلها، إذ يكون في هولندا حيناً، وفي إنكلترا حيناً آخر، ويكون في إيطاليا تارة، وفي ألمانيا وسويسرا تارة أخرى، فهو الأكثر ارتحالاً إليه بين مثقفي عصره، وهو لا يفتقر الافتقار المطلق أبداً، ولا يكون غنياً بمعنى الكلمة أبداً، وهو، مثل بيتهوفن، «يعيش في الهواء» دائماً، ولكن هذا التطواف والغُدُوّ والرواح دونما هدف، هما في طبيعته الفلسفية، أغلى عنده من المنزل والديار، ولأَنْ يظل أمين سرٍّ ضئيل الشأن عند أُسقُف من الأساقفة، حيناً من الزمن، أحبُّ إليه من أن يغدو هو ذاته أسقفاً إلى آخر الدهر، ولأن يكون مستشاراً في بعض الأحيان عند أمير لقاء حفنة من الدوكات، أحبُّ إليه من أن يكون مستشار الدولة الألمانية الذي لا حدَّ لسلطانه. وبدافع

من غريزة في أعماقه يُجفِل إنسان الفكر هذا من كل سلطان ظاهري، من كل مسيرة مهنية متصلة: أمّا المثل الأعلى الحقيقي للحياة عند إراسموس فكان العملَ في ظل السلطة، منعزلاً عن كل مسؤولية، وأن يقرأ، في حجرة هادئة، كتباً جيدة، ويكتب كتبه هو، وأن لا يكون آمراً على أحد، ولا يكون تابعاً لأحد. ومن أجل هذه الحرية الفكرية يسلك الكثير من الطرق المظلمة، بل الملتوية، غير أنها تفضي جميعاً إلى الهدف الداخلي الواحد ذاته، إلى الاستقلالية الفكرية في فنه، وفي حياته.

أما مجاله الحقيقي فلا يكتشفه إراسموس لنفسه إلاّ وهو في الثلاثين من عمره، في إنكلترا. لقد كان حتى الآن يعيش في حجرات الدير الرطبة ذات الهواء الخانق، بين أناس محدودين، من عامة الناس، وكانت التربية الإسبارطية التي تتم في الحلقات الدراسية والقسر الفكري الذي كأنما يُفرَض بأدوات التعذيب، والمرتبط بالمذهب المدرسي، يمثلان عذاباً حقيقياً لأعصابه المرهفة الحساسة الفضولية، ولم يكن فكره المبنيّ على النطاق الواسع يستطيع أن يتطور ويزدهر في إطار هذا التقييد، ولكن هذا المِلح، وهذه المرارة ربما كانا ضروريَّيْن لكي يهبا له هذا الظمأ الهائل إلى معرفة العالم، وإلى الحرية، ذلك لأن هذا الذي ظل وقتاً طويلاً يتعرَّض للامتحان، تعلَّم، في إطار هذه التربية، أن يكره مرة وإلى الأبد، كل ما هو ضيق الأفق قصير النظر، وأحاديّ الجانب على الطريقة المذهبية، وكلَّ ما هو فظ ذو لهجة آمِرة على أنه مجانب للإنسانية، على أن مجرد معاناة

إراسموس فون روتردام للعصر الوسيط في جسده هو، وفي نفسه هو، وبكل هذا الاكتمال وهذا الإيلام، هذه المعاناة على وجه الخصوص، تؤهّله لأن يصبح رسول العصر الجديد. وحين يأخذه معه تلميذ حديث السن، هو اللورد مونتجوي، إلى انكلترا يتنفس، وقد سُعِد سعادة لا يُسبَر غورها، لأول مرة، الهواء الذي يبعث فيه القوة، هواءَ حضارة الفكر. ذلك لأن إراسموس يأتي في لحظة مواتية، إلى العالم الأنجلوسكسوني. فبعد الحرب التي لا نهاية لها، بين حزب الوردة البيضاء وحزب الوردة الحمراء التي سحقت البلاد على مدى عقود من الزمان، تعود إنكلترا من جديد إلى الاستمتاع ببركات السلام، وفي كل مكان تمّت فيه إزاحة الحرب والسياسة، يتمكن الفن والعلم من الازدهار بحرية أكثر. ولأول مرة يكتشف تلميذ الدير الصغير، ومدرس الساعات الخصوصية، أن هناك جوّاً لا يكون فيه القول الفصل، والسلطان، إلاّ للفكر والمعرفة. فما من أحد يسأله عن ميلاده بصفته طفلاً غير شرعي، ويحصي عليه قدّاساته وصلواته. هنا لا يُقَدَّر إلاّ من حيث كونه فناناً، ومثقَّفاً، من أجل لاتينيَّته الأنيقة وفن حديثه الممتع، في أكثر الأوساط نبلاً، ويتعرّف، وقد أُفْعِم بالسعادة، على كرم الضيافة الرائع، والتجرد من الأحكام المسبقة، عند الإنكليز.

« ces grands mylords
accords , beaux et courtois , magnanines et forts »

كما يشيد بهذا رونسار، ويتجلى له في هذه البلاد نوع آخر من التفكير. وعلى الرغم من أن ويكليف طواه النسيان منذ عهد بعيد، فإن فهم اللاهوت الأكثر حرية وجرأة ما زال يواصل حياته في أوكسفورد. وهنا يجد معلمي اللغة اليونانية الذين يفتحون ذهنه لكلاسيكية جديدة، ويغدو أفضل رجال الفكر، وأعظم الرجال، أولياء نعمته وأصدقاءه، وحتى الملك الشاب، هنري الثامن، الذي ما زال في تلك الأيام أميراً، يطلب أن يُقَدَّم إليه الكاهن الصغير. وإنه لمما يشرِّف إراسموس على مدى العصور كلها، ويشهد على موقفه المؤثِّر، أن أنبل البشر في ذلك الجيل، أنَّ توماس مور وجون فيشر، كانا أقرب أصدقائه إليه، وأن جون كوليت، والأسقفان وارهام وكرانمر، أصبحوا أولياء نعمته، وبظمأ محموم يتجرَّع الإنساني الشاب مثل هذا الهواء الذي يتخلله التوهُّج الفكري، وهو يستغل فترة كرم الضيافة هذه، ليوسِّع معرفته في كل الاتجاهات، وهو يصقل، ويهذِّب، في الحديث مع النبلاء وأصدقائهم وأزواجهم، صيغ التعامل لديه. ثم إن ما ينطوي عليه مركزه من الثقة بالنفس، كان مما يساعده على التبدُّل السريع وينجم عن الكاهن الضئيل الوَجِل، المفتقر إلى الطلاقة والرشاقة، نوع الأب الكاثوليكي الذي يرتدي طيلسانه مثلما يرتدي المرء ثوباً لحفلة أو سهرة. ويبدأ إراسموس في العناية بملابسه وهندامه، ويتعلم ركوب الخيل والصيد. ثم إن طراز حياته الأرستقراطي الذي يتميَّز بعد ذلك، في ألمانيا، تميُّزاً حاداً، من الأشكال الأكثر خشونة وغِلْظة عند إنسانيي الريف، كان يعود عليه

بقَدْر كبير من مكانته الثقافية السامية، كان قد وَطّن نفسه عليه في منازل مضيفيه من النبلاء الإنكليز. ولمّا كان يتبوّأ مكاناً وسطاً من العالم السياسيّ، وكان يتمتع بعلاقة أخوية مع أفضل رجال الفكر في الكنيسة والبلاط، فقد كان نظره الثاقب يكتسب ذلك الاتساع، وتلك العالمية التي تحظى فيه، فيما بعد، بإعجاب العالم. ولكن نفسه أيضاً تصبح مشرقة، فهو يكتب إلى صديق من أصدقائه قائلاً: «أتسألني هل أحب إنكلترا؟ وأقول: إذا كنت مُصَدِّقاً لي فأرجو منك أن تصدِّقَني في هذا أيضاً، وهو أنه ما من شيء طابت به نفسي، إلى هذا الحد، في أي يوم من الأيام. فأنا أجد هنا مناخاً مستعذباً، صحياً، وأجد الكثير من الحضارة والثقافة، والحق أني لا أجد الأسلوب المتحذلق المبالغ في تقدير الصغائر، بل أجد أسلوب الثقافة الإنكليزية العميقة، الدقيقة، سواء في اللاتينيّة أم في اليونانية، حتى إنني ما عدت إلاّ بالقليل من الشوق إلى إيطاليا، إلاّ ما تعلَّق منها بالأشياء التي يمكن مشاهدتها هناك، وعندما أصغي إلى صديقي كوليت يخيَّل إليَّ أني أصيخ السمع إلى أفلاطون ذاته، وهل أبدعت الطبيعة في أي يوم من الأيام مَعْدِناً أطيب، وأَرَقّ وأوفر سعادة وتوفيقاً من مَعْدِن توماس مور؟». وفي إنكلترا يبرأ إراسموس من داء العصر الوسيط.

ومع ذلك فكل حب إراسموس لإنكلترا لا يجعل منه إنكليزياً. ولمّا كان هذا المتحرر مواطناً عالمياً، متمرِّساً بالدنيا، ذا طبيعة حرة، وتفكير ينزِع إلى العامّ الشامل، فهو يعود أدراجه. ومنذ الآن فصاعداً

يوجد حبه حيثما تسود المعرفة والحضارة، وحيثما تسود الثقافة والكتاب، وما عاد العالم ينقسَّم، بالقياس إليه، بلداناً وأنهاراً وبحاراً، ولا أطواراً وأعراقاً وطبقاتٍ، إنه ما عاد يعرف إلا طبقتين. أرستقراطية الثقافة والفكر بصفتها العالم الأعلى، والعوامّ والبربرية اللذين يمثلان العالم الأدنى، وحيثما يسود الكتاب، والكلمة «البلاغة والعلم الممَّحص» يكون موطنه منذ الآن فصاعداً.

وهذا الاقتصار العنيد على الوسط الخاص بأرستقراطية الفكر، على طبقة الثقافة التي كانت في تلك الأيام ضئيلة للغاية، يضفي على إراسموس وإبداعه شيئاً يتسم بانعدام الجذور: فبحكم كونه المواطن العالمي الحقيقي، يظل، في كل مكان، مجرد زائر، أو مجرد ضيف، وما من مكان يتمثَّل فيه في نفسه عادات شعب وطبعه، وما من مكان يتمثَّل فيه لغة حبة واحدة. والحق أنه مرّ، بأسفاره التي لا تحصى، بالجانب الأكثر تعبيراً عن جوهر كل بلد ومَعْدنِه، مرور الكرام. وبالقياس إليه كانت إيطاليا وفرنسا وألمانيا وإنكلترا، يتألَّفنَ من اثنيْ عشرية من البشر الذين كان يستطيع أن يخوض معهم في حوار مهذَّب مصقول، وكانت المدينة بالقياس إليه تتألف من مكتباتها. وكان ما يزال يلاحظ بعدُ، على كل الأحوال، أين تكون منازل الضيافة بأنقى أشكالها، والبشر المتميِّزون بأقصى قدر من التهذيب، والخمور ذات المذاق الأحلى. ولكن كل فن آخر سوى فن الكتاب ظل مستغلقاً عليه، فلم تكن له عين تتذوَّق

التصوير، ولا أذن صاغية إلى الموسيقا. وهو لا يلاحظ أن ثمة رجالاً يحملون أسماء: ليوناردو ورافائيل وميكيل أنجلو، يبدعون، أما حماسة البابوات للفن فينحي عليها باللائمة على أنها تبديد للأموال لا حاجة إليه، وعلى أنها حبٌّ للأُبَّهة مخالف للإنجيل، ولم يقرأ إراسموس قطُّ أشعار أريوست، ويظل تشوسر في إنكلترا غريباً عنه، كما يظل الأدب الفرنسيّ غريباً عنه في فرنسا، ولا تكون أذنه صاغية حقاً إلاّ للُغة الواحدة، وهي اللاتينية، وكان فن غوتنبرغ بالقياس إليه إلهة الشعر الوحيدة التي كان متأخِياً معها حقاً، وهو الأنموذج الأكثر رقة ولطفاً على الإطلاق، للأديب الذي لا يكون مضمون العالم مفهوماً بالنسبة إليه، إلاّ عن طريق الحروف. ولم يكن يستطيع أن يدخل في علاقة مع الواقع بوسيلة أخرى سوى وسيلة الكتب، وكان له من التعامل معها أكثر مما كان له من التعامل مع النساء. كان يحبها لأنها هادئة، خفيضة الصوت، خالية من العنف والقَسْر، وغير مفهومة لدى الجمهور المتبلِّد الذهن، وهي الامتياز الوحيد للمثقفين في عصر تُهْدَر فيه الحقوق في العادة. وفي هذا الجو وحده كان الرجل الذي كان في العادة مقتصِداً، يستطيع أن يتحوّل إلى مبذِّر، وعندما كان يحاول تأمين المال عن طريق الإهداءات لم يكن يفعل ذلك إلاّ لمجرد أن يتمكّن من شراء الكتب، وشراء المزيد أبداً، المزيد من كتب الكلاسيكيين اليونان واللاّتين، ولم يكن يحب الكتب من أجل مضمونها فحسب،

بل كان يؤلّهها أيضاً بحكم كونه واحداً من أوائل محبّي الكتب، ويحبها حباً حِسّياً، في وجودها، وفي نشوئها، وفي قالبها الرائع الذي يسهل استعماله على الأيدي مع تميُّزه بالجمال في الوقت ذاته. وكان الوقوف عند أَلْدوس، في البندقية، أو عند فروبن في بازِل، في حجرة المطبعة الخفيضة، بين العاملين، واستقبال طلحيّات الطبع من المطبعة، وتنزيل الزخارف، والحروف الاستهلالية (في أوائل الفقرات) بالاشتراك مع أساتذة هذا الفن، ومطاردة الأخطاء المطبعية، بعينيْ الصياد الحادّ النظر، بريشة مدبَّبة، رشيقة عَجْلى، أو استكمال صياغة عبارة لاتينية بطريقة أكثر نقاءاً وأكثر كلاسيكية، على عجل، على الصحائف النَّديّة، كانت هذه الأمور بالقياس إليه، أسعد لحظات حياته. كان العمل في الكتب، ومن أجل الكتب، الشكل الأقرب إلى الجانب الطبيعي في حياته. وفي النهاية فإن إراسموس لم يَعِش أبداً في صفوف الشعوب، وفي داخل البلدان، بل عاش فوقها، في جوّ أكثر رِقّة، وأوضح رؤية، في برج الفنان العاجي، برج الأكاديميّ، غير أنه كان يطلُّ من هذا البرج الذي شُيِّدَ، بأكمله من الكتب والعمل، بفضول في صورة لينكويس[1] آخر، لكي يستطيع أن يرى الحياة المفعمة بالروح، رؤية واضحة ومنصفة ويفهمها.

---

(١) هو في الأسطورة اليونانية رجل حاد النظر، يصل بصره إلى جوف الأرض. «المترجم»


ER. ROT.
TERMINVS
Pallas Apelleam nuper mirata tabellam,
Hanc ait, æternum Bibliotheca colat.
Dædaleam monstrat Musis HOLBEINNIUS artem
Et summi ingenij Magnus ERASMUS opes.

ذلك لأن الفهم، الذي يتحَسَّنُ على نحو مطرد، كان المتعة الحقيقية عند هذا العبقري الذي يلفت النظر وإذا قصدنا إلى المعنى الدقيق الصارم فقد لا يكون من الممكن أن يُعَدَّ إراسموس من ذوي الفكر العميق. ولم يكن ممن يفكرون في الأمور إلى النهاية، ولم يكن من كبار أولئك الذي يقبلون الصيغ والقوالب، والذي يَهَبون للفضاء الخارجي نظامَ كواكبٍ فكريّاً جديداً، وليست حقائق إراسموس» في الحقيقة إلاّ أشكالاً من الوضوح والصفاء، ولكن إذا لم يكن إراسموس من ذوي الفكر العميق فقد كان، بلا ريب، من ذوي الفكر الواسع النطاق إلى حد غير مألوف، ولئن لم يكن من المتعمّقين في التفكير فقد كان، بلا ريب، من ذوي التفكير الصحيح، وكان مفكِّراً إشراقياً ومفكِّراً حرّاً، بالمعنى الذي يّرِد عند فولتير وليسنغ، وكان من ذوي الفهم الأنمونجي، وكان ممن يجعلون الأمور ممكنة الفهم، وكان تنويريّاً، بأنبل معاني الكلمة، وكان نشر الإشراق، والسطوع، والفصاحة ووضوح التعبير، بالنسبة إليه وظيفة طبيعية، وكان كل شيء مختلط ملتبس يثير اشمئزازه، وكان كل شيء غيبـيّ (ميتافيزيقيّ) إلى حد المبالغة يثير نفوره. وكان، مثل غوته، لا يكره شيئاً مثلما يكره «الضبابيّ». وكان الواسع النطاق، البعيد المدى يجتذبه بالانطلاق من ذاته، غير أن العمق لم يكن يجتذبه. ولم يَنْحَنِ أبداً ليُطِلَّ على «هاوية» باسكال ولم يعرف ألوان الزلزلة التي تسري في نفس رجل مثل لوثر، أو لويولا، أو دوستويفسكي، هذا الضرب

من الأزمات الرهيبة، التي تكون، بطريقة خفية، وثيقة الصلة بالموت والجنون. ولم يكن بُدٌّ لكل ما ينزِع إلى المبالغة أن يظل غريباً عن أسلوبه العقلاني، ولكن لم يكن هناك، من ناحية أخرى أيضاً، إنسان آخر في العصر الوسيط، قليل النزوع إلى الخرافة مثله. والأرجح أنه كان يبتسم ابتسامة يسيرة حيال التشنُّجات والأزمات التي تنتاب معاصريه وحيال الرؤى الجحيمية عند رجل مثل باراسيلسوس، ولم يكن يستطيع أن يفهم إلاّ ما يفهمه الناس جميعاً ويجعلونه مفهوماً. وكان الوضوح يستقر استقراراً عضوياً حتى في نظرته الأولى، وكان لا يضيء شيئاً ببصره النزيه إلاّ استحال على الفور نيِّراً، منظَّماً، وبفضل هذه الشفافية الرائقة كالماء، في تفكيره، والتبصُّر في شعوره، أصبح المُيَسِّر الكبير للفهم، وناقد العصر الكبير، والمربي الكبير، ومعلِّم قرنه، غير أنه كان معلماً، لا لجيله فحسب، بل للأجيال التالية أيضاً، لأن كل التنويريين، والمفكرين الأحرار، والموسوعيين في القرن الثامن عشر، ومعهم أيضاً كثير من أرباب التربية في القرن التاسع عشر إنما هم روح من روحه.

ولكِنْ يستكن في كل ما يتسم بصحوة الذهن، وبالسمة التعليمية خطر التسطُّح والتردّي في هوَّة المحدودية وضيق الأفق، ولئن كانت تنويريَّة القرنين السابع عشر والثامن عشر تثير اشمئزازنا بعقلنتها المتفاخرة فليس هذا ذنب إراسموس، لأنها لا تقلِّد إلاّ نهجه وتستغني عن روحه وفكره، لقد كان أولئك الرهط من صغار المفكرين يفتقرون

إلى ذرَّة ملح أتيكا، إلى ذلك التفوق الذي يتّسِم بسمة السيادة، والذي يجعل كل رسائل أستاذهم ومحاوراته مسلية للغاية، مستساغة من الناحية الأدبية إلى حد بعيد. وكان يتوازن في إراسموس على الدوام مزاج تهكُمي مستبشِر مع جانب الثقافة الشاملة المقترنة بالمهابة والوقار، وكان قوياً بما يكفي لكي يتمكن من ممارسة العبث واللعب بطاقته الذهنية، وكان يملك، على وجه الخصوص، ناصية فكاهة متألِّقة ومع ذلك فلم تكن خبيثة، في الوقت ذاته، وكانت لاذعة، ومع ذلك فلم تكن سيئة المقصد، وأصبح وارِثُها سويفت، ثم ليسِّنغ، وفولتير وشو، وكان إراسموس أول كاتب كبير متين الأسلوب. في العصر الحديث، عرف كيف يهمِس بحقائق معينة تجديفيّة بأسلوب الهمز واللمز، وكان يعرف كيف يُسَرِّب، بوقاحة عبقرية، وبراعة لا تُضاهى، أكثر الأمور انطواءاً على الحرج والإشكالية، ويمرُّ بها أمام أعين الرقابة مخادعاً مُضلِّلاً، وكان متمرِّداً خطيراً، غير أنه لم يعرِّض نفسه للخطر أبداً، يحتمي بمسوح العلماء أو بثوب المُعابث الممازح يندسُّ فيه على عجل، وكان الآخرون ينتهون إلى المحرقة جزاءاً على عُشْرِ ما تفوَّه به إراسموس من الأمور الجريئة في عصره، لأنهم خرجوا بها على الملأ بأسلوب فظٍّ خشن، غير أن كتبه كانت تتلَطَّف للبابوات وأمراء الكنيسة وتجاملهم، وتُبَجِّل الملوك والدوقات، بل تعوِّضهم بمراتب الشرف والهدايا. وبفضل فن التعبئة والتغليف عنده، ذلك الفن الذي يتسم بالسمة الإنسانية الأدبية، هرَّب إراسموس في الحقيقة كل مادة

الإصلاح الديني المتفجِّرة إلى الأديرة وإلى قصور الأمراء، وبه تبدأ – وقد كان رائداً في كل مكان – المقدرة الفنية القصوى في النثر السياسي، بكل درجات سلَّمه، من الشعْرِيّ إلى الأُهْجُوَّة اللاذعة المرحةِ المعلَّقة في مكان عام، إلى ذلك الفن المُجَنَّح المبنيّ على الكلمة الملتهبة، الذي يكتمل بعد ذلك اكتمالاً رائعاً عند فولتير وهاينه ونيتشه، ويتهكَّم على كل السلطات الزمنية والكهنوتية، وكان على الدوام أخطر على ما هو قائم، من الهجمات الصريحة المكشوفة، من قبل أولئك الذي يتّسمون بالسماجة وثقل الدم. وبفعل إراسموس يتحوَّل الكاتب، أوَّل مرة، إلى سلطة في أوربا إلى جانب السلطات الأخرى. أمّا أنه لم يمارس هذه السلطة بقصد بث الانحلال والفرقة والتحريض وإثارة المشاعر، بل مارسها في إطار ذلك الالتزام وتلك السمة المشتركة، فذلك ما يظل مجدَه الدائم.

وهذا الكاتب الكبير لم يكُنْه إراسموس منذ البداية، إذ لم يكن بُدٌّ لرجل من نوعه أن يشيخ ليؤثِّر في العالم. وذلك أن رجالاً مثل باسكال وسبينوزا ونيتشه يمكن أن يموتوا وهم شباب، لأن فكرهم المتجمِّع المتماسك لا يجد اكتماله إلاّ في أضيق القوالب وأكثرها تَضامّاً وإحكاماً، على وجه الخصوص. وفي مقابل ذلك فإن رجلاً مثل إراسموس، وهو الفكر الجمّاع، الباحث المُتَلَمِّس، المعلِّق، الذي يضغط المعلومات ويكثِّفها، والذي لا تتوافر مادته في داخله بمقدار ما يستمدها من العالم، لا يُحْدِث تأثيره بالتكثيف والحدِّة، بل باتساع

نطاقه ومداه. وكان إراسموس أقرب إلى العارف الخبير منه إلى الفنان، وبالقياس إلى ذكائه المتأهِّب أبداً، لا تعدُّ الكتابة إلاّ شكلاً آخر من الحوار، فهي لا تكلِّف مرونة فكره جهداً خصوصياً، وهو يصرح بنفسه ذات مرة، بأن وضع كتاب جديد يقتضيه من الجهد قدراً أقلَّ مما تقتضيه قراءة تصحيح كتاب قديم، وهو لا يحتاج إلى ما يستثير نفسه ويصعِّدها، فعقله، على أية حال، أسرع دائماً من أن تستطيع الكلمة أن تلحق به. ويكتب تسفينغلي إليه قائلاً: «لقد خُيِّل إليَّ، حين كنت أقرأ كتابك، كأنني أسمعك تتحدَّث، وأرى شخصيتك المشرقة، الضئيلة، الرقيقة تتحرك على نحو بَاعث للإعجاب» وكان كلما ازدادت كتابته سهولة ازداد إقناعاً، وكلما ازداد إبداعاً، ازداد تأثيراً وفعالية.

على أن الكتاب الأول الذي يعود على إراسموس بالشهرة، يدين بنجاحه لمصادفة، أو بالأحرى، لمعرفة لا شعورية بجوّ العصر. وكان إراسموس الفتى قد جمع، على مدى السنين، لأغراض تتصل بالتعليم، لتلاميذه، مجموعة من الشواهد والنقول اللاتينية، وفي فرصة سانحة طبعها في باريس بعنوان «أقوال مأثورة – Adagia»، وبذلك يأتي، على غير قصد منه، متماشياً مع النزعة التنفُّجيّة (التبجُّح والإدعاء) في ذلك العصر، لأن اللاتينية كانت قد أصبحت على وجه الخصوص، (موضة) العصر الكبيرة، وكان كل رجل يتمتع بمنزلة في الأدب –وهذه العادة السيئة يمتد بها الزمن لتصل

إلى ما يقارب قرننا – كان يعتقد أنه ملتزم، بحكم كونه «مثقَّفاً» – بوجوب الإكثار من إيراد الشواهد اللاتينية في الرسالة، أو في المقالة، أو في الحديث. وقد وفَّرت المختارات التي تنطوي على البراعة، الآن، على كل المتنفجّين ذوي النزعة الإنسانية الجهدَ اللازم لمطالعة نصوص الكلاسيكيين بأنفسهم، فإذا كتب أحدهم رسالة، فلن يعود، منذ الآن فصاعداً، في حاجة إلى تقليب الصحائف من القطع الكبير زمناً طويلاً، بل يقتنص لنفسه، على جناح السرعة، عبارة جميلة، منمَّقة دارجة، من (الأداجيا)، ولما كان المتنفجون موجودين في كل العصور بأعداد كبيرة، وما زالوا، فإن الكتاب سرْعان ما يشق طريقه: وإذا اثنتا عشرة طبعة، وفي كلّ منهن من الشواهد ما يكاد يَعْدِل ضعف الطبعة التي سبقتها، يُطْبَعْنَ في كل البلدان، وإذا اسم إراسموس، اللقيط، النَّغْل، يحظى، دفعة واحدة، بالشهرة في كل أرجاء العالم الأوروبي.

والنجاح الذي يتحقق مرة واحدة لا يبرهن على شيء بالقياس إلى كاتب. ولكن إذا تكرَّر المرة بعد الأخرى، وفي كل مرة في مضمار جديد، كان في هذا إيماءة إلى كفاء معينة، وكان فيه، بعد ذلك شهادة على غريزة خصوصية لدى هذا الفنّان، وهذه الطاقة لا يمكن تصعيدها، وهذا الفن لا يمكن اكتسابه بالتعلُّم، ثم إن إراسموس لا يهدف قطُّ إلى نجاح، عن وعي وقصد، ولكن النجاح يُكتَب له، المرة بعد الأخرى، دائماً، بالطريقة الأكثر مفاجأة على

الإطلاق، فعندما يدوّن، في حلقاته الدراسية» بصورة خصوصية، للتلاميذ الذين يُعْهَد بهم إليه، بعض المحاورات، من أجل التعلُّم الأسهل، لِلاّتينيّة، ينجم عن ذلك كتاب قراءة من أجل ثلاثة أجيال، وعندما يَحْسَب، في كتابه «الثناء على الحماقة» أنه يكتب هجاءاً فكاهياً، يطلق، بهذا الكتاب، العنان لثورة على كل السلطات وعندما يترجم الكتاب المقدَّس من اليونانية إلى اللاتينية ترجمة جديدة، ويعلِّق عليه، يبدأ بذلك لاهوت جديد، وعندما يكتب إلى امرأة وَرِعة تسئاء من لا مبالاة زوجها بالدين، خلال أيام قلائل، كتاب مواساة وتعزية، يغدو هذا الكتاب كتاباً في أصول العقيدة المسيحية من أجل الورع الإنجيليّ الجديد. ومن دون أن يقصِد إلى ذلك، يصيب هدفه على الدوام. وكلُّ ما يعرُض من فكر حر طليق، متحرر من الحرج والعوائق، بأسلوب السيد المستقل، يغدو جديداً بالقياس إلى عالم غارق في تصوُّرات تخطّاها الزمن، ذلك لأن الذي يفكّر التفكير المستقل، يكون في الوقت ذاته أيضاً أفضل الناس تفكيراً - وأكثرهم نفعاً للناس جميعاً.

الصورة

يقــول لافاتــر الذي لن يجادله أحد في معرفته بالسيمياء: «يعد وجه إراســموس مــن الوجــوه الأكــثر تعبيراً والأكثر حَسْمَاً، فيما عَرَفْتُ من الوجــوه». وفــي هذه الصورة، صورة المُحَيّا «الحاسم»، بحكم كونه الشــاهد على أنموذج جديد، كان يُحسُّ به كبار مصوِّري عصره، وقد صــوَّر مصــوِّر الأشــخاص الأكــثر دقة بين نظرائه على الإطلاق المصور الكبير، هانز هولباين، مُعلِّم العالم Preceptor Mundi، ما لا يقــل عــن ست مرات، في أعمار مختلفة، وصوَّره ألبريشت دورر، وصــوَّره كوينتيــن ماتسيس مرة، وما من ألماني آخر، يحظى بمثل هذه المجموعــة مــن الأيقونــات المجــيدة، لأن إتاحة الفرصة لتصوير إراسموس (ضوء العالم lumen mundi) كانت في الوقت ذاته، تمثل تقديم فروض الولاء إلى الرجل العالمي، الذي كان وحَّد نقابات العمال اليدويين في كل فن من الفنون على حدة، لتشكل أخويّة واحدة إنسانية الــنزعة. وكان المصورون يمجِّدون في إراسموس سيدهم الذي يُظلِّهم بظلــه، والــرائد الكبــير المناضــل في سبيل صياغة للوجود، شعرية وأخلاقــية، جديــدة، ومن أجل ذلك صوَّروه مقروناً بكل شارات هذا الســلطان الفكري على لوحاتهم، ومثلما يتقلَّد المحارب عُدَّته وعتاده، ويعــتمر خوذتــه ويــتقلَّد سيفه، ويتخذ النبيل رمز الأسرة وشعارها،

ويــتخذ الأسـقفُ خاتمــه وزينته، كذلك يظهر إراسموس، في كل صورة، في صورة السيد المحارب، سيّد السلاح الذي اكتُشف حديثاً، وفـــي صـــورة الـــرجل الذي يحمل الكتاب، ويصوِّرونه جميعاً، بلا اســتثناء، محاطــاً بالكتب، كالحاكم، يكتب أو يبدع: فأمّا عند دورَرْ فهــو يمسك بيده اليسرى بدَواة المِداد، وبالقلم في يُمناه، وإلى جانبه تــرقد رسائل، وأمامه صحائف مكدَّسة من القطْعِ الكبير وذات مرة يصــوِّره هولباين وقد اعتمد بيده على كتاب يحمل، رمزيّاً، عنوان أعمال هِرقل –هو إشارة بارعة إلى الولاء، للإشادة بالجانب الجبار، العملاق في الأداء الإراسمِيّ – وفي مرة أخرى، يَستَرِق السمع إليه، بينما يضع يده على هامة الإله الروماني القديم، تيرمينوس، أيْ أنه، يصـــوغ «المفهوم» ويبدعه – ولكن التوكيد يكون دائماً، مركزّاً، في الوقــت ذاته، مع الجسدي، على «الدقيق المُرْهَف، المتأنيّ، الخاشع المقــترن بالذكاء» (لافاتر)، في موقفه الذهني، وهو ما يضفي على هــذا المحيّا الذي يكون أقرب إلى سمة التجريد في العادة، بريقاً لا يُضاهى، ولا يُنسى.

ذلك لأن محيّا إراسموس، إذا نظرنا فيه من الوجهة الجسدية البحتة، أيْ على أنه مجرد قناع، أو سطح خارجي، من دون أن ننظر في القوة المتجمّعة في العينين، والمنبعثة من داخله، فلن يكون من الممكن أن نعدّه جميلاً بحال من الأحوال. فالطبيعة لم تَحْبُ هذا الرجل الغنيَّ بالفكر، بالكثير إلى حَدِ التبذير، بل آتته مجرد قَدْرٍ ضئيلٍ

من فيض الحياة الحقيقي والحيوية الحقيقية: جسداً ضئيلاً كل الضآلة، ضيِّق الرأس، بدلاً من الجسد المتين، السليم من العلل، القادر على المقاومة، وبثَّت في شرايينه من الدم ما جعله مهزولاً، شاحباً، بارد الأعصاب، وشدَّت عليه، فوق الأعصاب المرهفة الحِسّ، بشرة رقيقة، معرَّضة للأمراض، في مثل لون جدران الغرف، تتجعَّد مع السنين فتغدو مثل رَقّ جلد الحيوان، الرماديّ، القابل للتقصُّف، إذ تقطعه آلاف التقطيبات والعلامات التي تمتد متصالبة طولاً وعرضاً. وفي كل مكان كان الناس يشعرون بهذا القدر البالغ الضآلة، من الحيوية، أما الشعر فرقيق دقيق كل الدقة، لم تخضِّبة الصبغة بحيث يرنوي، يرقد، أشقر عَديم اللون حول الصُّدْغَيْن اللذين تمتد فيهما العروق فتكسوهما بالزرقة، وأما اليدان الفقيرتان بالدم فمضيئان شفّافتان كرخام الألاباستر، وأمّا الأنف فينبثق من الوجه الذي يحاكي وجه الطائر، مفرطاً في الحدة، مدبَّباً، مثل قصبة ريشة الطائر الكبرى، وأما الشفتان الموصدتان فمفرطتان في الرقة والضيق، مفرطتان في محاكاتهما لشفتي العرّافة، بصوتهما الواهن الذي لا إيقاع فيه، ولمّا العينان فجدُّ صغيرتين، محجوبتان، على الرغم من كل طاقة الإضاءة فيهما، وما من مكن يتوقَّد فيه لون قوي، أو يستدير فيه قالب مكتمل، في وجه هذا الناسك، وجه العامل الصارم. ومن الصعب أن نتصوَّر هذا الرجل المثقف شاباً، يركب الخيل، ويسبح، ويبارز، ويروي النكات للنساء، أو حتى يلاطفهن ويداعبهن، وقد أحاطت به الرياح

والجو المكفهر، رافعاً عقيرته وضاحكاً. وإنما يفكر المرء، على غير إرادة منه، وهو قبالة وجه الراهب هذا الرقيق الجاف المتحفظ بعض التحفظ، أول الأمر، في نوافذ موصدة، وفي حرارة فرن، وغبار كتب وليالٍ أنفقهُنَّ في السهر، وأيام أنفقَهُنَّ في العمل، فما من حرارة، ولا تياراتٍ من الطاقة، ينبعثان من هذا المحيّا البارد، وفي الواقع يظل إراسموس يشعر بالبرد القارس ويظل هذا الرجل الضئيل، قعيد الحجرات، في ثياب واسعة الأكمام، سميكة، ذات حوافٍ من الفراء، ويظل على الدوام متدثِّراً، يتقّي تيار الهواء الذي يعذِّبه، بالقبعة المخملية على رأسه الذي بادر إليه الصلع في مرحلة مبكِّرة، إنه مُحيّا إنسان لا يعيش في الحياة، بل في التفكير، ولا تكمن طاقته في كل جسده، بل تكمن في الانحناءة المقبَّبة العظمية الموصدة، وراء الصدْغَيْن. ولمّا كان إراسموس لا يستطيع مقاومة الواقع فقد كانت حيويته الحقيقية لا تكمن إلاّ في أداء دماغه.

ولا يكون لمُحيّا إراسموس أهمية إلاّ ما يأتيه من قِبلَ هذا الإشعاع الذي ينبثق من الفكريّ ولذلك لا تنسى صورة هولباين التي تصوِّر إراسموس في أكثر لحظاته إشراقاً، في الثانية الإبداعية من عمله، ففي هذه الرائعة من روائعه، وربما كانت العَرْض التصويري الأكثر كمالاً عند كانت، تتحول الكلمة المُعاشة، بين يديه، بسحرِ ساحرٍ، إلى الكتابة المرئية، وليتذكر القارىء الصورة – لأن من رآها ما كان لينساها من جديد، في أي يوم من الأيام! –: إراسموس أمام قِمَطْر كتابته، ويحسُّ

المرء، على غير إرادة منه، إحساساً يصل إلى أعصابه: أنه وحده، ويسود السكون الكامل في هذه الحجرة، ولا بدَّ أن يكون الباب موصداً وراء هذا الرجل الذي يعمل، وما من أحد يحرِّك ساكناً، وما من شيء يتحرك في الصومعة الضيقة، ولكنَّ هذا الإنسان، الغارق في نفسه، مأخوذاً بحالة الذهول المرتبطة بالإبداع، لا يلاحظ ذلك مهما يحدث حواليه ولكن المرء إذا نظر عن كثب فليس هذا الحال بالراحة، بل هو استغراق المرء في ذاته، حالة من أحوال الحياة تحدث بصورة كاملة، في الباطن، لأن العين المشرقة بزرقتها تتابع الكتابة على الورق الأبيض في أشد حالات التركيز، وكأنما تشرق بالضوء من بؤبؤها على الكلمة، حيث تخطُّ اليد اليمنى الضيقة، التي تكاد تكون أنثوية، علاماتها، ممتثلة لأمر يتنزَّل عليها من علٍ. أما الفم فموصد، وأما الجبهة فتتألَّق، ساكنة، باردة، وتبدو قصبة الريشة كأنها ترسم رموزها من الخطوط التي كأنها أعواد الأغصان، على صفحة الورق الساكنة، بطريقة آلية وسهلة. ولكن عضلة صغيرة تُحْدِث إنحناءة بارزة، بين الحاجبين، تكشف عن الجهد المرتبط بالعمل الفكري، الذي يحدث غيرَ مرئيٍّ، ولا يكاد يُلاحَظ، وتـدع هـذه الثَّنْيَة الضئيلة، التشنجيَّة، بالقرب من المنطقة الإبداعية في المخ، من يراها يقدِّر، بأسلوب يكاد يكون غير مادي، الصراع المؤلم من أجل التعبير، من أجل الكلمة الملائمة، وبذلك يتجلىّ التفكير في صورة جسدية على وجه الخصوص، ويدرك المرء: أن كل شيء يحيط بهذا الإنسان إنما هو

توتُّر وحالة تَوتير، وأن هذا الصمت تتخلَّله تيارات خفيّة من الذبذبات. وبأسلوب رائع تصل، في هذا العرض، لحظة التحويل الكيميائي للطاقة. التي تكون في العادة لحظة يتعذر استراق السمع إليها، من مادة فكرية، إلى قالب وكتابة. ويستطيع المرء أن يظل، على مدى ساعات، ينظر إلى هذه الصورة، وسكونها المنطوي على الذبذبة، لأن هولباين خلَّد، في رمز إراسموس العامل، الجدَّ المقدَّس عند كل عامل من العاملين في مضمار الفكر، والصبر غير المرئي عند كل فنّان حق.

وفي هذه الصورة الواحدة فحسب يلمس المرء جوهرية إراسموس، فهنا، على سبيل الحصر يستشعر المرء الطاقة الخفية الكامنة وراء الجسد الضئيل البائس الذي يجره معه إنسان الفكر هذا كأنه قوقعة ثقيلة الوطأة هشة قابلة للتقصُّف. لقد ظل إراسموس طوال حياته يعاني من عدم اطمئنانه إلى صحته، لأن ما قصَّرت الطبيعة في تزويده به من العضلات وهبته له في أعصابه بقَدْرٍ فائقٍ الكثرة، ويعاني دائماً، منذ أن كان إنساناً حديث السن تماماً، من الإجهاد العصبيّ وربما كان يعاني من توهُّم الأمراض، من فرط الحساسية في أعضائه، لقد كانت الطبيعة قد شدَّت عليه غطاء الحماية لصحته فكان ضئيلاً للغاية، وكان كثير الثقوب، إذ يظل هناك، على الدوام، في مكان ما، موضع غير محميّ، حسّاس. فحيناً يكون هذا هو المعدة التي تعجز، وحيناً آخر تتمزق أوصاله من الروماتيزم، وتارة يعذبه داء الحَصى، ويعتصره النقرس كالكمّاشة الخبيثة وكل نسمة هواء

حادة تحدث لدى هذا المصاب بفرط الحساسية كأثر الشيء البارد في سِنٍّ نخِرة، وتشكل رسائله تقريراً متواصلاً عن المرض. وما من مناخ يريحه بصورة كاملة، فهو يئن ويتوجَّع من وطأة الحر، وتنتابه الكآبة حين يسود الضباب، ويشمئزّ من الرياح، ويرتعد من البرد من جراء أقل برودة، غير أنه لا يتحملً، من ناحية أخرى، أفران المراجل المسخَّنة، وكل انبعاث من بخار في صورة هواء غير نقيّ يسبب له صداعاً وإقياءات، وعبثاً يتدثَّر على الدوام في الفراء، والملابس السميكة، إذ لا تكفي من أجل حرارة الجسم الطبيعية، ففي كل يوم يحتاج إلى الخمر البورغندية. ليحافظ على سيولة متوسطة في دمه الخامل المتثاقل. ولكن إذا كانت الخمر مائلة إلى الحموضة بدرجة جدٍّ يسيرة. أعلنت عن نفسها عما قريب إشارات إنذار نارية في أحشائه. وبينما كان يتقبل الطعام الحَسَن التحضير باندفاع وحرارة، إذ كان تلميذَ أبيقور بحقّ، كان يخاف خوفاً لا يوصف من الطعام الرديء، لأنه معدته كانت تتمرَّد عليه في حالة اللحم الذي فَسَد، وكـــان مجرد رائحة السمك ينبح بلعومه نبحاً، وكانت هذه الحساسية تضطرُّه إلى التدليل، وتغدو الحضارة بالقياس إليه حاجة من الحاجات: فإراسموس لا يستطيع أن يحمل في جسده إلاّ المواد ذات الطبيعة الرقيقة المستعذبة، المستساغة، والدافئة، ولا يستطيع أن ينام إلاّ في أسِرّة نظيفة، ولا بُدَّ أن تشتعل على مكتبه شموع الشمع الباهظة، بدلاً من شظايا خشب الصنوبر المألوفة التي ينبعث منها ما

يحاكي سِناج القدور. ومن أهل ذلك تتحول عنده كل رحلة إلى مغامرة تثير الكراهية والاشمئزاز ، وتشكل روايات المُتَرحّل الخالد عن فنادق الريف الألمانية التي كانت في تلك الأيام، ما زالت متخلّفة، تخلّفاً مزْرياً، سجلاً تصنيفياً في تاريخ الحضارة لا يُعوَّض، وهو في الوقت ذاته مُسلٍّ ممتع، من ألوان الشر المستطير والمَخاطر. وفي كل يوم كان يسلك، في بازِل، طريقاً مُلْتوياً إلى مسكنه، ليتجنَّب زقاقاً كريه الرائحة على وجه الخصوص، لأن كل شكل من أشكال الرائحة الكريهة، والجلَبة، والأذى، والدخان، ومع هذه الأمور، إذا ما ترجمت إلى المقابل المعنوي، وهو الخشونة، والصخب والشغب، يُسَبِّبْن لحساسيته عذاباً نفسيّاً قاتلاً. وحين يذهب به أصدقاء له ذات مَرة إلى روما، إلى مصارعة ثيران، يعلن وقد استثير اشمئزازه، أنه لا يجد متعة في أمثال هذه الألعاب الدموية، التي هي من بقايا البربرية. وتعاني رقته الداخلية من أي شكل من أشكال انتفاء الحضارة. ويبحث هذا المعنيُّ الوحيد بالصحة، بائساً، في خِضمّ عصر إهمال الجسد، ذلك الإهمال غير اللائق، عبثاً، في عالم البرابرة، عن النظافة ذاتها التي يحققها، فنّاناً، في أسلوبه، في إطار عمله. وذلك أن عضويَّته العصرية، العصبية، تتميَّز من معاصريه ذوي العظام الخشنة والبشرة الخشنة، والأعصاب الحديدية، بالحاجات الحضارية التي تعود إلى قرون لاحقة، ولكن سيِّد مخاوفه هو الطاعون الذي كان ينتقل في تلك الأيام بفَتْكِه، من بلد إلى آخر ولم يكد يسمع أن الوباء الأسود ظهر

على بعد مائة ميل منه، حتى سرت في ظهره برودة كبرودة الجليد، وعلى الفور يقوِّض خيمته، ويهرب، شأن المذعورين من دون أن يحفل بأن الإمبراطور يدعوه للمشورة، أو بأنَّ أكثر العروض إغراءاً تستدعيه، فإن رؤيته لجسده يغشيه البَرَص أو الدمامل والتقرُّحات. خليقة أن تحطَّ من قدره في نظره هو ذاته. وهذا الخوف المفرط من كل مرض، أمر لم ينكره إراسموس قط. وبحكم كونه رجلاً من شرفاء أهل الدنيا، لا يتولاّه أدنى خجل من الإقرار بأنه يرتَعِد فَرَقاً من مجرد ذكر اسم الموت لأنه لا يريد، مثل أي امرىء يسرُّه أن يعمل، ويحمل عمله على محمل الاهتمام، أن يسقط ضحية لمصادفة غبية تخبط خبط عشواء، أو لعدوى حمقاء، ولأنه يعرف، بحكم كونه ذا خبرة حسنة بأمر نفسه، ضعفَ جسده الفطري، والخطر الخصوصي الذي يتهدَّده من قبل الأعصاب، على نحو أفضل من معرفة أي امرىء آخر، لهذا على وجه الخصوص، يراعي جسده الضئيل الحسّاس، يَضِنُّ به، في اقتصاد ينم عن الخوف. فهو يتجنب أشكال كرم الضيافة على الموائد الطافحة، وينتبه انتباه المُراعي الحريص، إلى النظافة وإلى حسن تحضير الغذاء، ويتفادى إغراءات فينوس، ويتولاّه الخوف على وجه الخصوص من مارس، إله الحرب، وكلما ازدادت محنة الجسد مضايقة للرجل الذي يجنح إلى الشيخوخة، ازداد الوعي الذي يتحوَّل به نهج حياته إلى اشتباك دائم مرتبط بالانسحاب لإنقاذ القدر القليل من الهدوء والأمن والاعتزال، الذي يحتاج إليه من

أجل متعة حياته الوحيدة، وهي العمل، وبفضل هذا الاهتمام بالصحة والحرص عليها، وهذا الاستسلام الحسيّ للواقع والرضى به، وُفِّق إراسموس إلى الأمر الذي لم يكن راجحاً، وهو أن يجتاز بعربة جسده المتداعية، شوط السبعين عاماً وهو يجرها خلاله بحماسة وحرارة، عبر العصر الأكثر جموحاً ووحشيّة بين كل العصور، وأن يحافظ على الشيء الوحيد الذي كان مهماً بالقياس إليه في هذا الوجود: ألا وهو إشراق نظرته وسطوع ضوئها، وامتناع حريته الداخلية على إمكان المساس بها.

وبمثل هذه الحساسية المفرطة في الأعضاء يصعب على المرء أن يغدوَ بطلاً، ولا مندوحة للشخصية عن أن تعكس المظهر الإجمالي لجسد لا يُوثق به ولا يُركَنْ إليه، إلى هذا الحد. أمّا أن هذا الرجل الضئيل، البالغ الرقة، والهشاشة، كان، في وسط طبائع القوة الجامحة، في عصر النهضة والإصلاح الدينيّ، غير صالح لأن يكون قائد رهط من الناس، فذلك ما تكشف عنه نظرة إلى صورته الذهنية. «لا يوجد في أي موضع مِسحة من جسارة مندفعة»، وهذا ما يحكم به لافاتر على وجهه، والشيء ذاته يصحُّ على شخصية إراسموس، ولم يصل هذا اللاّ طبع، قطُّ إلى مستوى القتال الفعلي، ولا يستطيع إراسموس سوى أن يدافع عن نفسه بأسلوب بعض الحيوانات الصغيرة التي تتظاهر، في غمرة الخطر، بالموت، أو تَغَيِّر لونها، غير أن أحب الوسائل إليه في حالة القلاقل، أن ينسحب عائداً إلى المأوى الموجود

في قوقعته، إلى حجرة دراساته: فهو لا يعرف أنه في مَأمَن في قرارة نفسه إلاّ وراء سور كتبه، وإذا لوحظ إراسموس في اللحظات المصيرية فهو يكاد يكون باعثاً للحرج والإيلام، لأنه لا يكاد يرى الأمور تزداد حِدَّة فوق حِدَّتها حتى ينسلَّ على عجل، خارجاً من منطقة الخطر، وهو يغطي انسحابه بكلماتٍ غير مُلْزِمة، من قبيل، «عندما» و«ما دام»، ويتذبذب كالبندول، جيئة وذهاباً بين النَّعم واللاّ، ويُرْبِك أصدقاءه ويغيظ أعداءه، ومن كان يدخله في حسبانه حليفاً فهو خليق أن يشعر أنه مخدوع إلى حد يبعث على التفجُّع، لأن إراسموس يأبى، بحكم كونه رجلاً منفرداً لا يتزحزح عن موقفه، أن يظل مخلصاً إلاّ لنفسه، وهو يشمئز اشمئزازاً غريزياً من كل نوع من القرارات الحاسمة، لأنها تمثل ارتباطات أو قيوداً، والأرجح أن دانتي، هذا المحب المشغوف، كان خليقاً أن يطرحه في الأعراف، بسبب تردُّده وعدم يقينه، مع «المحايدين»، وهم أولئك الملائك الذي أَبَوْا أن ينحازوا إلى جانب محدَّد في الصراع بين الرب وإبليس، أيضاً.

" Quell cattivo coro
Degli angeliche non faron rebelli
Ne'fur fedeli a Dio , ma per se foro "

وحيثما يكون التفاني والالتزام الكامل مطلوبين ينسحب إراسموس عائداً إلى قوقعته الباردة، قوقعة عدم الانحياز إلى حزب معيَّن. وما كان يجد نفسه مستعداً للتضحية برأسه، شهيداً من أجل أيه فكرة في العالم وأية قناعة في أي يوم من الأيام. غير أن هذا الضعف

المعروف، في شخصيته طوال الوقت لم يكن معروفاً لدى أحد سوى إراسموس نفسه، وقد أَقَرَّ طَوْعاً، بأن نفسه لم تكن تنطوي على شيء من تلك المادة التي تصوغ منها الطبيعة الشهداء، غير أنه كان لاختصَّ نفسه، من أجل موقفه في الحياة، بترتيب القِيَم عند أفلاطون، وهو أن العدالة، ولين الجانب هما الفضيلتان الأوليَان عند الإنسان، ولا تَرِد الجرأة إلاّ في المقام الثاني. وكانت جرأة إراسموس تتجلى، على أبعد التقديرات، في أنه كان يتمتع بالصدق الذي يجعله لا يخجل من انعدام للجرأة عنده (وهذا، بالمناسبة، شكل شديد الندرة، من أشكال الصدق في كل العصور)، وحين أخذ الناس عليه ذات مرة هذا النقص في الشجاعة القتالية، بأسلوب فظ، أجاب مبتسماً وبرقة، بالكلمة المتمكِّنة المُحكَمة: «لقد كان خليقاً أن يكون مأخذاً قاسياً لو كنت من المرتزقة السويسريين، غير أني من أهل الثقافة والعلم، وأحتاج إلى سكينتي من أجل العمل».

ولم يكن ثمة ما يُعتَمد عليه في هذا الذي لا يُعتَمَد عليه، في الحقيقة إلاّ عنصر واحد، ألا وهو الدماغ الذي يظل يعمل من دون أن يتطرَّق إليه الكلل، وعلى نحو ثابت منتظم، فكأنّه جسم خصوصي كامن وراء جسده المتّسم بالخوَر، ولم يكن هذا يعرف نزاعاً أو طعناً، ولا ألواناً من التعب، ولا اضطراباً أو ترنُّحاً، ولا انعدام يقين، فهو يظل يعمل، منذ سنواته الأولى، وحتى ساعة احتضاره، بالقوة ذاتها، القوة الصافية والباعثة للنور، ومع كون إراسموس رجلاً مصاباً بالوَهَن ووسواس المرض، في لحمه ودمه، كان عملاقاً في العمل. وكان لا

يكاد يحتاج إلى أكثر من ثلاث ساعات أو أربع، من النوم من أجل جسده الضئيل - ويلاه، لقد كان قلّما يستهلكه! - أما الساعات العشرون الباقيات، فقد كان فيها يعمل من دون أن يقرَّ له قرار، في الكتابة والقراءة والمجادلة، وتصحيح تجاريب الطبع، وتصحيح النصوص، وهو يكتب أثناء السفر، في العربة التي تتأرجح وتتمايل، وفي كل صالة مطعم تتحوَّل كل مائدة، له، على الفور، إلى قمطر للكتابة والقراءة، واليقظة عنده مرادفة للنشاط الكتابي، وقلم الكتابة يعدُّ، كأنه إصبع سادسة في يده، وكان يراقب، وهو متحصِّن، وراء كتبه وأوراقه، من حجرة مظلمة، بغيرة وفضول، كل الأحداث، فلم يكن يفوت نظرته المستطلعة تقدُّم في العلم، ولا اختراع، ولا نشرة ولا حدث سياسيّ، إذ كان يعرف من خلال وسيلة الكتب والرسائل، ما يحدث في الكرة الأرضية. على أن حدوث الانتقال (للمعلومات) من خلال الكلمة المكتوبة والمطبوعة على سبيل الحصر تقريباً، وحدوث استقلاب المادة مع الواقع عند إراسموس عن طريق المخ وحده، حمل، بالطبع، إلى عمله مسحة من الأكاديمية، وبرودة تجريدية معينة، ومثلما كان شأن جسده، كانت كتاباته أيضاً تفتقر، على الأغلب، إلى بلاغة التأثير والحِسّية، فهنا لا يحيط الإنسان بالعالم إلاّ بعين الدماغ، لا بكل الأعضاء الحيّة التي تمتصّ، ولكن فضوله هذا، والرغبة في المعرفة عنده، يحيطان بكل الأجواء، فهو ينشر ضوءه، متحركاً مثل عاكس الضوء (البروجيكتور)، على كل مشكلات الحياة،

ويجلوها بحدَّة متجانسة، لا رِفْق فيها ولا عاطفة، إنه جهاز للتفكير حديث حداثة مطلقة، يمتاز بدقة لا تفوقها دقة، ومدىً رائع، ولا يكاد يتبقى ميدان من ميادين النشاط المعاصر من دون أن يُلْقى الضوء عليه. وفي كل ميدان من ميادين التفكير يكون هذا الفكر الحفّاز المُستَحِثّ، الذي يُسَرِّح الطرف في حركة مستديمة، ومع ذلك فهو يصوِّب النظر على الدوام بوضوح، رائداً يشقُّ الطريق لِمَنْ بعده، من أجل جهد لاحق أكثر تماسُكاً وإحكاماً. ذلك لأن إراسموس كان يستأثر بغريزة كالغريزة السحرية التي يعمل بها من يستقصي بعود من الخشب مواقع المياه الجوفية أو المعادن، فكان يحسُّ، في كل موضع مرَّ به معاصروه مرور الكرام، لا يدرون بشيء، بعروق الذهب والفضة الخاصة بالمشكلات التي يترتب الكشف عنها. كان يحسُّ بها، ويتشمَّمها، ويكون أول من يشير إليها، ولكن اهتمامه، النافد الصبر، بمتابعة تسريح الطرف، والتطواف، كان يستنفِدُه على الأغلب، سرور المكتشف باكتشافه، أما استخراج الكنز الحقيقي، والجهد اللازم للتنقيب، والغربلة، والتقييم، فهو يدعه لمن يأتي بعده وهنا تكمن حدوده. وذلك أن إراسموس (أو، بالأحرى، عين دماغه الرائعة) تكتفي بتسليط الضوء على المشكلات، ولا يفرَغ منها، ومثلما يفتقر دمه، وجسده، إلى نبض العاطفة الحارّة، يفتقر إبداعه إلى التعصب الأقصى، إلى العناد الأخير، إلى لفت الأنظار الذي يكمن في أحادية الجانب، وإنما يتمثل عالمه في الاتساع، لا في العمق.

ومن أجل ذلك لا يغدو كل حكم على هذه الشخصية الحديثة إلى حد يلفت النظر، والتي تتخطى حدود العصور والأزمنة في الوقت ذاته، إلاّ ظلماً، ما دام يتخذ مقياسه من عملها فحسب، لا من أثرها أيضاً. ذلك لأن إراسموس كان نفساً تتألف من طبقات كثيرة، بل كان خليطاً من المواهب المختلفة، وكان حاصل جمع، لا وحدة، ولمّا كان جريئاً وهيّاباً، ومقداماً، ومع ذلك غَيْر مُصَمِّمٍ قبل الاندفاعة الأخيرة، نَزّاعاً إلى الكفاح بفكره، محبّاً للسلام بقلبه، ذا صَلَف من حيث كونه أديباً. شديد التواضع والانكسار، وإنساناً، وكان رَيْبِيّاً ومثالياً، فهو يجمع كل المتناقضات في نفسه في خليط مُخَلْخَل. وكان عالماً في مثل نشاط النحل، وكان لاهوتياً يتميَّز بحرية فكره، ناقداً صارماً للعصر، ومربّياً نَمِثاً لطيفاً، وكان شاعراً متيقِّظ العقل إلى حد ما، وكاتب رسائل لامع، وهَجّاءاً مُقْذِعاً، ورسولاً رقيقاً لكل البشر - كان هذا كله - يجد مكاناً له في هذا التفكير الواسع النطاق، من دون أن يناصب العداء أحداً أو يُثْقِل عليه، ذلك لأن موهبة المواهب عنده وهي التوفيق بين الأمور المتعارضة، وحل التناقضات، لم تُحْدِث آثارها في الحياة الظاهرية فحسب، بل أحدثت آثارها تحت جلده هو. ولكن هذا التعدد في الجوانب لا يمكن أن يُستِر، بحكم الطبيعة، عن مفعول موحَّد، وما نطلق عليه اسم «الجوهر الإراسمي»، أي الأفكار الإراسمية، وجد، لدى أفراد متفرقين من خلفائه، بفضل قالب التعبير الأكثر تركيزاً، صياغة أكثر تغلغلاً في الأذهان مما كان عليه عند إراسموس ذاته،

فحركة الإصلاح الديني الألمانية، وعصر التنوير، والبحث الحر في الكتاب المقدس، ومن ناحية أخرى، الهجاء والسخرية عند رابليه وسويفت والفكرة الأوروبية، والحركة الإنسانية الحديثة، كل هذه أفكار مستمدة من تفكيره، لا من فعله هو. لقد كان، في كل مكان، يقدِّم الدافع الأول، ويحرِّك المشكلات في كل مكان، ولكن الحركات تخطَّته هو، في كل مكان، ومن النادر أن تكون الطبائع التي تفهم وتستوعب هي ذاتها التي تنجز، لأن بُعْدَ النظر يشل القوة الدافعة، ومن النادر، كما يقول لوثر، «أن يتمَّ القيام بعمل جيد بالاعتماد على الحكمة والتزام الحذر، فلا بُدَّ لكل شيء أن يحدث في إطار من الافتقار إلى الثقافة». لقد كان إراسموس الضوء الذي أضاء قرنه، وكان الآخرون قوة هذا القرن، لقد أضاء الطريق، وعرف الآخرون كيف يجتازونه، بينما ظل هو نفسه، مثلما يكون شأن مصدر الضوء، ماكثاً في الظل، غير أن من يوجِّه الطريق نحو الجديد ليس بأقل جدارة بالتبجيل ممن يكون أوَّل من يجتازها. فالذين يعملون في إطار غير المرئيَ إنما أدَّوْا عملهم أيضاً.

سنوات الأستاذ

وتحدث حالة من حالات التوفيق لا مثيل لها في حياة فنان، عندما يعثر على القالب الفني لموضوعهِ الذي يستطيع أن يَضُمَّ فيه جملة مواهبه ضماً متناسقاً، وقد وُفِّق إراسموس إلى هذا بفضل خاطرة باهرة تم تنفيذها بصورة كاملة في كتابه «الثناء على الحماقة»، فهنا يتوافق المثقف الذي يحيط بالكثير من المعلومات، وناقد العصر اللاذع، والمتهكِّم الهجّاء، لديه في جوٍّ من الأخوة، وما من كتاب من كتب إراسموس يعرف المرء فيه هذا الرجل ويتبيَّنه، أستاذاً مثلما يحدث في كتابه هذا الأشهر على الإطلاق، وهو، أيضاً، الوحيد، الذي صمد في وجه الفناء، وفي هذه الأثناء كانت هذه الرَمْية في الصميم قد انطلقت، لتنغرس في قلب العصر، ومن يد مسترخية كل الاسترخاء، كأنما تلعب لعباً فحسب. فقد دُوِّن ديوان الهجاء والسخرية هذا الباهر تدويناً سيّالاً دافقاً، في سبعة أيام، ولمجرد أن يُسَرِّيَ الكاتب الهمّ عن قلبه، حقاً. ولكن هذه السهولة واليسر، على وجه الخصوص، وهبت له جناحين، كما وهب له خُلُوَّ البال العنفوان الذي ينم عن اللا مبالاة. وكان إراسموس في تلك الأيام قد تجاوز سن الأربعين، ولم يكن من شأنه أنه قرأ وكتب الكثير الذي لا يحصى ولا يُسْبَر غوره فحسب، بل كان قد نظر بعينه الباردة، المتشككة، في أعماق البشرية، فلم يجدها

موافقة لرغبته على الإطلاق، ورأى قلة ما يتمتع به العقل من سلطان على الواقع، وبدت له تصرُفات الناس، فيما يأتون وما يَدَعون من الأمور المختلطة عليهم شديدة الحُمق، وكان يرى، حيثما وجَّه بصره، ما ينكره بسوناتة شكسبير:

«إنما تولّد المكْرُمةَ في صورة متسوّل

واللاّ شيء، البائس، يوضع في إطار الروعة

والفنَّ تَقْمَعُه السلطة

ويصير الفكر فكراً بغير حق

ويُنْظَرُ إلى الاستقامة، البسيطة، على أنها غباء»

ومن لَبثِ عهداً طويلا فقيراً، مثله، ومَنْ وقف وقتاً طويلاً، في الظلام، يستجدي الصدقات على أبواب الأقوياء، فقد أُشْرِب قلبه المرارة حتى أُتْرِع بها مثل إسفنجة العلْقَم. كانت له معرفة بما ينطوي عليه كل البشر من انعدام العدل، والنزوع إلى الحماقة والجنون، وإن شفته لترتعد أحياناً من الغضب، والصرخة المخنوقة، ولكن إراسموس لا يعد ثورياً، ولا متمرداً في أعمق أعماق روحه، وليس بذي طبيعة متطرِّفة، والاتهام الصارخ المُشْجي لا يتماشى مع طبعه المعتدل الحَذِر، فإراسموس يفتقر كل الافتقار إلى الجنون البسيط الجميل، ففي وسع المرء أن يقلب كل شيء سيء على هذه الأرض بحركة واحدة. - وإذاً ففيم يفسد على نفسه علاقته بالعالم، كما يقول في نفسه، برصانة، ما دام المرء لا يستطيع أن

يغيِّره وحده، وما دام خداع الناس هذا، ومخادعتُهم أنفسَهم، يدخلان في باب الإنساني الخالد، وفي باب ما لا يمكن تغييره. أمّا الذكي فلا يشتكي، ولمّا الحكيم فلا ينفعل. فهو ينظر بعينين ثاقبتين، وشفة تنمُّ عن الازدراء إلى هذه التصرفات التي تنمُّ عن الغباء ونقص العقل، ويمضي، مثابراً في طريقه الخاص – (Dantes Guarda e passa!).

ولكن في بعض الأحيان يؤدي مزاج قليل الرصانة، ساعةً من الزمن، إلى وَهْنِ النظرةَ الصارمة، المُستَسلِمة المتخلِّية، واسترخائها، حتى عند الحكيم: هنالك يبتسم ويضيء بهذه الابتسامة العالمَ بأسلوب ساخر. وكان طريق إراسموس يتضمن في تلك الأيام (١٥٠٩) عبور جبال الألب، إذ كان عائداً من إيطاليا. وقد كان رأى الكنيسة هناك في حالة انحلال دينيّ كامل، وكان الذي يوجه دفّتها«البابا يوليوس، يحيط به رجال حربه، من الأساقفة، وبدلاً من أن يكون في فقر رسوليّ، كان يعيش محاطاً بالأُبّهة في جوٍّ من البذخ، وقد كان شهد غُلَواء حرب الأمراء التجديفية في هذا البلد المستنفَدِ القُوى، إذ كان كل منهم يحارب الآخر، في تعطُّش إلى النهب والسلب، شأن الذئاب، كما شهد غطرسة الأقوياء، وما أصاب الشعب من الفقر المُدقِع الرهيب، ونظر مرة أخرى في هاوية التناقض. ولكنّ الآن بات هذا بعيداً كسحابة دكناء وراء حافّة جبال الألب التي تغشاها الشمس. وكان إراسموس، المثقف، وإنسان الكتب، على صهوة جواد، ولم يكن يجرُّ معه أمتعته من كتب اللغة والأدب – وهي حادثة موفَّقة على وجه الخصوص –

أما أمتعته من الكتب فهي مدوّناته ومخطوطاته المكتوبة على الرَقّ، والتي كان فضوله يظل في العادة متعلّقاً به. وكان فكره هنا حراً في الهواء الطلق، وكان يستمتع بالعبث، والانطلاق على سجّيته في سرور، وإذا خاطرة تخطر في باله، مُلَوَّنةً ساحرة كفراشة، فيحملها معه من هذه الرحلة السعيدة. ولم يكد يصل إلى إنكلترا حتى دوّن، في منزل توماس مور الريفيّ، الذي يسطع بالنور، والذي كان يَأْلَفُه، الرسالة الهزلية الوجيزة، وكان ذلك في الحقيقة لمجرد أن يهب للرهط المجتمعين شيئاً من المرح والاستبشار، وأطلق عليها، تكريماً لتوماس مور، «الموري» (Encomium moriae) – « laus stultitiae» باللاتينية، وهي التسمية الأحرى أن نترجم بقولنا «الثناء على التغفيل»[1].

وإذا قورن ديوان الهجاء الساخر، هذا الطويل اللسان بالأعمال الرئيسية، الجدّية، ذات الأهمية والوزن، والمُثقَلة بالعلم، بل المحمَّلة به فوق طاقتها، عند إراسموس تميَّز منها هذا أوّل الأمر بما فيه من الاستخفاف والمجون الشبابيّ، والرشاقة والظَّرف، ولكن لا الحجم ولا الوزن، من السمات التي تضفي على الأعمال الفنيّة ديمومتها وبقاءَها على الزمن. ومثلما يكون، في المضمار السياسي، لكلمة أساسية واحدة، أو لنكتة فائقة البراعة والإحكام، في كثير من الأحيان، مفعول أكثر حسماً من خطبة لديموستين كذلك تكون الأحجام الصغيرة، في

(١)«الثناء على الحماقة» هي الترجمة الشائعة . «المحقق»

المضمار الأدبي، أطول عمراً وأبقى على الزمن، على الأغلب، من الأسفار الضخمة التي ينوء بثقلها حاملها. ومِنْ ذلك أن المجلدات المائة والثمانين التي خلَّفها فولتير لم يبقَ منها حيّاً في الحقيقة سوى الرواية الوجيزة المقتضبة، التهكمية، «كانديد»، ولم يبق من الصحائف ذات القطع الكبير التي لا يحصيها العدُّ، لإراسموس المولَع بالكتابة سوى وليد مصادفة أنجبه مزاج حسن، هو هذه المسرحية الذهنية المتألِّقة، «الثناء على الحماقة».

أمّا اللمسة الفنية، الفريدة التي لا يمكن تكرارها، في هذا الأثر الفني، فهي حفلة تنكرية عبقرية ، وذلك أن إراسموس لا يمسك بزمام الحديث بنفسه، لكي يتفوّه بكل الحقائق المُرَّة التي يريد أن يقولها عن جبابرة هذه الأرض، بل يبعث، في صورة بديلٍ عنه، بالتغفيل، أو الحماقة، إلى المنبر، لكي تثني على نفسها بنفسها، وبذلك ينشأ خلط ممتع بين الشخصيات، فالقارىء لا يعرف أبداً من يمسك بزمام الكلام في الحقيقة: فإذا تكلم إراسموس جادّاً تكلمت الحماقة بشخصها، وهي التي لا بدَّ للمرء أن يغفر لها أشدَّ ما تنطق به اتِّساماً بالفظاظة وسلاطة اللسان ؟ وبهذا الالتباس يهيِّيء إراسموس لنفسه من أجل ألوان الجسارة والتطاول، موقفاً لا يمكن الهجوم عليه، وذلك أن رأيه الخاص لا يمكن المساس به أو التعرُّض له، وإذا خطر ببال أي امرىء أن يُلِحَّ عليه مجادلاً في أمر ضربة سوط لاهبة، أو كلمة تهكمية لاذعة، على النحو الذي ينثر به ذلك في كل الاتجاهات هنا،

فيُكثِر منه ويُغدِق، كان في وسعه أن يدافع بأسلوب تهكُمي، قائلاً: «ما أنا بالذي قال هذا، بل السيدة ستولتيشيا (الحماقة)، ومن عساه يريد أن يحمل أقوال الحمقى والمغفَّلين على محمل الجدّ؟». لقد أصبح تهريب نقد العصر في أيام الرقابة ومحاكم التفتيش، عن طريق السخرية والرموز، إلى العالم، منذ تلك الأيام، المخرج الوحيد لأحرار الفكر في عصور الظلام، ولكن قلَّما استعمل أحد حقّ التغفيل هذا المقدّس، الذي يهب المرء حرية الكلام، بأسلوب أكثر براعة مما استعمله به إراسموس في هذا الهجاء الساخر الذي يمثل العمل الفنيّ الأكثر جرأة والأكثر فنيّةً في جيله، على الإطلاق، في وقت واحد. فالجد والهزل، والمعرفة والاستهزاء، والحقيقة والمبالغة يختلطن معاً كأنما ثارت فيما بينهن زوبعة، ليشكّلن كتلة ملوّنة، تظل تفلت من يد المرء المرة بعد الأخرى، في جوٍّ من المرح، حين يهمُّ المرء أن يمسك بها، ويَنقُضَ خيوطها بجدّ. وفي وسع المرء أن يفهم إذا ما قارن هذا بلعبة مبارزة اللَّكم والخَبْط، الخشنة، وألوان السباب والشتائم الخالية من الظُّرْف عند معاصريه، كيف كانت مثل هذه الألعاب النارية التي تبهر الأنفاس تفتِن الناس وتخلِب ألبابهم وتخلِّصهم، في وسط الظلام الفكري، على مدى قرن بأكمله.

ويبدأ الهجاء فكاهياً، فهذه مدام ستولتيشيا (الحماقة)، في إهاب العلماء، وفي قبعة المهرِّجين (وهكذا رسمها هولباين)، وترتقي المنبر، وتلقي كلمة ثناء أكاديمية على شرفها هي، فتُشيد بنفسها قائلة إنها هي وحدها التي تؤمن، مع خادمتَيها، وهما التملُّق والأنانية، استمرار

مسيرة الأحداث العالمية. «ولولاي لما طابت في الحياة رابطة، ولا حَسُن حال مجتمع من المجتمعات، ولا داما». والحق إن الشعب كان خليقاً عندها أن لا يصبر على أمرائه، وأن لا يصبر السيد على خادمه، ولا الوصيفة على سيدتها الجليلة، ولا المعلّم على تلميذه، ولا الصديق على صديقه. ولا الزوجة على زوجها، ولا المُضيف على ضيفه، ولا الرفيق على رفيقه، وبعبارة مختصرة: ما كان إنسان ليصبر على إنسان، ولو لا أنهم يسارعون إلى الخداع المتبادل، وإلى تبادل عبارات التملّق، والتساهل فيما بينهم بالأسلوب الذكيّ. وفي النهاية: لو لم يكن كل شيء مُتَبَّلاً بإضافة من الحماقة. «فبسبب تقدير التاجر المالَ فوق قدره فحسب، يبذل الجهد، ولا يبدع الأديب إلاّ من جراء «إغراء المجد الفارغ»، أي بفضل الضوء المضلِّل، ضوء الخلود. ولا يغدو المحارب جريئاً إلا بفعل جنونه. وذلك أن الإنسان الذكي المتمتع بيقظة العقل وصحوته خليق أن يفِرَّ من كل قتال. ولن يكون خليقاً أن يفعل إلاّ ما هو أكثر الأمور ضرورة وإلحاحاً من أجل كسب المعيشة، ولن يكون خليقاً أبداً أن يحرّك ساكناً، ويشدَّ زمام فكره لو لم يكن قد غُرِسَت في نفسه عشبة المجانين هذه التي ينجم عنها الظمأ إلى الخلود. والآن تَصْخَب التناقضات وتجلجل هادرة بأصواتها، في مرح. ولكن هذه فحسب المدعوَّة ستولتيشيا (الحماقة) وهي التي تُسْعِد، وتقول إن كل إنسان يزداد سعادة كلما ازداد تعلُّقه بهواه عَميً، وكلما ازدادت حياته مجانبة للعقل، لأن كل تفكُّر وتدبُّر، وكل تعذيب

للنفس يبعث الظلمة والغَمَّ في النفوس، والمتعة لا تكون أبداً في الوضوح والذكاء، بل لا تكون دائماً إلاَ في السكر والافتتان، والحماسة الدافقة الفيّاضة، وفي وجود المرء خارج ذاته، أي في وجوده في الجنون، ولا تتهيّأ كل حياة حقة إلاّ بجرعة من الحماقة. والعادل المنصف الذي لا يخضع لأهوائه لا يمثل الإنسان الطبيعي بحال من الأحوال، بل يمثل نوعاً من الخروج عن المعيار الطبيعي: «ولا يمكن أن يسمى إنساناً حقاً إلاّ من أصيب في حياته بالحماقة». ومن أجل ذلك تثني تلك المدعّوة ستولتيشيا على نفسها على أنها المحرك الحقيقي لكل إنجاز بشري، وهي ممتلئة الوجنتين، وتوضح، بلسانٍ ذَرِب مُغْرٍ، كيف أن كل الفضائل التي كثيراً ما يشاد بها في العالم، كوضوح الرؤية وصحتها، والاستقامة، والأمانة ليست ملائمة في الحقيقة إلاّ لتكدُّر حياة الإنسان الذي يمارسها، وتجعلها مريرة، ولمّا كانت، فضلاً عن ذلك، سيدة مثقّفة فهي تستشهد، لصالحها، وهي فخورة، بسوفوكل: «لا تكون الحياة مستعذبة أبداً إلاّ في نقص العقل والتبصُّر».

ولكي تدعم بأسلوبها الأكاديمي الصارم، أطروحتها، نقطة فنقطة، تسوق، بجد ونشاط، شهودها، مستهزئة بهم، وكل طبقة تكشف، أثناء هذه الاستعراض الكبير، عن جنونها الخصوصي، ويسيرون جميعاً بين يديها: فمنهم أهل البلاغة أولو الهذر والثرثرة، ومنهم علماء القانون المتحذلقون، ومنهم الفلاسفة الذين

يودُّ كل منهم لو يضع الكون في كيسه هو، ومنهم المباهون بنبالتهم، ومنهم جمّاعو الأموال والمدرسيّون، والكتاب، والمقامرون، والمحاربون، وأخيراً المجانين الخالدون، مجانين شعورهم، أي العشّاق الذي يحسَب كلٌّ منهم أنه يرى في محبوبه خلاصة كل متعة، وجُماعَ الجمال، مجتمعَيْن فيه وحده، ويشكل إراسموس صالة عرض فخمة ذات أُبَّهة، لحماقة البشر، بمعرفته التي لا تضاهى، بالعالم، ولم يكن كبار أدباء المسرحيات الهزلية، مثل موليير، وبن جونسون، يحتاجون بعد ذلك إلاّ إلى أن يمدّوا أيديهم إلى مسرحية المهرِّجين هذه ليصوغوا من أشكاله الكاريكاتورية هذه المشار إليها بخطوة يسيرة، أناساً حقيقيين. وليس هناك ضرب من معابثة الحماقة البشرية يَسلَم من التعرُّض له هنا، ولا لَونٌ منها يُنسى، وبفعل هذا الاكتمال على وجه الخصوص، على الرغم من أنه ما من طبقة تخرج من ذلك بوجه أفضل من وجه طبقته ؟ وفي النهاية، ولأول مرة تستطيع عالمية إراسموس الكاملة أن تكرِّس مكانتها وتفرض اعتبارها، وتَثْبُت كلُّ طاقاته الذهنية ولكنته، ومعرفته، ونظرته الواضحة الساطعة، وفكاهته، على أن الجانب الرَّيْبِـــيّ والجانب المتفوِّق في نظرته إلى العالم يموجان هنا بمئاتٍ من الشرارات والألوان الصادرة عن صاروخ في حالة الإنطلاق، يجتَمِعْن معاً، وهنا يتحقق فكر رفيع المستوى في مسرحية مكتملة.

nis ac rusticanæ, cuius meminit Lúcianus in libro de saltatiõe, meminit & Pollux libro quarto, capite. xiij. περὶ εἰδῶν ὀρχήσεως. τὴν ξελανολό.) Vox ficta, qua repreſentat̃ saltatio Cyclopis Polyphemi, unde & Horatius, Saltaret uti Cyclopa rogabat. Meminit Aristophanes in Pluto. γυμνοπόδιον) & hoc saltatiõis gen⁹ a nuditate pedũ dictũ, γυμνὸν eñ nudũ. πούς pes dicit̃.

Attellanas) Atellanæ saltationis est genus in quo, obscenis gesticulationibus libido repreſentabat̃, ab Atella ciuitate uocatũ. Pan.) Nam & is fistulam habet



ولكن هذا الكتاب، كان بالنسبة إلى إراسموس، في أساسه الأعمق على الإطلاق أكثر من مُزاح، وقد استطاع أن يتجلّى في هذا الأثر الأدبي الوجيز على وجه الخصوص في صورة أكثر كمالاً من أي صورة تجلىّ بها في أي أثر آخر، لأن عمله الأثير هذا، (الثناء على الحماقة) كان يمثل أيضاً تقديراً نفسيًا لذاته، مع جوهره الباطني المتناهي في العمق وكان إراسموس، الذي لا ينخدع بشيء، أو بأحد من الناس، يعرف الأساس الأعمق لذلك الضعف الذي لا يُسبَر غوره، والذي كان يعوقه في المضمار الأدبي، أي في المضمار الإبداعيّ الحقّ، وهو أنه كان يشعر، على الدوام شعوراً مفرطاً في العقلانية، لا يتّسم إلاّ بالقليل من السمة العاطفية الجامحة، إلى حدٍّ بلغ منه أن إعراضه عن التحزُّب، وتعاليه عن الأشياء، وضعه خارج نطاق الحيّ. والعقل لا يكون، دائماً، إلاّ طاقة ضبط وتحكُّم، ولا يكون أبداً طاقة إبداعية وحده. غير أن الجانب المنتج يفترض، بصورة أوّلية، وجود جنون على الدوام، ولأن إراسموس كان خالياً من الجنون خُلُوّاً رائعاً، ظل طوال حياته خالياً من العاطفة، أو الهوى الجامح، عادلاً بارداً وعظيماً، لم يعرف قطُّ سعادة الحياة الأخيرة، وهي التفاني الكامل، المطلق، والتبديد المقدَّس للذات، بأسلوب المبذِّر المتِلاف. والآن في المرة الأولى والوحيدة، وبفضل هذا الكتاب، يقدِّر الناس أن إراسموس كان يعاني، في الخفاء، من عقلانيّته، وعدالته، والتزامه، وحُسْنِ اتّزانه، ومثلما يكون الفنان دائماً ،في أكثر أحواله يقيناً أنْ

سيبدع حين يحوّل شيئاً يفتقر إليه، أو يتوق إليه، إلى شخصية ماثلة، كان إنسان العقل، على وجه الخصوص، هنا أيضاً المندوبَ بامتياز، ليُنشد النشيد المرح المستبشر، إلى الجنون، وليغمز من قناة مُؤَلِّهي الذكاء المحض، بأكثر الطرق ذكاءً.

ولكن لا يجوز للمرء أيضاً، في غير هذه الحالة أيضاً، أن يخدعه هذا الفن التنكُري غير المقيَّد بحدود والمتمتع بسيادة كسيادة الدول، عن مقصده الحقيقي. فقد كان هذا «الثناء على الحماقة» الذي يبدو منطوياً على المقالب، والكامن وراء حفلته التنكرية الكرنفالية، من أخطر كتب عصره، وما يبدو لنا اليوم في صورة مجرد ألعاب نارية ظريفة فإنما هو في الواقع انفجار أفسح الطريق، بما نسف، ومهَّد، للإصلاح الديني الألماني: فالثناء على الحماقة يعد من أكثر الكراريس التي كُتِبت في أي يوم من الأيام فعالية. ففي تلك الأيام عاد الحجاج الألمان من روما وقد انطوت نفوسهم على الاندهاش والاستنكار، إذ كانت البابوات والكرادلة هناك يعيشون حياة أمراء عصر النهضة الإيطالي الحافلة بالتبذير والبَذخ، والإقبال على الملذّات والتهتُّك، وكانت الطبائع المتديِّنة حق التديُّن تطالب، بصبر يزداد نفاداً على نحو مطرد، بـــ «إصلاح للكنيسة يشمل رأسها وأوصالها». ولكن روما بابوات الأُبَهة والبهرجة كانت ترفض كل اعتراض، حتى الاعتراض المنطوي على أحسن المقاصد قاطبة، وكان الحرق على أكوام الحطب، وتكميم الأفواه وكَتْم الأنفاس جزاء كل أولئك الذين يرفعون

عقيرتهم بالصياح فوق ما ينبغي، أو يتحدثون بحرارة مفرطة، ولم يكن من الممكن تفريغ شحنة الشعور بالمرارة حيال استغلال تجارة الأشياء التذكارية الدينية، والممارسات غير اللائقة فيما يتعلق بصكوك الغفران، إلاّ في الخفاء، في أشعار شعبية فَجّة، أو في طرائف ذات مغزىً لاذع، وكانت المنشورات الطيّارة تسري من تحت الأرض، تحمل صورة البابا الذي يمثل العنكبوت الكبير، مصّاص الدماء، وتتناقلها الأيدي، على أن إراسموس يُسَمِّر الآن سِجل خطايا الإدارة المركزية البابوية علانية، على جدار الزمن: ولما كان أستاذ الالتباس والدلالة المزدوجة، فهو يستفيد من أسلوبه الفني الكبير، فينطق بكل ما هو ضروري وخطير على لسان مدام ستولتيشيا، من أجل هجمة حاسمة على تردّي الأحوال الدينية، وعلى الرغم من أن اليد التي تُلَوِّح بالسوط ليست، فيما يقال، إلا يد مجنون أو أحمق، فإن المعنيّين جميعاً يفهمون على الفور، المقصد الانتقادي لكلماتٍ مثل: (ألا ليت عظماء الأحبار، من البابوات، وُلاة الأمر القائمين باسم المسيح، اجتهدوا في أن يصبحوا في الحياة مماثلين له، وصبروا على مثل فقره، واحتملوا جهده، وحملوا صليبهم على عاتقهم، وشاطروه ازدراءه لكل ما هو دنيويّ ومن تُراه يكون مَحَلاً للشكوى أكثر منهم؟ وما أكثر الكنوز التي سوف يتخلى عنها الآباء المقدَّسون لو أن الحكمة استحوذت على ذهنهم ذات مرة فحسب!

إذاً لحلَّ محل تلك الثروات الفاحشة، وتلك الأمجاد الربَّانية، وذلك التوزيع لمثل هذه المناصب والمراتب، والأشكال الكثيرة من مَنْحِ التَّحِلَّة، والضرائب المتعددة الأشكال والوجوه إلى هذه المدى، والمُتَع والملذَّات، ليالٍ تتجافى فيها الجنوبُ عن المضاجع، وأيامُ صوم، وصلواتٌ، ودموع وممارسات للصلوات والأدعية، وألوف أخرى من الجهود التي تستغرق الوقت. وإذا السيدة ستولتيشيا (الحماقة) تخرج دفعة واحدةً عن دور الحماقة، وتتكلم، بوضوح لا لَبْس فيه، عن مطلب الإصلاح الديني المستقبلي في العالم: «ولما كانت تعاليم المسيح بأسرها لا تقوم على شيء آخر سوى الحُلْم ودماثة الخُلُق، والصبر وازدراء الأرضي، فإنه يتضحُ جلياً، للعيان، ما هو المقصود هنا. لقد أراد المسيح أن يُعِدَّ ممثليه وَفْقاً لروحه حقاً، ومن أجل ذلك كان يطالب بأن لا يخلعوا نَعالهم، ويتخلوا عن حقائبهم فحسب، بل يخلعوا أرديتهم أيضاً، ليتقلَّدوا منصبهم الرسولي متجرِّدين تجرُّداً كاملاً، ولا ينبغي لهم أن يتقلدوا سوى السيف ، ولكن ليس ذلك السيف المشؤوم الذي يفيد في النهب والقتل، بل هو سيف الفكر الذي يتغلغل حتى يبلغ أعمق أعماق النفس، ويقتل كل الأهواء الجامحة بضربة واحدة ، لكيلا يستوي على عرش القلب، منذ الآن فصاعداً، إلاّ الورع والتقوى».

وفجأة ينجم عن الهزل جِدٌّ صارم بتّار، وتَبْرُز من تحت قبعة الأحمق المأفون، العين الصارمة التي لا يمكن تضليلها أوخداعها، عين ناقد العصر الكبير، لقد عبَّرت الحماقة عما كان الألوف ومئات

الألوف يتحرقون شوقاً إلى أن يقولوه، وتمَّ تفصيل القول في ضرورة إصلاحٍ للكنيسة دقيق للغاية موجَّهٍ إلى وَعْيِ العالم، بأسلوب أقوى، وأكثر تغلغلاً في النفوس، وأحرى أن يفهمه الناس جميعاً، من أي رسالة أخرى من رسائل العصر ولابُدَّ، على الدوام، من زلزلة سلطان قائم، قبل أن يكون من الممكن إنشاء شيء جديد. وفي كل الثورات الفكرية، يتقدم الناقد، والتنويريّ على المبدع الذي يقلب الصورة أو الشكل: ففي البداية يكون حرث الأرض وقَلْبُ التربة، ثم تكون الأرض جاهزة لحبَّة البذار.

ولكن مجرَّد النفي والنقد العقيم لاينسجمان مع أي مضمار يتعلق بالموقف الفكري عند إراسموس، وعندما يكشف عن أمر ينطوي على وجه من أوجه الخطأ ، فذلك ما لا يحدث إلاّ ليطالب بما هو صحيح، غير أنه لا يلوم أبداً بدافع الولع باللوم الذي ينمُّ عن الكبرياء والشعور بالتفوُّق. وما من شيء كان أبعد عن هذا الطبع المتسامح من هجوم عاصف وفظّ يهدف إلى تحطيم الصور، على الكنيسة الكاثوليكية: وبحكم كونه إنسانيّ النزعة، لم يكن إراسموس يحلُم بثورة على الكَنَسيّ، بل بعصر ازدهار جديد، أو نهضة الدينيّ، بتجديد للفكرة المسيحية عن طريق العودة إلى نقائها الذي كان في الناصرة، ومثلما شهد الفن والعلم تجديداً رائعاً لشبابهما عن طريق العودة إلى النماذج القديمة، يأمل إراسموس في تنقية الكنيسة التي كانت توشك أن تغرق في المظاهر الخارجية، بالتنقيب عن أكثر ينابيعها أصالة، أي بِردِّ

تعاليمها إلى الأناجيل، وبالتالي إلى كلمة المسيح ذاتها. «بالتنقيب عن المسيح الكامن وراء التعاليم المذهبية». وبهذه الرغبة التي كان يظلُ يُعرِب عنها المرة بُعد الأخرى، يتبّوأ إراسموس – السباق هنا كشأنه في كل مكان – مركز الصدارة في الإصلاح الديني.

ولكن الحركة الإنسانية لم تكن قط ثورية، بناء على رغبته، وعندما يتولى إراسموس عن طريق الحوافز التي اتخذها في سبيل الإصلاح الكنسي، أهم خدمات تمهيد الطريق أيضاً، فهو يُجفِل متراجعاً بحّدة، بموجب عقليته المُلْزِمة المبنيّة على الموادعة القصوى، خوفاً من حدوث انقسام كنسي مكشوف، ولن يعمد إراسموس بأسلوب لوثر أو تسفينغلي أو كالفن، العنيف الذي يكتسح كل معارضة، إلى تحديد ما هو صحيح في الكنيسة الكاثوليكية، أو ما هو غير صحيح، وما هي القرابين المقدسة غير الملائمة، وهل يجب أن يُفْهَم العشاء الرباني على أنه حقيقة مادية، أم أنه ليس حقيقة مادية، وهل يقتصر على مجرد تأكيد أن مجرد الالتزام بالأشكال الخارجية يمثّل في حد ذاته، الجوهر الحق للتقوى المسيحية، ويقول إن سريرة النفس وحدها هي التي يتميَّز بها الإيمان الحقيقي عند إنسان ما، وإن تمجيد القديسين، والحج، وترتيل المزامير والنزعة المدرسية في اللاهوت، بما تنطوي عليه من السمة اليهودية غير المثمرة،كل هذا ليس مما يجعل من الإنسان مسيحياً،بل إثبات حسن طَوِيَّته، وموقفه الإنساني المسيحي، من الحياة، وإن أفضل خدمة للقديسين لا تتمثل في جمع

عظامهم وتبجيلها، ولا في الحج إلى أضرحتهم، وكونِ المرءِ أكثرَ الناس حرقاً للشموع عليها، بل تتمثّل تلك الخدمة في محاولة المرء تقليدهم في تحوُّلهم إلى التقوى في حياتهم الخاصة بأكمل وجه ممكن، وإنّ الأمر الأكثر حسماً والذي يُعَوّل، أكثر ما يُعوَّل، على المثابرة الدقيقة على أداء كل الطقوس والصلوات والصوم، وتراتيل القدّاس،و على خَوض الحياة الشخصية بروح المسيح: «الخلاصة الجوهرية لديننا هي السلام والوفاق واجتماع الكلمة». وهنا، كما في كل مكان، يعمل إراسموس على الارتقاء بالحَيَوّي والوصول به إلى الإنسانّي العام، بدلاً من خنقه في صيغ وعبارات شكليّة، وهو يحاول، عن وعي وقصد، فكَّ الارتباط بين المسيحية وبين الكَنَسيّ المجرَّد بأن يجمع بينها وبين الإنساني العالمي الشامل في إطار رابطةٍ ما، ويجتهد في أن يُدْخِل في إطار فكرة المسيحية كلَّ ما كان كاملاً من الوجهة الأخلاقية، عند الشعوب، وفي الأديان، بحكم كونه عنصراً مثمراً، وفي وسط قرن يتسم بالمحدودية والتعصُّب المذهبي ينطق هذا الإنساني الكبير بالكلمة الرائعة التي تُوَسِّع آفاق العالم: «حيثما عثرتَ على الحقيقة فلتنظر إليها على أنها حقيقة مسيحية». وبذلك تمَّت إقامة الجسر الذي يربط بكل العصور والأصقاع، ومن كان ينظر، مثل إراسموس بما يتميز من حرية الفكر، إلى الحكمة والإنسانية، والأخلاق والتهذيب، في كل مكان، على أنهن مسيحيةٌ، فلن يعود مِنْ بعدُ إلى طرح فلاسفة العصر القديم في الجحيم، مثلما كان يفعل

المتعصبون المتحمسون من الرهبان (وذات مرة يصرح إراسموس متحمساً: «أيها القديس سقراط» بل سينقل إلى الدينيّ كلَّ ما هو نبيل وعظيم في الماضي «مثلما حمل اليهود معهم أمتعتهم الذهبية والفضية عند الخروج من مصر ليزيِّنوا بها المعبد». ولا ينبغي، تبعاً للفهم الإراسمِيِّ للدين، أن يُفْصَل عن المسيحية شيء مما كان يمثل، في أي يوم من الأيام، إنجازاً هاماً للأخلاق البشرية أو الفكر الأخلاقي، بحَدٍّ جامد، ذلك لأنه لا وجود، في الإطار الإنساني، لحقائق مسيحية وحقائق وثنية، بل الحقيقة ربّانية في كل أشكالها. ولذلك لا يتحدث إراسموس أيضاً، أبداً عن لاهوتٍ خاص بالمسيح، أو «تعاليم العقيدة»، بل يتحدث عن « فلسفة المسيح» أي عن تعاليم تتعلق بموقف المرء من الحياة: والمسيحية بالقياس إليه ليست سوى المرادف الآخر للأخلاق الرفيعة والإنسانية.

وربما تحدث هذه الأفكار الأساسية عند إراسموس، إذا ما قورنت بالطاقة الشبيهة بالعمل المعماري، الكامنة في التأويل الكاثوليكي، واندفاعة المحبة اللاهبة عند المتصوِّفة، أثراً يوحي بأنها سطحية وعامّة، غير إنها إنسانية، فهنا، كما هو الحال في كل ميدان من ميادين المعرفة، لايندفع تأثير إراسموس نحو العمق بمقدار ما يندفع نحو اتساع المدى ويغدو كتابه (المرجع في النزاع المسيحي) Enchiridion militis « christiani » وهو رسالة من رسائل المناسبات وُضِعت بناءً على رغبة سيدة نبيلة ورِعة، تذكيراً لزوجها، مرجعاً شعبياً في اللاهوت،

ويجد الإصلاح الديني بمطالبيه المتطرّفة ذات النزعة إلى القتال، من جراء ذلك، حقلاً سبقت حراثته. ولكن رسالة هذا المنادي الوحيد في الصحراء لا تتمثل في استهلال هذا القتال، بل في تهدئة المعارك الوشيكة في اللحظة الأخيرة باقتراحات توفيقية تهدف إلى التقريب بين وجهات النظر، في وقت كان يحتدم فيه النزاع المرير في المجامع الكنسيّة حول تفاصيل عقيدية بالغة الضآلة، وكان إراسموس يحلم فيه بتركيب أخير يجمع بين كل الأشكال الصادقة لنزعة الإيمان الفكرية، بنهضة (rinascimento) للمسيحية يفترض أن تخلّص العالم كله، من الجدل والنزاع ، مرة واحدة وإلى الأبد، وبذلك يرتقي بالإيمان بالله إلى مستوى ديانة للبشرية حقاً.

ولعلَّ مما يدخل في باب تعدد الجوانب عند إراسموس أنه كان يعرف كيف يعبِّر عن الفكرة الواحدة ذاتها بأشكال متعددة. ففي كتاب «الثناء على الحماقة» فصّل ناقد العصر النزيه القولَ في التقاليد غير المستحبّة داخل الكنيسة الكاثوليكية، وفي كتاب «المرجع في النزاع المسيحي» كان يراوده حلم مُستَبَق بمثل أعلى، مفهوم لدى الناس جميعاً، من أجل تديُّن معمَّق موجَّه إلى سريرة النفس، مع إضفاء السِمة الإنسانية عليه، ولكنه حوّل، في الوقت ذاته، نظريته عن «التنقيب الضروري عن ينابيع المسيحية» إلى حقيقة واقعة، إذ تَرْجَم الأناجيل، بحكم كونه ناقداً للنصوص، وعالماً بفقه اللغة المقارن ومفسِّراً، ترجمة جديدة، من اليونانية إلى اللاتينية، وكانت عملية مهَّدت الطريق لترجمة لوثر للكتاب المقدَّس إلى الألمانية، وكانت ذات أهمية مماثلة بالنسبة لهذا العصر.

العودة إلى ينابيع الإيمان الحق، والتماسها حيث ما زالت تتميّز بالنقاء الرباني، لا تتدفق ممزوجة بمذهب معين – هذا هو مطلب إراسموس من اللاهوت الإنساني الجديد، وبأعمق الغرائز الدالة على حاجة العصر يشير إلى هذا العمل قبل لوثر بخمسة عشر عاماً بأنه العمل الحاسم. ففي عام ١٥٠٤ يكتب قائلاً: «لا أقدر على أن أصف مقدار تطلُّعي إلى الكتب المقدسة بكل طاقتي، ومقدار شعوري بالاشمئزاز الأمر الذي يعوقني عنها أو يقفني فحسب أيضاً». ولا ينبغي لحياة المسيح، كما تروى في الأناجيل، أن تظل بعدُ امتيازاً للرهبان والكهنة، والناطقين باللاتينية، بل ينبغي للشعب بأسره، ويجب عليه، أن يكون له قسط منها، «وينبغي للفلاح أن يقرأها حين يحرث أرضه ، وللنسّاج أن يقرأها على نَولِه، وأن تتمكّن السيدة من تلقين هذه النواة التي تقوم عليها المسيحية بأسرها لأطفالها.

ولكن قبل أن يجرؤ إراسموس على تنمية هذه الفكرة الكبيرة الخاصة بالنقل إلى اللغة القومية يتبيّن لهذا المثقف أن الفولغاتا أيضاً، هذه الترجمة اللاتينية الوحيدة المعتمدة التي تقبل بها الكنيسة، للكتاب المقدّس شهدت فيما بعد ألواناً متعددة من التعمية وباتت موضع النزاع بالمعنى الفيلولوجي، ولكن الحقيقة لا ينبغي أن تَعلَق بها نقيصة أرضية، وهكذا ينهض بالعمل المهول الذي يقوم على الجد والاجتهاد، وهو ترجمة الكتاب المقدس مرة أخرى إلى اللاتينية، وإرفاق أشكال انحرافه وفهمه الأكثر تحرُّراً بتعليق مفصّل، نقديّ، وهذه الترجمة الجديدة للكتاب المقدس، التي تظهر في وقت واحد لاتينيةً ويونانية، عام١٥١٦ عند

فروبن في بازل، تعني خطة ثورية في أكثر من مرة: فحتى في الكلية الأخيرة، وهي اللاهوت يتغلغل، بذلك، للبحث المبني على حرية الفكر مظفَّراً، ولكن الأمر النموذجي بالنسبة لإراسموس هو أنه يحافظ على الأشكال والقوالب الخارجية ببراعة بالغة، حتى حين يمارس الثورة، بحيث لاتتحول أكثر الاندفاعات عنفواناً إلى صدمة، ولكي يخضد شوكة أي هجوم من قبل أهل اللاهوت، يهدي هذه الترجمة الأولى الحرة، للكتاب المقدَّس إلى سيد الكنيسة، البابا، ولما كان هذا البابااليو العاشر، هو نفسه من ذوي النزعة الإنسانية، فهو يجيب إجابة ودية في رسالة بابوية وجيزة: «لقد سرَّنا هذا» بل يثني على الهمة والنشاط اللذين وقفهما راسموس على الكتاب المقدَّس. وكان إراسموس يعرف، على الدوام كيف يتغلَّب بأسلوبه الفردي على الصراع بين البحث الكنسي والبحث الحر بفضل طبيعته التصالحية، وهو الصراع الذي كان يؤدي، عند كل الآخرين إلى العداوة الرهيبة إلى أقصى الحدود فكانت عبقرية التوسط، وفنُه الذي يجنح إلى تسوية الأمور يُحْرِزان النصر المؤزر، حتى في هذا الجو المتوتِّر إلى أقصى الحدود.

وبهذه الكتب الثلاثة كسب إراسموس عصره. لقد نطق بالكلمة التنويرية في صدد مشكلة جيله الحاسمة. على أن الأسلوب الهادئ الذي يفهمه الناس جميعاً، والإنساني، والذي يعرض به أكثر مشكلات عصره إلحاحاً، يؤمِّن له أشكالاً من التعاطف لا يُسبَر غورها. وتظل البشرية تشعر بالامتنان العميق لأولئك الذين كانوا يرون التقدم ممكناً بفضل

العقل، وإن المرء ليتفهم الإسعاد الذي حظي به القرن الجديد، بعد كل أولئك الرهبان المستثارين، والمتعصببين المشاكسين، والمتهكمين الذين لا يُرجى لهم شفاء، وأساتذة المذهب المدرسيّ، والمتمثل في أن هذاالقرن عرف آخر الأمر، رجلاً في أوروبا يقِّيم الأمور الفكرية والكهنوتية من المنطلق الإنساني وحده، نفساً تحب العالم وتؤمن بالعالم على الرغم من كل ما فيه من سوء الأحوال، وتريد أن تُفضي به إلى الوضوح، وهكذا يحدث ما يحدث كلما توجَّه رجل فرد، بعزم وتصميم، نحو المشكلة الحاسمة في عصره: إذ يجتمع حوله رهط من الناس، ويزيدون، بتوقعهم الهادئ، طاقته الإبداعية. لقد وجدت كل طاقة، وكل أمل، وكل نفاد صبر ولَهفَة على التربية الأخلاقية للبشرية والارتقاء بمستواها عن طريق العلوم الناشئة حديثاً، آخر الأمر،كل هذه الأمورووجدت بؤرتها في هذا الرجل: فإما هو، وإما لا أحد سواه، وجدت رجلاً كان في وسعه، فيما يقولون أن يحلَّ عقدة هذا التوتر الهائل الذي أُتْرِعَ به العصر، وبالانطلاق من مجرد المجد الأدبيّ يغدو اسم إراسموس، في مستهل القرن السادس عشر، سلطة لا تضاهيها سلطة، ولو كان جريئاً بفكره، لكان في وسعه أن يستغلها من أجل عمل إصلاحي له شأنه في تاريخ العالم، ولكن الفعل ليس عالمه، فإراسموس يستطيع أن يُفَسِّر ، ولكن لا يستطيع أن يصوغ، ويستطيع أن يمهد الطريق، ولكنه لا يستطيع أن يحقق أو أن ينجز، ولن يحمل اسمُه الإصلاح الديني على جبينه ، بل سيحصد امروٌ آخر ما زرعه.

عظمة الحركة الإنسانية

وفي الفترة الواقعة بين عامه الأربعين وعامه الخمسين يبلغ إراسموس فون روتردام، ذروة مجده: فمنذ مائة عام لم تعرف أوروبا عظيماً أعلى منه شأناً، وما من اسمٍ لأحد من معاصريه، حتى ولا أسماء دورَرْ، ورافائيل، وليوناردو، وبارسيلسوس، أو ميكيل أنجلو، يُذْكَر في تلك الأيام، في عالم الفكر، بالقدر ذاته من المهابة والخشوع، وما من أعمال لكاتب انتشرت بطبعات لا حصر لها، كأعماله، وما من سمعة أخلاقية أو فنية يمكن مقارنتها بسمعته، وذلك أن اسم إراسموس يعني بالنسبة لمستهل القرن السادس عشر، الحكيم بكل معنى الكلمة، وعلى نحو مطلق، أي أفضل ما يمكن تصوُّره وأعلى مايمكن تصوُّرة، وهو، كما يشيد به ميلا نكتون في أنشودة الثناء عليه، التي وضعها باللاتينية، المرجع الذي لايُدحض في الأمور العلمية، والأدبية، والدنيوية والفكرية والناس يُثْنون عليه حيناً على أنه «الدكتور العالمي» وحيناً آخر على أنه «أبو الدراسات» وحامي «اللاهوت الحق» ويسميه الناس «ضوء العالم» أو «بثينا الغرب» (وبثينا هذه كاهنة أبو للو في دلفي، التي تجيب عن الأسئلة الموجَّهة إليه) وهو vir incomparabilis et doctor un phoenix

وما من ثناءٍ عليه يعدُّ أكثر مما ينبغي بالقياس إليه، ويكتب موتيان قائلاً: إراسموس يعلو على المقياس البشري، فهو يستحق التبجيل الذي

يتم إيلاؤه للآلهة، والخشوع الورع بين يديه مثلما يستحق ذلك كائن سماويّ، ويقول كاميراريوس، وهو إنسانيٌ آخر: «إنما يُعْجَب به ويمجِّده ويثني عليه كلُّ من لا يريد أن يُعَدَّ غريباً دخيلاً في مملكة إلاهات الشعر، وإذا استطاع أحد أن يحمله على كتابة رسالة إليه فقد بات مجده هائلاً،وحقً له أن يحتفل بالنصر، ولكنَّ مَنْ أتيح له أن يكلمه فهو من أهل السعادة في هذه المعمورة».

وبالفعل فقد كان سباق قد بدأ للظفر بحظوة المثقف الذي كان ما يزال مجهولاً قبل وقت وجيز، والذي كان يقيم أَوَد نفسه، حتى الآن، بشقّ النفس، عن طريق إهداءات كتبه، وإعطاء الدروس الخصوصية، ورسائل الاستجداء، والذي كان يستخرج بألوان من التزلُّف المهين، من جيوب الأقوياء، وبالحيلة والإلحاح، أُعطيات هزيلة - الآن يخطب الجبابرة ودَّه، وفي كل مرة يكون من قبيل المشهد المسرحي الذي تكون رؤيته مما ينطوي على المجد، أن تضطر السلطة الأرضية والمال إلى خدمة الفكر ويتسابق الأباطرة والملوك، والأمراء والدوقات، والوزراء والمثقفون، والبابوات والأحبار، في ذُلٍّ التابع، للظفر بالحظوة عند إراسموس: فهذا الإمبراطور كارل، سيد العالَمين، يعرض عليه موقعاً في مجلس مستشاريه وهنري الثامن يريد أن يجرّه إلى انكلترا، وفرديناند ملك النمسا إلى فينا، وفرانسوا الأول إلى باريس، ومن هولندا، وباربانت، والمجر، وبولونيا والبرتغال تأتي أكثر العروض إغراءً ، وثمة جامعات خمس تتنازع على شرف

إعطائه كرسيًا تدريسيًا في الجامعة، ويكتب إليه ثلاثة من البابوات رسائل تنم عن تهيُّبهم منه وتوقيرهم له. وكانت تتكدَّس في حجرته الهدايا ورسائل التقدير والامتنان، من المعجبين الأثرياء، وكان يُبْعَث إليه بالكؤوس الذهبية، وأوائل المطبخ الفضية، وحمولات عربات من الخمر، وبالكتب القيِّمة، وكل شيء يُغْري، وكلٌ يغريه ويدعوه، ليزيد بشهرته شهرته الخاصة، غير أن إراسموس الذكي والمتشكك في الوقت ذاته يتقبَّل كل هذه الأُعْطيات والتشريفات بأدب فهو يدعهم يرسلون الهدايا إليه، ويثنون عليه ويشيدون به، بل يكون ذلك مقترناً بسرور منه وارتياح لايخفيهما، غير أنه لا يبيع نفسه، ويدع الناس يخدمونه غير أنه لا يسدي أيَّ خدمة إلى أحد، إنه رائد الكفاح الذي لا يتزعزع، ولا تلين له قناة، في سبيل تلك الحرية الداخلية والنزاهة، اللتين أدرك أنهما الشرط المسبق الضروري لكل تأثير أخلاقي عند الفنان، وهو يعرف أنه يكون أقوى ما يكون حين يكون لذاته وحدها، وكم كان خليقاً أيضاً أن يكون من قبيل الحماقة التي لا حاجة به إليها، أن تنازعه نفسه إلى أن يجري وراء مجده من بلاط إلى بلاط،بدلاً من أن ينصبه، نجماً من النجوم، مضيئاً، هادئاً فوق منزله الخاص. وغدا إراسموس لا يحتاج، منذ زمن بعيد، إلى أن يسافر وراء أحد مقتفياً أثره، لأن الناس جميعاً يرتحلون إليه. وتتحوَّل بازل (بال)، من جراء وجوده فيها إلى مقرٍ كمقر حاكم وإلى بؤرة من بُؤر الفكر، وما من أمير ولا مثقَّف يحسب حساباً للسمعة، يُقصِّر في إيلاء الحكيم الكبير

فروض التبجيل، إذ يعرِّج عليه أثناء السفر، لأن الظفر بالحديث مع إراسموس يغدو شيئاً فشيئاً، نوعاً من الضربة التي يُضرَبُ بها الفارس الناشئ بصفحة السيف على كتفه أو قفاه (علامة على القبول الرمزي الاحتفالي في طبقة الفرسان) وأنْ يكون المرء زائراً له (مثلما كان ذلك في حالة فولتير، في القرن الثامن عشر، وفي حالة غوته في القرن التاسع عشر) يعني إظهار المهابة الأكثر إقناعاً بين يَدَيْ المتقلّد الرمزي لسلطان الفكر غير المرئي. وفي سبيل الحصول على توقيع من يده لإيراده في ألْبوم ضيوفهم، يحج النبلاء والمثقفون من ذوي المقام الرفيع، مسيرة كثير من الأيام، على أن كردينالاً، كان ابنَ أخٍ أو أخت للبابا لا يشعر بما يبتذل كرامته،حين يدعو إراسموس ثلاث مرات إلى مائدته عبثاً، ولا يمنعه هذا أن يزوره في حجرة المطبعة القذرة. وكل رسالة يكتبها إراسموس يضعها من يتلقّاها في إطار مطرَّز بالذهب أو الفضة مثلما يُفعَل بالأشياء التذكارية الدينية، بل إن كتاب توصية بقلم الأستاذ يَفْتَحُ، مثل سمسم، كلَّ الأبواب، ولم يتمتع قطُّ إنسان فرد، ولا غوته ولا فولتير، بمثل هذا السلطان الذي يستحوذ على العالم، في أوروبا، بفعل مجرد وجوده الفكري، وإذا نظرنا إلى المسألة من زاوية عصرنا، فإن هذه المكانة الفائقة التي يتمتع بها إراسموس لا يمكن فهمها فهماً كاملاً، لا بالنظر إلى عمله، ولا بالنظر إلى جوهره وحقيقته. ونحن نرى فيه اليوم فكراً ذكياً، إنسانياً متعدد الجوانب، متعدِّد الأشكال، فكراً حفّازاً وجذّاباً، غير أننا لا نرى فيه

فكراً جازماً يقلب صورة العالم. ولكن إراسموس كان بالنسبة لقرنه، أكثر من مجرد ظاهرة أدبية، إذ كان وما زال، التعبير الرمزي عن التَّوق الفكريّ الأكثر سرية وخفاءاً. وذلك أن كل حقبة تريد أن تجدِّد نفسها، تعكس مثلها الأعلى، أول الأمر، في شخصية ما ويظل روح العصر، يختار لنفسه، لكي يحيط بجوهر نفسه، بنفسه، إحاطة معقولة، إنساناً يكون أنموذجاً. وحين يرفع مقام هذا الفرد المستقل، الذي يجيء بطريق المصادفة في كثير من الأحيان، فوق قدره بكثير يتحمَّس لحماسته الخاصة، إن صح التعبير. والمشاعر والأفكار الجديدة لا تكون مفهومة على الدوام إلاّ بالقياس إلى محيطٍ مختارٍ مُنتَقى. أما الجمهور العريض فلا يقدر على الإحاطة بها أبداً في صورتها التجريدية، بل لا يدركها، على سبيل الحصر إلاّ إدراكاً حسيّاً، في قالبها الذي ينسكب في صورة إنسان. ومن أجل ذلك يضع بدلاً من الفكرة إنساناً أو صورة، أو أنموذجاً يُحتذى يحاول أن يشكِّل نفسه على شاكلته، مؤمناً به ومصدِّقاً. وهذه الرغبة التي يختص بها ذلك العصر، تنطبع حيناً من الزمن في إراسموس على نحوٍ كامل، لأن الإنسان العالمي، الذي لا يكون أحادي الجانب، والذي يعرف الكثير، والذي يرسل نظرته إلى المستقبل حرة طليقة، أصبح يمثل الجانب المثالي للجيل الجديد. وفي الحركة الإنسانية يحتفل العصر بجرأته على التفكير وأمله الجديد. ولأول مرة يجري تقديم سلطة الفكر على مجرد ما هو متوارث ومنقول أما مدى القوة، والسرعة

اللتين تفرض إعادة التقييم نفسها بهما، فذلك ما تثبته حقيقة أن أولئك الذين كانوا يتقلدون زمام السلطة كانوا يجعلون أنفسهم، طَوْعاً، في مكانة التابع، لأصحاب السلطة الجدد ولم يكن إلا من قبيل الرمز أن ينحني شارلكان (أو شارل الخامس) انحناءً يثير فزع رجال بلاطه، ليرفع فرشاة رسام سقطت على الأرض لتيسيان، ابن الراعي وعندما يغادر البابا، في امتثال منه لأمر ميكيل أنجلو باللهجة الخشنة، كنيسة السِكْستينا، لكيلا يكدِّر صفوالمعلم الأستاذ،وحين يجمع الأمراءُ والأساقفةُ، بدلاً من السلاح، وعلى نحوٍ مفاجئ، الكتب والصور والمخطوطات، وعلى غير وعي منهم، يستسلمون بذلك لإدراكهم أن قوة الفكر الإبداعي في الغرب قد تقلَّدت زمام الحكم، وأن ما أبدع الفنانون مكتوب له أن يدوم أكثر مما تدوم صروح العصر الحربية والسياسية ولأول مرة ترى أوروبا مغزاها ورسالتها يكمنان في سيادة الفكر، وفي إنشاء حضارة غربية جديدة موحَّدة، في إطار ثقافة عالمية تبدع الإبداع الأنموذجي.

ومن أجل هذه العقلية الجديدة يختار العصر إراسموس حاملاً لرايته، ويقدِّمه على كل الآخرين بصفته «المناوئ للبربرية» والمحارب لكل أشكال التخلُّف، ولكل النزعات التقليدية، والمُبَشِّر بإنسانية أرقى وأوفر حظاً من الحرية والإنسانية، وبحكم كونه رائد المواطنة العالمية القادمة، وما من شك في أننا، نحن أهل هذه الأيام، نلمس الباحث بجرأة، والمصارع العظيم، والفاوستيّ في ذلك القرن في أنموذج آخر، أكثر

عمقاً، للإنسان العالمي، منطبعاً على نحوٍ أروع إلى حد لا نهاية له، في ليوناردو، وباراسيلسوس، ولكن ما يبتر عظمة إراسموس في اللحظة الأخيرة، وهو قابليته للفهم المتميِّز بالصفاء والوضوح (والتي تكون في كثير من الأحيان شفافة إلى حد مفرط) واكتفاؤه بما يمكن معرفته وتمييزه، وجوهره المدينيّ (urban) الملزِم، كان هذا على وجه الخصوص، ما صنع سعادته في تلك الأيام، ووقع الزمن على الاختيار الصحيح بحكم الغريزة: إذ كان كل تجديد للعالم، وكل قَلْبٍ للتربة بحراثتها، تجري محاولتهما أول الأمر عن طريق المصلحين الدينيين المعتدلين، بدلاً من محاولة ذلك بالثوريين الجامحين المفعمين بالغضب. أما إراسموس فكان العصر يرى فيه رمز العقل الذي يحدث آثاره بهدوء، ولكن لا يمكن وقْفُه، وتظل أوروبا متوافقةً في لحظة رائعة، غارقةً في الحلم ذي الروح الإنسانيّ، كان يفترض أن تضع، بحضارة موحَّدة، وبلغة عالمية واحدة، وبديانة عالمية وبثقافة عالمية، نهاية للنزاع العريق في القِدَم، المنطوي على طامَّة. وهذه المحاولة التي لا تُنسى تظل مرتبطة على نحو يظل يبعث على النظر والتأمل، بشخصية إراسموس فون روتردام واسمه. ذلك لأن أفكاره ورغائبه، وأحلامه ظلت تسود أوروبا ساعة من تاريخ العالم، ولعل مما يمثل طامَّته وطامَّتنا في الوقت ذاته، أن هذه الإرادة الفكرية المحضة، إرادة التوحيد النهائي للغرب وتوطيد دعائم السلام فيه، ظلت مجرد لعبة عارضة طواها النسيان على عجل، في إطار مأساة وطننا المشترك الشامل، المكتوبة بالدم.

على أن إمبراطورية إراسموس هذه التي تشمل لأول مرة (وإنها لساعة جديرة بالتأمل والنظر!) كل البلدان والشعوب واللغات في أوروبا، كانت تتمثل في حكم نَمِث رفيق.

ولأنه تم الوصول إليه من دون عنف عن طريق مجرد طاقة الأداء الفكري، التي تخطب الودَّ وتقنع، فإن الحركة الإنسانية تَشمئز من كل عنف، ولأن إراسموس لايتم اختياره إلا عن طريق النداء وحده، لايمارس أي شكل من أشكال الدكتاتورية التي ترى أنَّ لها وحدها الحق في الحكم، وتعد حرية الإرادة، والحرية القائمة في سرائر النفوس القاعدتان الأساسيَّتان للدولة في مملكته غير المرئية، ولايريد الموقف الفكري الإراسمي أن يُخْضِع البشرَ لمثله الأعلى القائم على النزعة الإنسانية، والذي ينزع إلى الخير العام للبشر، بنفاد الصبر، مثلما فعلت قبل ذلك الأمراء والأديان، بل يريد أن يجتذب الذين مازالوا لايعلمون، والمُنْتَحين جانباً، إلى وضوحه، مثلما يغري ضوء مكشوف، الحيوانات التي تتخبَّط في الظلام، بالمبادرة إلى جوِّه النقيّ، مقنعاً إياهم بالحلم والرفق، والحركة الإنسانية ليست بذات عقلية إمبريالية، فهي لا تعرف أعداءً، ولاتريد عبيداً، ومَنْ لم يشأ أن ينتمي إلى الوسط المختار ففي وسعه أن يظل خارجه، إذ لا يُرْغَم، ولا يُفْرض عليه هذا المثل الأعلى الجديد بالعنف، ويعدُّ كل نفاد صبر، أو عدم تسامح – ينشأ دائماً عن عدم فهم في قرارة النفس – غريباً عن نظرية التفاهم العالمي. ولكن لا يُحْرَم أحد من الدخول في هذه الطائفة

ومن الممكن أن يكون إنسانياً كل من ينطوي على الرغبة في الثقافة والحضارة، فكل إنسان، مهما كانت طبقته، وسواء أكان رجلاً أو امرأة، أو كان فارساً أو كاهناً، أم كان ملكاً أم تاجراً، أم كان من عامة الناس أو راهباً، فإن له الحق في دخول هذا المجتمع الحر، ولا يُوَجَّه إلى أحد سؤال عن أصله من عرق وطبقة، أو عن تبعّيته للغة أو أمة، وبذلك يظهر مفهوم جديد في التفكير الأوروبي: هو المفهوم الذي يتعالى عن القوميّ. وما عاد ينبغي لِلُّغات التي كانت - حتى الآن - تمثل الجدار الفاصل بين البشر، أن تفصل بين الشعوب، إذ تتم إقامة جسر بينهم من خلال اللغة المشتركة المتمثلة في اللاتينية التي تحظى بالاعتبار عند الشعوب كافة، وكذلك يفترض أن يتمَّ التغلُّب على مثال الوطن بحكم كونه مثالاً غير ذي طائل، لأنه مفرط في الضيق، عن طريق المثل الأوروبي الذي يتخطى الحواجز بين الأمم. وينادى إراسموس، قائلاً في مرثية السلام «Querel pacis»: «لقد أصبح العالم كله وطناً مشتركاً».

وبالانطلاق من هذه المرحلة البارزة من مراحل النظرة الأوروبية يبدو له النزاع الفتّاك بين الأمم، وكل روح عدائية بين الإنكليز والفرنسيين والألمان، أمراً لايقبله العقل: « لماذا تفصل بيننا كل هذه الأسماء الدالة على الحماقة، بدلاً من أن يوحّدنا اسم المسيح ؟ » وكل هذه الأشكال من الشقاق داخل أوروبا ليست في نظر الإنسان ذي العقلية الإنسانية، شيئاً آخر سوى اشكال من سوء التفاهم، ترجع

جريرتها إلى فهم مفرط في الضآلة من جراء ثقافة بالغة الضآلة، وينبغي أن تكون مهمة الأوروبي القادم، هي أن يؤكد دائماً على مايجمع ويربط ويَلُمُّ الشمل، بدلاً من الاسترسال في متابعة ادعاءات الحق القائمة على الصلف والغرور في مجاراة للمشاعر الوجدانية عند أمراء الدُوَيْلات التي تحاكي قطع الموزاييك، وعند متعصبي أهل النِحَل والمذاهب، والأنانيين القوميين، كما ينبغي وضع الأوروبي فوق القومي، والإنساني العام فوق الوطنيّ، وتحويل مفهوم المسيحية من حيث مجرد كونه طائفية دينية، إلى مسيحية عالمية شاملة، وإلى محبة للبشر، متفانية، تخدم وتتسم بالتواضع ولين الجانب. وعلى هذا فالفكرة الإراسمَيِة تهدف إلى ما هو أعلى من مجرد مجتمع للمواطنين العالميين، إذ تعمل في إطارها إرادة مصممة على شكل جديد من أشكال الوحدة الفكرية في الغرب. والحق أنه سبق أن حاول، قبل ذلك، أناس متفرّقون، توحيداً لأوروبا منهم قياصرة روما، وشارلمان، وسوف يفعل ذلك نابليون فيما بعد، ولكن هؤلاء الحكام النبلاء كانوا ينزعون إلى ضم الشعوب والدول بعضها إلى بعض، بالنار والحديد، وكانت قبضة الغازيِ تحطِّم الممالك الأضعف بمطرقة العنف لتشدَّها بالأغلال والسلاسل إلى الدول الأقوى ولكن مع إراسموس – وهذا فرق حاسم – تبدو أوروبا في صورة فكرة أخلاقية، أو مطلب فكري بعيد عن الأنانية بُعداً كاملاً. فبه تبدأ تلك المصادرة التي لمّا تتحقق حتى اليوم، والمتعلِّقة بالولايات المتحدة الأوروبية باسم الثقافة المشتركة، والحضارة المشتركة.

أما الشرط المسبق، البدهي عند إراسموس، رائد الكفاح في سبيل فكرة التفاهم هذه، ومعها كل الأفكار الأخرى، فهو استبعاد كل عنف، ولاسيما إلغاء الحرب، هذه التي تنطوي على «إخفاق كل ما هوخير طيِّب» ويجب النظر إلى إراسموس على أنه المُنَظِّر الأدبي الأول لنزعة السلام، وقد كتب ما لا يقل عن خمسة كتب في حقبة سادت فيها الحروب المتواصلة، ضد الحرب: ففي عام ١٥٠٤ كانت مطالبة فيليب الجميل، وفي عام ١٥١٤ كانت تلك المطالب الموجهة إلى أسقف كمبراي: «الرجاء أن تتفضلوا بقبول السلام وأنتم الأمراء المسيحيون بحق المسيح» وفي عام ١٥١٥، كانت في كتاب الأقوال المأثورة (Adagia)، في المقال الشهير ذي العنوان الذي يظل صحيحاً إلى الأبد: (لاتبدو الحرب جميلة إلاّ في عين أولئك الذين لم يجرِّبوها). وفي عام ١٥١٦ يتحدث في مقالته «توجيه أمير مسيحيّ من أهل التقوى» مذكِّراً الامبراطور الشاب، شارل الخامس وأخيراً تظهر في عام ١٥١٧، مرثية السلام (Querela pacis) التي تَلَقّى اللوم من جانب كل الأمم والشعوب في أوربا، وتُطْرَد، ويتم إسقاطها».

ولكن منذ تلك الأيام، أي قبل نحو نصف ألفية من زماننا هذا،يعرف إراسموس مقدار قلة إمكانية اعتماد صديق السلام الفصيح على الشكر والموافقة «لقد وصل بنا الحال إلى أنه بات يعد من السلوك البهيمّي، والباعث للسخرية، والمنافي للمسيحية،

أن يتفوّه المرء بكلمة ضد الحرب»، غير أن هذا لا يمنعه من استهلال هجماته بتصميم متكرر أبداً، في عصر قانون قبضة الملاكمة وفي ظل أشد أعمال العنف خشونة، على الولَع بالقتال عند الأمراء، وهو يرى أن شيشرون على حق حين يقول «إن السلام غير العادل أفضل من أكثر الحروب عدالة وإنصافاً»، وكان المجادل الوحيد يتصدى للحرب بترسانة كاملة من الحجج التي مازال في وسع المرء أن يغترف منها الكثير حتى اليوم، وكان يشكو قائلاً: (عندما تُغير الحيوانات بعضُها على بعض فأنا أفهم ذلك وأغفر لها جهلها، ولكن لابُدَّ للبشر أن يدركوا أن الحرب في حد ذاتها تعني الظلم بالضرورة، لأنها لا تمسُّ في العادة أولئك الذين يؤجَّجون نارها ويقودونها، بل يقع عبؤها الكامل على الدوام تقريباً، على الأبرياء، على الشعب المسكين الذي ليس أمامه ما يكسبه، لا من الانتصارات، ولامن الهزائم. «القسم الأعظم يبلغ أولئك الذين لاتعنيهم الحرب على الإطلاق، وحتى حين تنجح الحرب على أفضل وجه ممكن، فلا بُدَّ أن سعادة شطر من الناس تنعكس ضرراً وهلاكاً للآخرين ففكرة الحرب. فيما يقول لايمكن ربطها أبداً بفكرة العدالة، ويتساءل قائلاً: ثم كيف يكون من الممكن أن تكون الحرب عادلة على وجه الإطلاق؟ فبالقياس إلى إراسموس، لايوجد لا في مضمار اللاهوت، ولا في الميدان الفلسفيّ، حقيقة مطلقة، قائمة بذاتها:

فالحقيقة بالنسبة إليه تكون على الدوام ملتبسة، تتلوّن بالكثير من الألوان، وكذلك الحق، ولذلك ينبغي للأمير أن لايكون متروّياً في مكان أكثر من تَرَوّيه في التحرّك باتجاه الحرب، وأن لايُلحِف بالضرورة على حقه، وإلاّ فمن تراه لايرى قضيّته هي العدالة ؟» ولكل حق وجهان والأشياء «ملوّنة» فيما يقول، بطلاء معين، تتعرض للفساد بفعل الأحزاب، وحتى حين يبدو المرء في نظر نفسه أنه على الحق، فإن الحق لايُفصَل فيه بالقوة، كما لايتمُّ الفراغ منه أبداً عن طريق القوة، لأن الحرب، فيما يقول، تنجم عن الحرب الأخرى من جانبين».

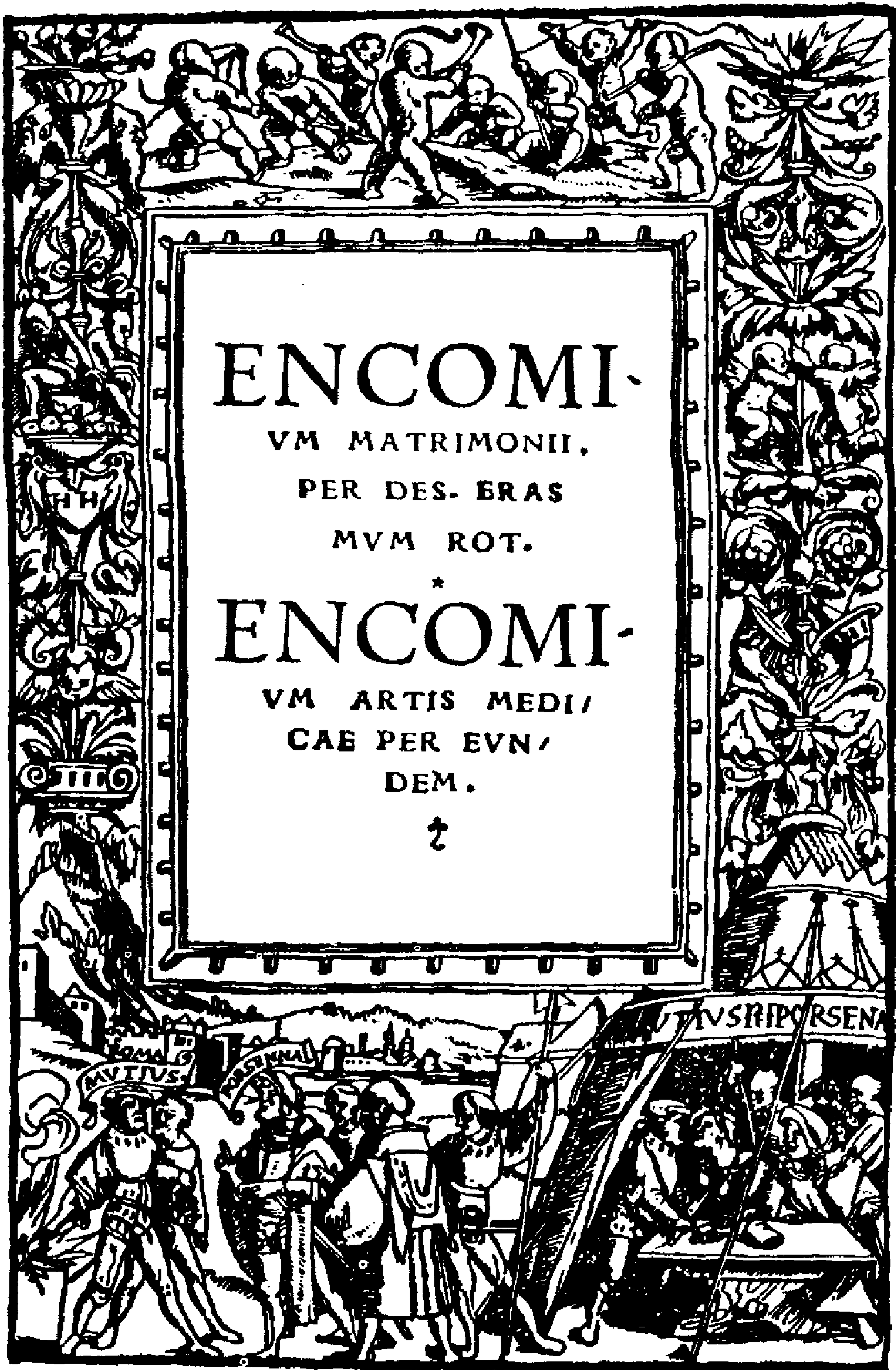
وإذاً فالحسم عن طريق السلاح لا يعني، بالقياس إلى أهل الفكر، حلاً أخلاقياً لنزاعٍ ما، ويعلن إراسموس بصريح العبارة، أنه لا يكون لِزاماً على رجال الفكر والمثقفين في كل الأمم أن يعلنوا قطع أواصر صداقاتهم في حالة الحرب، ولا يجوز أن يتمثل موقفهم أبداً في تدعيم التناقضات في الآراء، والتناقضات بين الشعوب، والأعراق والطبقات بالاجتهاد في التحزُّب والانحياز، بل يترتب عليهم أن يظلوا في جَوّ الإنسانية الصّرف والعدالة البحتة، لا يتزحزحون عنه وتظل رسالتهم الخالدة تتمثل في أن يضعوا في مقابل عبثية الحرب «غير المقبولة، والمنافية للمسيحية، والجامحة إلى درجة البهيمية، فكرة القواسم المشتركة بين أطراف العالم كله والمسيحية العالمية ومن أجل ذلك فما من

شيء يأخذه إراسمو» على الكنيسة، بحكم كونها المرجع الأخلاقي الأعلى، بعنف أكبر مما يكون حين يأخذ عليها أنها ضحَّت بالفكرة الأوغسطينية العظيمة، المتعلِّقة بـــ«السلام العالمي المسيحي» من أجل زيادة سلطانها على الأرض، ويصرخ قائلاً في غضب: « إن لاهوتييّ الحياة المسيحية وأساتذتها لا يتولاّهم الخجل من أن يكونوا المُسعِّرين الرئيسيين، والموقدين والمحركين، للقضية التي كان السيد المسيح يكرهها أيَّما كراهية، ويمقتها» ثم يقول: «وكيف تجتمع عصا الأسقف والسيف معاً، وقبعة الأسقف والخوذة، والإنجيل والدرع؟ وكيف يستقيم في العقل أن يعظ المرء داعياً إلى المسيح، وإلى الحرب، وأن يغني، بمزمار واحد لله وللشيطان؟» وعلى هذا فرجل الدين المحارب» ليس إلاّ نقيضاً لكلمة الله، لأنه يَجحَد الرسالة الأعلى التي عَهِدَ إليه بها سيده ومعلِّمه، حين قال: «فليكن السلام معكم!».

وكان إراسموس تستحوذ عليه العاطفة الجامحة كلما رفع عقيرته ضد الحرب والكراهية ومحدودية الأفق المبنية على أحادية الجانب، ولكن حرارة العاطفة هذه الناجمة عن تذمُّره لا تؤدي أبداً إلى تشويش وضوح نظرته إلى العالم. ولمّا كان إراسموس في الوقت نفسه مثالياً مثاليةً نابعة من قلبه، ومتشكّكاً بالرجوع إلى عقله، فقد كان يعي أشكال المقاومة التي كانت تتصدى في مضمار الواقع لتحقيق ذلك «السلام العالمي المسيحي» أي انفراد العقل البشري

بالسلطة. على أن الرجل الذي وصف كتابه «الثناء على الحماقة» كل أنواع العبث التي ينطوي عليها الجنون البشريّ، في انعدام إمكان تقبلها لم يكن من أولئك الحالمين المثاليين الذين يحسَبون أن في وسع المرء أن يقضي، بالكلمة المكتوبة، وبالكتب، والمواعظ، والمقالات، على دافع العنف المُلازِم للطبيعةِ البشرية، أو حتى مجرد تخديره. ولم يكن يخدع نفسه عن حقيقة أن هذا الولع بالقوة، والسرور بالقتل يختمران في الدم البشري منذ أيام أكلة لحوم البشر، منذ مئات السنين وآلاف السنين في تذكرٌ غامض للكراهية العريقة المتأصلة، بين الحيوان البشري السالف، والحيوان البشري الآخر، وأنْ سوف تمسُّ الحاجة أيضاً إلى قرون وربما إلى آلاف السنين من التربية الأخلاقية، والصياغة الثقافية التي ترتقي بالإنسان إلى الأعلى من أجل التجريد الكامل للجنس البشري من الصفة الوحشية، وأَنْسَنَتِه. وكان يعرف أن الغرائز الأولية لا يمكن التخلُّص منها بمجرد الكلام والثرثرة بالكلمات الرقيقة والأخلاقية، وكان يتحمل الجانب البربري في هذا العالم على أنه من المعطيات القائمة، التي لا سبيل إلى التغلُّب عليها في البداية ومن أجل ذلك كان يخوض كفاحه الحقيقي في ميدان آخر، ولم يكن يستطيع، بحكم كونه من أهل الفكر، أن يتوجه على الدوام إلاّ إلى رجال الفكر ولم يكن يتوجه إلى المنقادين والواقعين في شَرَك الإغواء، بل إلى القادة، وإلى الأمراء، وإلى الكهنة والمثقفين، والفنانين، إلى أولئك الذين كان يعرف أنهم

المسؤولون، وأثار في وجه كلٍ واحد من هؤلاء شَغَباً عليه في العالم الأوربي، وكان قد أدرك، منذ عهد بعيد، بحكم كونه مفكرٍاً بعيد النظر، أن الدافع إلى العنف مازال لايشكل خطراً على العالم، فالعنف وحده قصير النفس، فهو يخبط خبط عشواء كالمسعور، ولكن لمّا كانت إرادته تفتقر إلى الهدف، كما أنه قصير النظر في تفكيره، فهو ينهار بعد أمثال هذه الحالات من انفلات عنانه، عاجزاً، منكفئاً على نفسه وحتى حين يحدث أثراً كأثر العدوى، ويستثير فئات بأسرها، عن طريق الذُهان، سيكون هؤلاء مجرد عصابات عديمة التربية سرعان ما تتلاشى وتضمحل بمجرد أن ينتاب البرودُ الحرارة الأولى، ولم يحدث قطُّ، على مرّ التاريخ أَنْ شَكّلت ثورات وحالات انفلات من العنان، من دون قيادة فكرية، خطراً على نظام حقيقي. ولا تنشأ القلاقل الحقيقية والثورات الدموية المدمرة إلا عندما يكون العنف في خدمة فكرة ما، أو تستخدمه فكرة ما، ذلك لأن العصابة لا تتحول إلى حزب إلاّ عن طريق شعارٍ ما ، وعن طريق التنظيم الذي يحوّلها إلى جيش، وعن طريق عقيدة من أجل الحركة. وكل الصراعات الكبرى المتسمة بالعنف، في تاريخ البشرية لا تكون مدانة بإرادة العنف المرتبطة بالدم حيال البشر، بمقدار ما تكون مدانـــة بإيديولوجية تطلق إرادة العنف هذه من عقالها، وتدفعها نحو جزء آخر من البشرية محدّد بصورة مسبقة ويكون التعصُّب، هذا النَّغْل المكوَّن من الفكر والعنف الذي يريد أن يفرض دكتاتورية فكرة واحدة، هي



ENCOMI- VM MATRIMONII. PER DES. ERAS MVM ROT.

ENCOMI- VM ARTIS MEDI- CAE PER EVN- DEM.

فكرته في الحقيقة، على أنها القالب الاعتقادي الوحيد المسموح به، على العالم بأسره، أوّل من يُقسِّم مجتمع البشر إلى أعداء أوأصدقاء، وإلى أتباع أو خصوم، وإلى أبطال أو مجرمين، وإلى مؤمنين أو هراطقة، ولأنه لا يعترف إلاّ بنظامه، ولا يريد أن يسلِّم بالصِحّة إلا لحقيقته، يُضطَرُّ إلى اللجوء إلى العنف ليقمع كل حقيقة أخرى، ضمن تعدُّدية الظاهرات التي شاء الله أن تكون، وكل أشكال التقييد المتسمة بالعنف، لحرية الفكر، من محاكم التفتيش والرقابة، والمَحْرَقات، وسَقّالات الإعدام، لم تبتدعها القوة العمياء، بل أبدعها التعصب ذو النظرة العنيدة الصارمة، هذا الملاك الحارس لأُحادية الجانب، والعدُو اللدود للعالمية، بل هذا الذي بات أسيراً لفكرة واحدة يحاول، في سجنه هذا، أن يمزِّق أوصال العالم كله ويقيم دونه الحواجز.

ومن أجل ذلك يمكن، بالقياس إلى الإنساني إراسموس، الذي يشير دائماً إلى القاسم المشترك الشامل بين البشرية، بحكم كونه أعزَّ ما تملك وأَقْدَسَه، وهو الجانب الفكري، تحميل هذا القاسم المشترك الشامل عبء جريرة أكبر مما لو منح إرادة الجماهير المستعدة أبداً للنشاط القائم على العنف، الذريعة الحاسمة من خلال إيديولوجية أحادية الجانب. لأنه يستفزُّ بذلك قوى أولية عريقة في القِدَم تكتسح فكرتها الأصلية وتجرفها بجموحها، وتدمِّر أنقى مقاصدها وفي وسع الفرد أن يطلق عنان الجماهير في إطار العواطف الجامحة، غير أنه لا يكاد يتاح له أبداً أن يكبح جماح هذه العاطفة التي أفلتت من عنانها،

ومَنْ يَنفُثْ كلمته في لَهَب خافت متطامنٍ، فلا بُدَّ له أن يعي أن ثمة لساناً من اللهب سوف ينبثق إلى الأعلى مدمِّراً، ومن يَستَثِرْ ثائرة التعصب بإعلانه أن ثمة نظاماً فرداً للحياة، وللتفكير، وللاعتقاد، هو الذي يسري مفعوله، فلا بد له أن يدرك المسؤولية المترتبة على مناداته، بذلك، إلى انشقاق العالم، وإلى إعلان الحرب الفكرية أو الحرب الفعلية على كل طراز آخر من طُرُز التفكير والحياة، فكل طغيان ناجم عن فكرةٍ ما يعد بمثابة إعلان حرب على الحرية الفكرية للبشرية، ومَنْ كان يبحث، مثل إراسموس، عن التركيب الأعلى الذي يشمل كل الأفكار أيْ عن انسجام يشمل البشرية جمعاء، فلابُدّ له، من أجل ذلك، أن ينظر إلى شكل من أشكال أحادية الجانب في التفكير، ورفض الفهم المبنيّ على أشد أشكال العمى، على أنه عدوان على فكرته الخاصة بالتفاهم. ولذلك لا يجوز للإنسان الذي رُبِّي على النزعة الإنسانية واكتسب العقلية الإنسانية، بمعناها الوارد عند إراسموس، أن يكرِّس جهوده لإيديولوجية معينة يلتزم بها، لأن كل الأفكار تطمح إلى الهيمنة على ما عداها بموجب طبيعتها. ويترتّب عليه أن لا يرتبط بحزب، لأن من واجب كل إنسان حزبّي أن يرى الأشياء بمنظار حزبه، ويحسّ بها ويفكر فيها كما يحس الحزب ويفكِّر. ويترتَّب عليه المحافظة على حرية تفكيره وتصرُّفه في كل مناسبة، لأن العدالة لا تكون ممكنة من دون الحرية، فالحرية هي الفكرة الوحيدة التي ينبغي لها أن تكون مثلاً أعلى مشتركاً للبشرية

جمعاء، ولذلك فالتفكير بالأسلوب الإراسميّ يعني أن يفكر المرء تفكيراً مستقلاً، وأن يحدث تأثيره بالطريقة الإراسمية، بمعنى التفاهم وليس على الإراسمِيّ، المؤمن بالبشرية، أن ينمّي الجانب الذي يَفصل ويفرّق، داخل محيط حياته، بل ينمّيَ ما يربط ويجمع، ويترتب عليه أنْ لا يَشُدَّ أزر أحاديي الجاني في أحاديَّتهم وأن لا يَشُدَّ أزر المُعادين في نزعتهم العدائية، بل عليه أن ينشر الفهم ويشق الطريق إلى التفاهم، وكلما ازدادت الحقبة جنوحاً إلى التعصب في تحيُّزها وتحزُّبها، كان عليه أن يزداد عزماً وتصميماً على الثبات على عدم الانحياز والتحزُّب، وهو الموقف الذي ينظر إلى القاسم المشترك بين البشر في كل هذه المتاهات وأشكال الاختلاط والتشوُّش، فيكون محامياً نزيهاً عن حرية الفكر والعدالة، في كل أرجاء المعمورة. ولذلك فإراسموس يقرُّ لكل فكرة بحقها، ولا يُقِرُّ لفكرة بالحق في أن تكون هي وحدها على الحق. وكان، وهو الذي حاول فهم الحماقة ذاتها، كما حاول أن يشيد بها، لا يتصدى لأية نظرية أو أطروحة، منذ البداية، تَصَدِّيَ المُعادي لها، ولكلٍ منها على الفور، ما دامت تريد أن تستحوذ على الآخرين بالعنف. فالإنساني، بحكم كونه ذلك الذي يعرف الكثير، يحب العالم من أجل تعدُّديته على وجه الخصوص، ولا تفزعه تناقضاتها، وما من شيء هو أبعد عن ذهنه من النزوع إلى إزالة تناقضاتها، على طريقة المتعصب وصاحب منظومة الأفكار الثابتة (Systmatiker) الذي يحاول أن يَرُدَّ كل القِيَم إلى مقام

(أو مَخْرَج) واحد، وأن يسلُك كل الأزهار في إطار شكل ولون واحد، وذلك أن هذا يعد سِمة من سمات الفكر الإنسانّي، وهو أن لايُقيِّم المرء التناقضات على أنها عداوات، وأن يلتمس لكل ما لا يمكن الجمع بين أطرافه من حيث الظاهر، الوحدة التي تعلو عليه، أي الوحدة الإنسانية.
ولمّا كان إراسموس يعرف كيف يوفِّق بين العناصر التي تكون في العادة متعادية متجافية على نحو صارخ، من قبيل المسيحية والعصر القديم، وحرية الاعتقاد واللاهوت، وعصر النهضة والإصلاح الدينيّ، فلا بُدَّ أنه كان يبدو له أن مما هو جدير بالتصديق أن تستبدل البشرية كلها، ذات مرة بتناقضاتِها، التعددية في ظاهراتها، في تعاون وانسجام باعث للسعادة، فتُحَوِّل تناقضاتِها إلى انسجام على المستوى الأعلى، وهذا التفاهم العالمي الأخير، الأوروبي، الفكري، يشكل، في الحقيقة، عنصر الاعتقاد الديني الوحيد في الحركة الإنسانية التي تُعَدُّ ، فيما عدا هذا، أقرب إلى البرود والنزعة العقلانية. وبحرارة العاطفة ذاتها، التي أعلن بها الآخرون، في هذا القرن المظلم، إيمانهم بالله، يعلن هو رسالة إيمانه البشرية، وهي أن مغزى العالم، وهدفه ومستقبله، يتمثَّلن في أن يعيش قواسمه المشتركة بدلاً من أن يعيش أشكال أحادية الجانب فيه، وأن يزداد، من جراء ذلك إنسانية، وبَشَرِيّة، على نحو مطرد.

ومن أجل التربية على المبادئ الإنسانية لا تعرف الحركة الإنسانية إلا طريقاً واحداً، هو طريق الثقافة، ويقصد إراسموس والإراسميون أن يقولوا إن الجانب الإنسانيّ في الإنسان لا يمكن

تصعيده إلا عن طريق الثقافة والكتاب، لأن غير المثقف الذي لم يتعلَّم، هو وحده الذي يتفانى في الاستسلام لأهوائه وعواطفه، من دون أن يحسب حساباً لشيء ويقولون إن الإنسان المثقف، المتحضِّر - وهنا يكمن الاستنتاج المأساوي الخاطئ في تفكيرهم - لايعود مؤهَّلاً لاستعمال العنف الفظّ، ولو كانت للمثقفين، المهذَّبين، المتحضِّرين، اليد العليا، لكان لابُدَّ لجانب العمَاء والفوضى، والجانب البهيمي الوحشي أن يضمحل من تلقاء ذاته، وأن تتحوَّل الحروب وعمليات الاضطهاد بسبب الفكر إلى أمور ولىّ زمانها، وما عاد هذا الزمان زمانها الصحيح، وفي غمرة تقديرهم للجانب الحضاري فوق قدره، يسيء الإنسانيون فهم القوى الأصلية العائدة لعالم الغريزة بما ينطوي عليه من عنف لا سبيل إلى كبح جماحه، ويبتذلون بتفاؤلهم المبنّي على الحضارة، المشكلة الرهيبة التي لا يكاد يمكن حلُّها والخاصة بالكراهية القائمة بين الجماهير وذُهانات البشرية الكبرى المرتبطة بالأهواء والعواطف الجامحة، ويعد حسابهم مفرطاً في البساطة إلى حدٍّ ما: فبالقياس إليهم هناك طبقتان، طبقة أدنى وطبقة أعلى، أما الطبقة الأدنى فهي طبقة الجمهور الفظ، غير المتحضِّر، ذي العواطف والأهواء، وفي الأعلى القطاع الصافي، قطاع المثقفين، ذوي الفهم، والإنسانيين المتحضرين، ويبدو لهم أن العمل الرئيسي قد تَمَّ إنجازه والفراغ منه عندما يصيبون نجاحاً في اجتذاب أجزاء مطّردة الزيادة من الطبقات الدنيا، أي من غير المتحضرين، إلى

الطبقة الأعلى، طبقة الثقافة والحضارة. ومثلما تَمَّ، في أوربا، استصلاح مساحات مطَّردة الزيادة من الأراضي البور التي كانت ترتع فيها الوحوش الضواري من قبلُ بجموحها وخطرها، فلا بد أن ينجح الناس، فيما، يقولون، شيئاً فشيئاً، وفي المضمار البشري أيضاً، في اجتثاث اللا عقل، والفظاظة في أصقاعنا الأوربية، وتأمين منطقة حرة، خالية ممّا يكدِّر الصفو، ومثمرة، للبشرية. وهكذا يوردون، بدلاً من الفكرة الدينية، فكرة الارتقاء البشرية الذي لايمكن وقفهُ. على أن فكرة التقدم، التي تتحول، قبل أن تصبح منهجاً علمياً عن طريق داروين، بزمن طويل، من جرائهم إلى مثل أعلى أخلاقي: وعليه يقوم القرنان، الثامن عشر والتاسع عشر، وقد أصبحت الأفكار الإراسمية هي المبادئ الرئيسية في نظام المجتمع الحديث. ومع ذلك فلن يكون ثمة شيء أكثر خطأً وضلالاً من أن يرى المرء في الحركة الإنسانية، وحتى في إراسموس، ديمقراطياً، ورائداً للّيبرالية. فإراسموس ورهطه لا يفكرون لحظة في الإقرار للشعب، الشعب غير المثقف، والقاصر – وبالقياس إليهم يُعَدُّ كل غير مثقف قاصراً – حتى بأدنى الحقوق وأهونها، وعلى الرغم من أنهم يحبون في الحقيقة، البشرية جمعاء من الوجهة التجريدية النظرية، فإنهم يحاذرون كثيراً أن يضعوا أنفسهم على صعيد واحد مع الغوغاء الأدنياء (profanum vulgus) فإذا نظر المرء عن كثب فقد حلَّ عندهم، بدلاً من كبرياء النبلاء القديمة كبرياء أخرى

جديدة فحسب، تتمثل في مبالغتهم الكبيرة في تقدير أنفسهم فوق قدرها بالاستناد إلى مكانتهم الأكاديمية وهي التي ظلت تواصل إحداث أثرها بعد ذلك على مدى ثلاثة قرون، وهي الكبرياء التي لا تعترف إلاّ لإنسان اللغة اللاتينية، المثقف الجامعي، بالحق في الفصل فيما هوحق أوباطل، أو فيما هو أخلاقي أو لا أخلاقي، على أن الإنسانيين عقدوا العزم، أيضاً، على أن يحكموا العالم باسم العقل، مثلما يحكمه الأمراء باسم السلطة، أو القوة، ومثلما تحكمه الكنيسة باسم المسيح، وكان حلمهم يهدف إلى حكم الأقلية (الأوليغاركية)، وهي سيادة ارستقراطية الثقافة، إذ لا ينبغي أن يمسك بزمام قيادة الدولة، بالمعنى الوارد عند الإغريق إلاّ أفضل الناس قاطبة، وهم أكثر الناس ثقافة وتهذيباً، إذ يشعر هؤلاء، بفضل معرفتهم المتفوّقة، ونظرتهم الأكثر وضوحاً وإشراقاً، أنهم وحدهم المندوبون للتدخل بين الأمم في أشكال النزاع التي تبدو لهم سخيفة تدل على التخلُف، غير أنهم لا يريدون الوصول إلى إصلاح الأحوال بالاستعانة بالشعب، على الإطلاق، بل يريدون ذلك في تجاوز للجماهير ومِنْ ذلك أن الإنسانيين لا يطرحون، في أساسهم الأعمق إلغاءَ للفروسية بل يعرضون تجديداً لها في قالب فكري، وهم يأملون أن يغزوا العالم بأقلامهم مثلما غزاه الفرسان بسيوفهم، وعلى غير وعيٍ منهم يبتدعون لأنفسهم، مثلما ابتدع أولئك (الفرسان) تقليداً اجتماعياً خاصاً بهم يتميز عن التقليد الخاص

بالبرابرة وهو نوع من المراسم الخاصة بالبلاط. وهم يضفون صفة النبالة على أسمائهم حين يترجمونها إلى اللاتينية، ليحجبوا بذلك انتماءهم إلى الشعب، فهم يَتَسَمَّوْن باسم ميلانكتون بدلاً من شفارتْسِرْد، وميكونيوس بدلاً من غايْسْهوزْلَر، وأوليرياريوس، بدلاً من أولْشليغَر، وشيترايوس بدلاً من كوخهافه، وكوخلييوس بدلاً من دوبنيله، ويرتدون ثيابهم بعناية خاصة، ثياباً سوداً كثيرة الثنيات، فضفاضة، لِيَنْأَوْا بأنفسهم عن أهل المدينة الآخرين حتى في مظهرهم الخارجي وهم خليقون أن يَعُدّوا من قبيل الإهانة والحَطِّ من شأنهم، أن يكتبوا كتاباً أو رسالة بلغتهم الأم وحين استشاط فارس غضباً، أراد القوم أن يحملوه على المشي مع عامة المشاة بدلاً من أن يتقدمهم على صهوة جواده، وكل فرد يشعر أنه ملتزم، من جراء المثل الأعلى الثقافي المشترك، بموقف نبيل على وجه الخصوص، في التعامل مع الناس، فهم يتجنّبون الكلمات العنيفة، ويحرصون على تهذيب أهل المدينة، في عصر الخشونة والجلافة بحكم كون ذلك التزاماً خصوصياً. وكان ارستقراطيّو الفكر هؤلاء يعملون جاهدين في سبيل نبالة التفكير والتعبير، وهكذا ينعكس بعدُ بريق أخير للفروسية المحتضَرة، التي ترقد في مثواها الأخير مع الأمبراطور مكسيميليان في نظام رهبنة الفكر هذا الذي يتخذ من الكتاب، بدلاً من الصليب، لواءً. ومثلما يسقط الفرسان النبلاء أمام قوة المدافع الفظّة التي تلفظ الحديد، سوف يسقط هذا الرهط المثالي

النبيل في مواجهة الصدمة ذات العنفوان المتميّزة بقوة كقوة الفلاحين الناجمة عن ثورة رجل مثل لوثر، أو تسفينغلي، عاجزاً، لاحول له، في الجمال: ذلك لأن هذه اللامبالاة بالشعب على وجه الخصوص، وهذه اللامبالاة بالواقع سلبت، بصورة مسبقة، مملكة إراسموس كل إمكانية من إمكانيات الاستمرار والبقاء، كما سلبت أفكاره القوة ذات التأثير المباشر. لقد كان الخطأ الأساسي العضوي، في الحركة الإنسانية، أنها كانت تريد أن تُعَلِّم الشعب بأن تتنزَّل عليه من عليائها، بدلاً من أن تحاول أن تفهمه وتتعلَّم منه، وكان هؤلاء المثاليون الأكاديميون يعتقدون أنهم باتوا يحكمون لأن مملكتهم كانت تمتد على مسافات شاسعة، وكان لهم في كل البلدان، وفي قصور الملوك، والجامعات، والأديرة والكنائس، خدمهم ومبعوثوهم، وموفدوهم، الذي كانوا يبلغون، مزهُوّين عن خطوات تقدُّم «التعليم» و«البلاغة» في مناطق كانت بربرية حتى الآن. ولكن هذه الدولة لم تكن تشتمل، في أعمق الأعماق، إلاّ على طبقة رقيقة سطحية، وكانت الجذور التي تربطها بالواقع ضعيفة، وعندما كانت الرسائل من بولونيا وبوهيميا، ومن المجر والبرتغال، تأتي، في كل يوم، برسالة إراسموس المتحمسة، وعندما كان الأباطرة والملوك، والبابوات من كل بلدان الأسياد يَخطِبون ودّه، كان من الممكن أن يكون إراسموس قابعاً في حجرة دراسته، مستسلماً للوهم الذي يلقي في رُوعه أن مملكة العقل قد تأسست على الدوام، ولكن كان يتناهى

إليه، من وراء هذه الرسائل اللاتينية، صمت الجمهور العريض، جمهور الملايين، كما كان يتناهى إليه التذمُّر والتبرُّم الذي كان صوته يزداد ارتفاعاً على نحو مطّرد، ويدوّي مُرْعِداً من أعماقٍ لا يُسبَر غَوْرها. ولأن الشعب لم يكن له وجود بالقياس إليه، ولأنه كان يرى أنَّ من غير المستحب، ومن غير اللائق بإنسان مثقف، أن يخطب وُدَّ الجماهير، ويسترسل في علاقة مع غير المثقفين، أو البرابرة، على وجه الإطلاق، كانت الحركة الإنسانية ليس لها وجود إلاّ بالنسبة للقلائل من السعداء، ولم يكن لها وجود بالنسبة للشعب، وظلت مملكته الإنسانية الأفلاطونية، في النهاية، مملكةً قائمة في السحب، أضاءت العالم كله ساعة من الزمان، رائعة إذ ينظر المرء إليها، تركيباً محضاً في الفكر المبدع، تُطِلّ من عليائها على العالم الذي يغشاه الظلام – ولكن هذا التركيب البارد المصطنع لن يصمد لعاصفة حقيقة – باتت توشك أن تتكوَّر في الظلام – وسوف يتولاه الفناء بغير قتال.

ذلك لأن هذه كانت مأساة الحركة الإنسانية الأعمق على الإطلاق وكانت علة انحطاطها السريع: كانت أفكارها عظيمة، ولكن لم يكن بالعظماء أولئك البشر الذين أعلنوها. ويَعْلق قَدْرٌ جِدُّ ضئيلٍ من السمة المضحكة بهذا المثالي، حبيس الحجرة، مثلما يَعْلَق دائماً بمصلحي العالم الأكاديميين، على أنهم جميعاً نفوس قليلة العطاء، حسنة المقاصد، شريفة كما أنهم على شيء من التحذلق، يحملون

أسماءهم اللاتينية كأنما هي أقنعة تنكُّر فكرية: فثمة حذلقة كحذلقة معلمي المدارس تنثر غبارها، عندهم، على أكثر الأفكار ازدهاراً وإن رفاق إراسموس، هؤلاء الصغار ليؤثرون في النفوس في سذاجتهم الأستاذية، إذ يماثلون، إلى حَدٍّ ما الإنسان الطيب، والذين يراهم المرء اليوم أيضاً متجمعين في الاتحادات الخيرية واتحادات إصلاح العالم، مثاليين نظريين، يؤمنون بالتقدم إيمان المرء بدينٍ من الأديان، حالمين، في حالة صَحْوٍ، يُركِّبون على قماطر كتابتهم، عالماً أخلاقياً، ويدوِّنون أطروحات السلام الخالد، على حين تتعاقب الحروب، واحدة بعد الأخرى، في عالم الحقيقة، ويعمد البابوات، والأباطرة، والأمراء، أنفسهم، الذين يولون أفكارهم بصدد التفاهمِ الاستحسان، متحمسين، في الوقت ذاته إلى إبرام المعاهدات، بعضهم مع بعض، وبعضهم ضد بعض، ويشعلون الحريق في العالم، فإذا عُثِر على مخطوط جديد لشيشرون اعتقد الرهط من ذوي النزعة الإنسانية أن الكون لابُدَّ أن تدوّيَ مفاصله بالرعد من وقع هتاف الاستحسان، وكل كُتَيِّب ضئيل يبعث فيهم النار وحُمَيّا العاطفة، أمّا ما يحرك الناس في الحَواريّ والأزقة، وما يسود في الأعماق السحيقة من صفوف الجماهير، فلا يعرفونه ولايريدون أن يعرفوه، ولأنهم يظلون تابعين في حجراتهم الموصَدة عليهم، تفقِد كلمتهم ذات المقصد الحسن كل صدى لها في الواقع، ومن جرّاء هذا الانعزال الذي ينطوي على طاقة، والافتقار إلى حرارة العاطفة،

والسمة الشعبية لم تصب الحركة الإنسانية قطُّ نجاحاً في إضفاء الجدوى الفعلية على أفكارها المثمرة، وأما نزعة التفاؤل الرائعة، التي كانت متضمنة في أساس نظريتهم فلم تتمكن من أن تَتَرَعرع على نحوٍ إبداعيّ وتتطور وتزدهر، إذ لم يكن يوجد بين هؤلاء المربين النظريين الذي يحملون الأفكار الإنسانية، أمرؤ واحد أوتِيَ القوة الطبيعية للكلمة، تلك القوة التي لاتلين قناتها ولا يتطرق إليها الوَهْن، ليبثّها نازِلاً بها إلى صفوف الشعب. ومِنْ شأن الفكرة العظيمة، المقدَّسة، أن ينتابها الجفاف على مدى القرون في وسط جيل واهن مستنفَدِ القوى.

ولكن ما من شك في أن هذه الساعة من تاريخ العالم، حين غَشَّت السحابةُ المقدَّسة، سحابةُ ثقةِ البشرية، بشعاعها الرقيق اللطيف، غير الدامي، ترابنا الأوروبي. بلألائها وتَألُّقها، كانت جميلة، ولئن كان تَوَهُّمُهم أن الشعوب باتت راضية قريرة العين موحَّدة في ظل الفكر، توهُّماً مُعْجَلاً يستبق الزمن، فمن الواجب علينا أن نوليه المهابة والامتنان. لقد كانت تمسُّ الحاجة، في العالم، دائماً إلى أناس يرفضون أن يعتقدوا أن التاريخ ليس إلاّ تكراراً للذات، بليداً، رتيباً، لعبة تتجدَّد كأنما بلا معنى، في ثوب متغيِّر، بل يثقون، فوق ذلك، ثقة السادر في وَهْمِه، بأن جيلنا يرتقي على سُلَّم للمراحل غير مرئي، من طور البهيمية إلى طور الألوهيّة، من العنف الوحشيّ إلى الفكر المُنَظَّم الحكيم، وأن أعلى مراحل التفاهم الكامل باتت قريبة،

بل أوشكت أن يوصَل إليها. لقد أبدع عصر النهضة والحركة الإنسانية مثل هذه اللحظة التفاؤلية المؤمنة بالعالم: فَلْنُحِبَّ، من أجل ذلك، هذا العصر ولْنُمَجِّد وهمَه المثمر. ذلك لأنه نشأت في تلك الأيام، لأول مرة، لجيلنا الأوروبي، الثقة بالذات التي تؤهلنا لأن نسبق كل الحقب السابقة، ونصوغ بشرية أعلى شأناً، وأَوْفَر حتى من اليونان وروما، حظاً من المعرفة والحكمة. على أن الواقع يبدو أنه يجعل الحق إلى جانب هؤلاء الأوائل الذين أعلنوا عن النزعة التفاؤلية الأوروبية. أوَلم تنشأ في تلك الأيام روائع فاقت كلَّ ما سبقها؟ أوَلم ينشأ، في دورَرْ وليوناردو، وزوكيس وأبيلليس جديدان (مصوِّران إغريقيان بين القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد) وفي ميكيل أنجلو فيدياس جديد؟ أوَلا ينتظم علم النجوم والعالم الأرضي في إطار قوانين واضحة جديدة؟ أولا يفضي المال المتدفق من البلدان الجديدة إلى ثروات لاتُقَدَّر، وهذا الغنى إلى فن جديد؟ ثم أوَلم يفلح فعل غوتنبِرْغ السحري الذي ينشر الآن الكلمة الإبداعية، المنتجة للثقافة، مضاعفةً آلاف المرات على وجه البسيطة؟ وهكذا يهتف«إراسموس وأتباعه مهلِّلين، قائلين: «كلا، ما عاد يمكن أن يمضي الكثير من الوقت قبل أن تضطر البشرية، التي علَّمتها طاقتها الخاصة الكثير إلى حد التبذير، وأوتِيَت منها الكثير الكثير، إلى إدراك رسالتها الأخلاقية، وهي مجرد أن لا تعيش في المستقبل إلا بمزيد من حياة الأخوّة، وأن تتصرف وَفْقاً لقواعد الأخلاق،

وتستأصل كل حالات التخلف المرتبطة بطبيعتها الوحشية، استئصالاً نهائياً. ومثلَ صدمة بوق تدوّي كلمة أولريش فون هُتّن في مسمَع العالم: (ألا إنه لمن الممتع أن نعيش) ويرى مواطنو أوروبا الجديدة، مؤمنين، نافدي الصبر، من وراء مسنّنات أسوار المملكة الإراسمية، شريطاً من النور يتألق عند أفق المستقبل يبدو أنه يعلن عن حلول أوان توطيد السلام العالميّ.

ولكنّ ما يغشى الأرض المدلَهِمّة ليس حمرة شفق الفجر المقدّسة: بل هو حريق النار الذي سيدمّر عالمهم المثاليّ، ومثلما اقتحم الجرمان روما الكلاسيكية، يقتحم لوثر إنسان الفعل المتعصّب، بقوّة الصدمة التي لاتُقاوَم، والناجمة عن حركة شعبية قومية، حلمها المثالي الذي يتخطى الحدود الفاصلة بين الأمم، وقبل أن تكون الحركة الإنسانية قد شرعت في عملها المتعلق بتوحيد العالم حقاً، يحطم الإصلاح الديني الوحدة الفكرية الأخيرة لأوروبا، المتمثلة في الكنيسة العالمية (ecclesia universalis)، بضربة مطرقة حديدية.

الخصم الكبير

ومن النادر أن تتقدم القوتان الحاسمتان، القدر والموت من البشر، من دون إنذار، ففي كل مرَّة يبعث كلٌ من هذين برسول خافت الصوت، غير أن محيَّاه يتلفَّع بشيء ما. ويتناهى إلى سمع المخاطب، على الدوام تقريباً، النداء الخفيّ. ويوجد بين رسائل التأييد والتبجيل التي لا تحصى، والتي كانت في تلك الأيام يفيض بها القِمَطْر، أيضاً، رسالة مؤرخة في الحادي عشر من كانون الأول ١٥١٦، من سبالاتينوس، أمير سرِّ أمير سكونيا الناخب، وفي وسط صيغ الإعجاب والأنباء الثقافية والفكرية، يتحدث سبالاتين، قائلاً إن ثمة راهباً شاباً في نظام رهبنة الأوغسطينيين، في مدينته، كان يقدر إراسموس إلى أقصى درجات التقدير، لايشاطره الرأي في مسألة الخطيئة الموروثة، وهو لايقرّ وجهة نظر أرسطو القائلة إن المرء يكون منصفاً حين يتصرف التصرف العادل، بل يعتقد، من جانبه أن المرء لايصل إلى الوضع الذي يمكِّن من التصرف الصحيح إلاّ بأن يكون منصِفاً، «فلا بُدَّ للمرء أولاً أن يتبدّل وبعدها فحسب تأتي أعماله».

وهذه الرسالة له تمثل بضعةً من تاريخ العالم. ذلك لأن الدكتور مارتن لوثر يوجه، أول مرة ولم يكن ذلك الراهب الأوغسطيني الذي كان ما يزال مغموراً، والذي لا يُذْكَر اسمه، رجلاً آخر سواه – إلى

الأستاذ الكبير، الكلمةَ، وكان اعتراضه يمسُّ، على نحو يلفت النظر، منذ الآن، المشكلة المركزية التي سيواجه في صددها، فيما بعد، هذان التابعان الكبيران المخلصان، في حركة الإصلاح الديني، كلٌ منهما الآخر. وبالطبع يقرأ إراسموس، في تلك الأيام، تلك السطور بشطر من انتباهه ، وأنّى للرجل الكثير الشواغل، الذي يخطب ودَّه العالم كله، أن يجد الوقت لمجادلة راهب ضئيل الشأن، مغفل الاسم، في مكان ما من إقليم سكونيا بأسلوب جدّي، في اللاهوت، ويمرُّ مرور الكرام، وهو يقرأ الرسالة، وهو لا يدري أن منعطفاً في حياته وفي العالم، قد بدأ في هذه الساعة، وكان حتى الآن يقف وحده، سيدَ أوربا، وأستاذَ النظرية الإنجيلية الجديدة. أما الآن فقد نهض المنافس الكبير قائماً، ونقر بإصبع نقرة بسيرة لا تكاد تُسْمع، بابَ بيته، وقلبه، مارتن لوثر الذي لمّا يُذْكرْ هنا باسمه، والذي سيسميه العالم عمّا قريب، وريث إراسموس وهازِمَه.

ولم يُعقِب هذا اللقاء الأول بين لوثر وإراسموس في مجال عالم الفكر، أبداً، وطوال حياتَيْهما، لقاء شخصي في المجال الأرضي، وقد ظل هذان الرجلان يتحاشى كلٌ منها الآخر، بدافع الغريزة منذ الساعة الأولى إلى الساعة الأخيرة، وهما اللذان كان يُحْتفى بهما في كتابات لا تحصى، وكانت صورتاهما توضعان إحداهما إلى الجانب الأخرى واسم كلٍ منهما إلى جانب اسم صاحبه، على أنهما المحرِّران من نير روما، وبحكم كونهما الإنجيليَّيْن الأوَّلَيْن الألمانيَّيْن، الفصيحين، معاً.

على أن التاريخ أضاع علينا بذلك تأثيراً دراميا كبيراً، فيالها من فرصة مضيَّعة، أن نتأمّل كلا المتنافسين الكبيرين، وعين كل منهما في عين الآخر، وجبهة كل منهما قبالة جبهة الآخر! وقلّما أخرج قَدَرُ العالم إنسانيين في حالة تضادّ كامل إلى هذا المدى، بأسلوب سيكولوجيا الشخصية، وبالصورة الجسدية، مثلما حدثَ في حالة إراسموس ولوثر، وذلك أنهما ينتميان، بلحمها دمهما، وبمعاييرهما وقالبهما، وبموقفهما الفكري وبتدبير معيشتهما، ابتداء من المظهر الجسدي، وحتى العصب الأعمق، كأنما إلى عرقين مختلفين من أعراق الشخصية مجبولين على العداء: التصالح في مقابل التعصب، والعقل في مقابل الهوى، والثقافة في مقابل القوة البدائية، والمواطنة العالمية في مقابل القومية، والتطوُّر في مقابل الثورة.

وهذا التقابل يتجلى حتى في الجسديّ تجلّياً حسِّياً: أما لوثر فابنُ عامل منجم، وسليل الفلاحين، سليم معافى، بل معافى فوق المستوى المألوف، واقع في مأزِق، يرتعد ويُعَدّ ممَّن يجب الحذَر منهم على وجه الخصوص، من جراء قوته المختزَنة، يتسم بالحيوية، وبكل الاستمتاع الخشِن بهذه الحيوية - إنه قطعة من الحياة ذات فخامة وأُبَّهة، مترعة إلى درجة الفيض، توشك أن تنفجر. إنه العنفوان والجموح، والشُموس في شعب بأسره، قد اجتمعن في طبيعة تتجاوز الحدود. وإذا رفع صوته أَرْعَدَ في لغته، أُرْعِنّ بأكمله، وكل كلمة لها مذاقها المستعذب، مملَّحة تمليحاً شديداً كخبز الفلاحين الأسمر

الطازج، وإن المرء ليحس بكل عناصر الطبيعة كامنة فيه، التراب برائحته ومصدره، وبسماده من البول والرَّوث - وتزحف هذه الخطبة النارية في مثل قوة العاصفة، جامحة شامسةً، مدمِّرة، على الأرض الألمانية. وإنما تكمن عبقرية لوثر بدرجة أكبر ألف مرة، في توقُّد ذهنه هذا الحسّي الكامل، مما تظهر فيَ نزوعه إلى التعقُّلية كما يظهر ذلك حين يتحدث بلغة الشعب. ولكن بقَدْرٍ هائل من الطاقة التصويرية يبرز من صفوف الجمهور، بتفكيره، من دون أن يشعر، ويصورٌ إرادته بدرجة من العاطفة المشبوبة يتم تصعيدها إلى مستوى قوة أقصى الدرجات. أمَّا شخصه فيمثل انبثاق كل ما هو ألماني، وكل غرائز الاحتجاج والتمرُّد الألمانية ونفاذَه في وعي العالم، وحين كانت الأمة تخوض في أفكاره وتناقش يدخل في تاريخ أمته، ويردُّ طاقته الأصلية الأولية إلى عنصرها.

وإذ انتقل المرء بنظره من كتلة لوثر الترابية المتينة المُحكَمة البنيان، ذات الجسد الخشن، والعظام الصلبة، والمفعمة بطاقة الحياة، من هذا الرجل الذي تبرز له من الجبهة المنخفضة بأسلوب المهدِّد المتوعِّد نتوءات الإرادة المكوَّرة التي تذكر بقرون موسى عند ميكيل أنجلو، وإذا انتقل المرء المحاذر بنظره من هذا الإنسان، إنسان اللحم والدم، إلى إراسموس، إنسان الفكر الذي يحاكي لونُه لونَ رَقٍّ الجلد، ذي البشرة الرقيقة، الهشّة، ونظر إلى كليهما نظرة موجَّهة إلى الجسد فحسب، عرفت العينُ قبل العقل: أنْ لن يكون من الممكن أن تكون

بين هذين الخصمين صداقة أوْ فهمٌ دائمان أبداً. ولما كان إراسموس يجنح دائماً إلى المرض، وينتابه الصقيع في ظل حجرته، ويظل أبداً متلفعاً بفرائه، ويظل صحةً متدنية أبداً، مثلما يظل لوثر يفيض بالصحة التي تُلِحُّ عليه حتى إنها لتكاد تؤلمه، فقد حَظِيَ إراسموس بالقليل القليل مما حظي منه ذلك بالكثير الكثير. ولم يكن لهذه الطبيعة الرقيقة ، بدّ أن تحافظ على حرارة دمها بالخمر البورغندية القوية، بينما كان لوثر يحتاج يومياً إلى «قدح بيرته الفيتّنبرغي القويّ» والتناقضات تتجلى بأوضح أشكالها فيما هو صغير ضئيل – ليخفف حمرة شرايينه المتورِّمة من فرط حرارتها في المساء وينتهي بها إلى نوم أسود جيد، وكان لوثر إذا تحدث أَرْعَدَ المنزلُ، وارتعدت الكنيسة، وترنّح العالم. ولكن حتى بين الأصدقاء، على المائدة، يستطيع أن يضحك ضحكة جيدة مُجلْجِلة، وكان يسره أن يرفع عقيرته، وهو المولع بالموسيقا، بعد اللاهوت، بنشيد بصوت السونور الرجولي. أما إراسموس فيتحدث مرة أخرى، بصوت واهِن رقيق كمصاب بعلّة في صدره، وكان يصقل الجمل صقلاً مصطنعاً ويستكملها ويُرْهِفُها في نقاط دقيقة، بينما كان الحديث يتدفق من ذاك وكان القلم يزحف عاصِفاً «مثل جواد فَقَد بصره». وكانت القوة تنبعث من شخص لوثر انبعاث الشيء من جوّه الذي نشأ فيه: فكان كل من يحيطون به، ميلانكتون، وسبالاتين، وحتى الأمراء يمسك بهم بطبيعته الرجولية السياديّة في نوع من التبعيّة التي يمكن استخدامها. وفي مقابل ذلك

كان سلطان إراسموس يتجلّى بأقوى مظاهره حيث يظل هو نفسه غير مرئيّ: في الكتابة، وفي الرسالة، أي في الكلمة المكتوبة، وهو لا يدين بالفضل في شيء لجسده الضئيل البائس، المهمَل، بل يدين بكل شيء لمجرد نزعته الفكرية الرفيعة، الواسعة النطاق التي تحيط بالعالم.

ولكن حتى النزعة الفكرية عند هذين ترجع أصولها إلى عرقَيْن مختلفين كل الاختلاف في عالم التفكير. أمّا إراسموس فلا ريب في أنه الأبعد نظراً، والأكثر معرفة، فما من شيء في الحياة يظل غريباً عنه، وكان عقله التجريدي يتغلغل من خلال كل الصدوع والشقوق في الأسرار، وهو يجلو بضوئه كل موضوع وكان للوثر، بدوره، أفق أضيق إلى ما لا نهاية له من أفق إراسموس غير أنه يتمتع بالمزيد من العمق، وكان عالمه أضيق، أضيق إلى حد لا يمكن تقديره، من الأفق الإراسميّ، غير أنه كان يعرف كيف يَهَبُ لكُلِ فكرة من أفكاره، ولكل قناعة من قناعاته، عنفوان شخصيته، وكان يجرف كل شيء إلى داخله، ويسخِّنه هناك، في دمه الأحمر، ويلقِّح كل فكرة بطاقة حيويته، ويملؤها بالتعصب، وكان لا يدع قطُّ شيئاً يفلت من يديه إذا ما أدركه ذات مرة وآمن به، وكان كل قول من أقواله ينمو مع كل كيانه ويكتسب من لَدُنْه قوة ديناميية هائلة، ولقد أعرب لوثر وإراسموس، في عشرات المرات، عن الأفكار ذاتها، ولكن ما كان يمارس عند إراسموس مجرد جاذبية فكرية لطيفة على أهل الفكر، يغدو مثيله عند لوثر أيضاً، بفضل أسلوبه الجارف على الفور،

شعارات، ونداءاً ميدانيّاً ومطلباً ملموساً محسوساً، وكان يضرب هذه المطالب بسوطه بغضب مثل ثعالب الكتاب المقدَّس إذ تضرب في الأرض تنشر فيها حرائقها، بحيث توقد نار ضمير البشرية بأسرها، وكل ما هو إراسميّ يهدف في النهاية إلى السكينة وتوطيد السلام في الفكر، على حين يهدف كل ما هو لوثري إلى التوتُّر العالي وإحداث هِزَّة في الوجدان، ومن أجل ذلك يكون إراسموس، الشكّاك، أقوى ما يكون حين يتحدث بأقصى قَدْرٍ من الصَّحْوة وبأقصى قَدْرٍ من الوضوح، أما لوثر، فهو مرة أخرى (Pater exstaticus) حيث ينبثق الغضب والكراهية من بين شفتيه بأقصى قدر من الجموح.

ولابُدَّ لمثل هذا التعارض والتضادّ أن يؤديا عضوياً إلى الخصومة، حتى في حالة تماثل هدف الكفاح. وفي البداية يريد لوثر وإراسموس الشيء ذاته، ولكن طبعَيْهما يريدان ذلك بأسلوبين متعارضين كل التعارض، بحيث يتحوّل هذا إلى تناقض في جوهما. وتنطلق المواقف العدائية من لوثر. وربما كان لوثر الأكثر تعصُّباً من بين كل مَنْ حملت الأرض من عباقرة البشر وكان الأكثر امتناعاً على التعليم والنصح، وامتناعاً على الملاينة والمطاوعة، ورفضاً للموادَعة. ولم يكن من الممكن أن يحتاج إلاّ إلى من يجارونه ويمالئونه من حوله، ليستخدمهم، وإلى من يعارضونه ليستوقِد نار غضبه بهم وليسحقهم. وبالنسبة إلى إراسموس، مرة أخرى، كان اللا تعصُّب قد تحول عنده إلى دين على وجه الخصوص. وكانت اللهجة الدكتاتورية عند لوثر

- مهما يكن ما يقوله، تَحُزُّ في نفسه حَزَّ السكّين الماكرة، وكان هذا الضرب بالقبضات المكوَّرة، والحديث بالفم الذي يُرْغي من حوله الزَّبَد أمراً لايطاق، ببساطة، من الناحية الجسدية، عند هذا الذي كان التفاهم بين مواطني العالم يعدُّ بالنسبة إليه هدفاً أعلى، وكان وثوق لوثر بنفسه (وهو الوثوق الذي كان هذا يسميه اليقين بالله) يبدو له في صورة التعاظم الذي يستفز المشاعر، ويكاد يكون تجديفياً بالقياس إلى عالمنا الذي يظل فريسة الخطأ والوهم بحكم الضرورة، المرة بعد الأخرى. ومن البديهيّ أنه لم يكن بُدٌّ للوثر أن يكره، بدوره، ومن جانبه، الجانب الفاتر وغير المبتوت فيه في أمور العقيدة عند إراسموس. لقد كان هذا الرفض للحسم، والجانب الناعم، الأملَس، المتهاوِن، الزَّلِق في قناعته، والذي لم يكن من الممكن تثبيته أبداً بوضوح، ولاسيما الكامل من الوجهة الجمالية، أي «الحديث المصطنع المتكلِّف، المزَّوق» بدلاً من الاعتراف الواضح، يستثير غضبه. وكان يستكن في أعمق الأعماق من جوهر لوثر ومَعْدِنه شيء لم يكن له بدٌّ أن يستثير ثائرة إراسموس استثارة أولية. ومن السخف والبَلادة، أن يتخذ المرء النظرة القائلة إن عدم ارتباط هذين الرسولَيْن الأوَّلين من رسل النظرية الإنجيلية الجديدة، أي لوثر وإراسموس، معاً من أجل عمل مشترك، لايرجع إلاّ إلى المصادفات والمظاهر، وحتى الأكثر مماثلة على الإطلاق، لم يكن له بُدٌّ، مع كل هذا الاختلاف في المادة التي تلوِّن دَمَيْهما وفكرَيْهما، أن يكون ذا لون مختلف، لأن اختلافهما كان

عضوياً، وكان يتغلغل من العالم الأعلى، عالم المخ، إلى نسيج الغريزة المتضافر المتشابك، ماراً بقنوات الدم، إلى ذلك العمق الذي لا يعود ثمة سلطان لإرادة التفكير الواعي ، عليه، ومن أجل ذلك لم يكن في وسعهما أن يراعيَ كل منها الآخر من أجل القضية المشتركة، وقتاً طويلاً، وكان في وسعهما أن يظلاّ، حيناً من الزمن، يسبحان في التيار ذاته، أحدهما إلى جانب الآخر، كَجِذْعيْ شجرة، ولكن لم يكن لهما بُدٌّ، لدى الانعطاف الأول، وتحوُّل وجهة الطريق، أن يتصادما صِداماً مصيرياً فيحطم أحدهما الآخر: وكان هذا الصراع صراعاً لا مندوحة عنه، في تاريخ العالم.

ولم يكن بُدٌّ أن يكون المنتصر في هذا الصراع لوثر، وكان هذا مؤكداً بصورة مسبقة، لا لمجرد أنه كان العبقري الأقوى، بل لأنه كان المقاتل الأكثر اعتياداً للحرب والأكثر سروراً بالحرب. لقد كان لوثر، وظلَّ، طوال حياته، ذا طبيعة مجادلة مقاتلة، كان فتى مشاكِساً نزّاعاً إلى العراك بفطرته، وكان إنساناً وشيطاناً، ولم يكن القتال بالقياس إليه مجرد متعة وشكلاً من أشكال تفريغ شحنة طاقته، بل كان يِمثِّل إنقاذاً، بصريح العبارة، لطبيعته المحتقنة الطافحة، وكان الانقضاض، والمُعاركة، والسباب والشتائم، والمجادلة، يَعْنِين بالقياس إليه نوعاً من عملية فَصْد، لأنه لا يحسُّ بتوافر معياره الإنساني الكامل، وبأنه يحقِّقه، إلاّ في خروجه عن ذاته، والانهيال على الآخرين بالضرب والبطش، ومن أجل ذلك كان يقذف بنفسه ليخوض معترك كل قضية، عادلة كانت أم غير

عادلة. ويكتب صديقه بوتسر، قائلاً «إن رعدة تكون قاتلة تسري في بدني حين أفكر في الغضب الذي يغلي مِرْجَله في داخل الرجل بمجرَّد أن يترتب عليه ما يجب إنجازه مع أحد الخصوم». ذلك لأن مما لا يمكن إنكاره أن لوثر يقاتل كمن أصابه مَسّ، حين يقاتل، وكان لا يقاتل، على الدوام إلا بكل جسده، وبحميّة ملتهبة، وبعينين محتقنتين بالدم، وبشفتين يعلوهما الزَّبد، ويبدو كما لو أنه حرَّض بهذه الحُمَيَّا التويتونية[1] سُمّاً يستعر بالحُمَّى، يخرج من جسده. وبالفعل، فكلما يكون قد أنقضَّ وقد أعماه الغضب حقاً، وفرَّغ شحنة غضبه، يكون قد سُرِّيَ عنه، « هنالك يتجدَّد كل دمي وتشرق بالضوء ملكة الابتكار، وتتراجع الاشتباكات».

أما في ميدان للقتال فيتحوّل رجل الثقافة العالية، الدكتور في اللاهوت، على الفور، إلى قِنٍّ من أقنان الأرض، «عندما آتي، أنهال ضرباً بالهراوات» ويستحوذ عليه، وهو صاحب النزعة إلى الجلافة والتهوُّر الجنونيَّيْن، مسٌّ من الجنون يذكِّر بصراع الدِّببة، فيبادر، في غير مراعاة لشيء، إلى أي سلاح تصل إليه يده، يبادر إلى سيف المتحذلقين الذي يتطاير منه الشرر للجميل مثلما يبادر إلى الشوكة التي يُكوِّم بها السماد، مفعمةً، بالأقذار والروْث، وهو يستبعد، من دون أن يلويَ على شيء، كل عائق، ولا يرتَدِع، متراجعاً، في حالة الضرورة أيضاً، خوفاً من أن يكون مجانباً للحقيقة أو خوفاً من الاغتياب والوِشاية من جانب الخصم: «لا يَحْسُن بالمرء أن يتورَّع، من أجل صالح الكنيسة، عن كِذْبة كبيرة

---

(١) نسبة إلى التويتون الذين يمثِّلون الأصل الجرماني للألمان «المترجم»

مُحكَمة». فالجانب الفروسيّ، أي جانب الشهامة، غريب عن هذا المقاتل الفلاّح كل الغرابة، ثم إنه لايمارس، حيال الخصم المنهزم، لانُبْلاً، ولا رثاءً لحاله، أيضاً، وحتى من يكون طريح الأرض، بغير سلاح يتابع سحقه بغضب أعمى، وهو يهتف مهلّلاً حين يُذْبَح توماس مُنْتسَر وعشرات الآلاف من الفلاحين بطريقة شائنة معيبة، ويُفاخِر بصوت صادِح، قائلاً إن «دماءهم معلّقة بعنقي» وينتشي طرباً لأن تسفينغلي، «ابن الخنزيرة»، وكارل شتات، وكل الآخرين، الذين قاوموه، هلكوا هلاكاً يبعث على التفجُّع، ولم يحدث قطُّ أن جاد عِملاق الكراهية هذا، والإنسان المحموم، على عدوٍّ بكلمة تأبين منصفة بعد موته. وكان لوثر، الذي يتمتع، إذا ما اعتلى المنبر، بصوت بشري جارف، وكان في منزله أبداً ودوداً للعائلة، وكان، بحكم كونه فنّاناً وأديباً، يعبِّر عن ذروة الثقافة، يتحوّل على الفور، إذا ما نشب نزاع، إلى ذئب بشري، استحوذ عليه غضب الجبابرة العماليق، ولا يرجو لشيء وقاراً، ولاتعوقه مراعاة عدالة أو إنصاف. وبدافع هذا القَسْرِ الجامح في طبيعته، يظل طوال حياته يلتمس هذه الحرب، المرة بعد الأخرى، لأن القتال لا يبدو له مجرد شكل ممتع من أشكال الحياة، بل يبدو له أيضاً أنه أصح الأمور على الإطلاق من الوجهة الأخلاقية، وهو يقول مباهياً وهو ينظر في المرآة: «لابُدَّ للإنسان، ولاسيما المسيحيّ، أن يكون محارباً»، وفي رسالة متأخرة له (في عام ١٥٤١) يرفع هذا المعتقد إلى أن يبلغ به السماء، مقروناً بالادّعاء الذي يتعذّر تفسيره، إذ يقول: « لا ريب في أن الله يحارب ».

غير أن إراسموس لا يعرف، من حيث كونه مسيحياً، إنساني النزعة، مسيحاً نزّاعاً إلى المشاكسة والقتال، ولا ربّاً محارباً. وكانت البغضاء وحب الانتقام يبدوانِ له، وهو أرستقراطيُّ الثقافة، انتكاسة تعود بالناس إلى مرتبة الغوغاء الأدنياء، والبربرية، وكان يشمئز من كل حومة معمعة وشجار وعراك، وكل اشتباك ضارٍ يثير اشمئزازه. وبحكم كونه تصالحيّاً بفطرته، كان يحس بقدر من الكراهية للنزاع لايقلُّ عما يحسُّ به لوثر من المتعة في هذه الحالة. ومما يعبِّر عن سمات معينة أنه قال ذات مرة عن وَجَله من النزاع: «لو كان في وسعي أن أحصل على أملاك كبيرة من الأراضي، مع اضطراري إلى رفع دعوى لآثرت التخلّي عن الأراضي». وما من شك في أن إراسموس يحب المناقشة مع أمثاله من المثقفين، بحكم كونه من رجال الفكر، ولكن مثلما يستطيع أن يفصِّل القول في المبارزة على أنها لعبة نبيلة، يستطيع الرجل ذو التهذيب الرفيع، والذكي، والمَرِن المطواع أن يشرح أمام ندوة المثقفين الإنسانيين، فن مبارزته الذي تَعرَّض للتَّقسِية في النار الكلاسيكية. وذلك أن إطلاق بعض الشرر، واستعمال بعض الحيل الجديدة المتَّسمة بالمرونة والرشاقة، وإسقاط فارس لاتيني عاجز عن سَرْج جواده، مثل هذا العبث المتَّسم بفروسية الذهن، ليس بالغريب عن إراسموس بحال من الأحوال، غير أنه لن يفهم أبداً ولَع لوثر بأن يدوس بقدميه عدّواً ويسحقه، ولن يضرب هذا الرجل الرفيع التهذيب أبداً عرض الحائط، في مساجلة بالقلم من مساجلاته

الكثيرة، بقواعد التهذيب واللياقة، ويستسلم لمثل الكراهية القاتلة التي كان«لوثر يهاجم بها أعداءه. أما إراسموس فلم يولد ليكون محارباً، وذلك، على الأقل، لأنه لم يكن يحمل، في المقصد الأخير، قناعة ثابتة يحارب من أجلها، والطبائع الموضوعية لا تتمتع إلاّ بالقليل من اليقين، ومن السهل أن ترتاب في وجهة نظرها هي، كما أنها مستعدة للتفوّق على حجج الخصم على الأقل، غير أن ترك الخصم يمسك بزمام الحديث، هذا وحده يعني إفساح المجال له - ولايُحْسِن القتال إلاّ من أعماه الغضب، والذي يسحب قناع العناد فوق أذنيه، لكيلا يسمع شيئاً، والذي يحميه هَوَسُه الخاص، في معركته، كأنه جلد مدرّع بالمادة القرنيّة. وبالقياس إلى الراهب لوثر، الخارج عن طوره من فرط الحماسة يعدُّ كل واحد من المتحدثين ضده رسولاً من رُسُل الجحيم، وعدوّاً للمسيح يترتب القضاء عليه، على حين تستوجب حتى أفحش المبالغات، بالنسبة للإنساني إراسموس، على أقصى الحدود، أسفاً يرثي لحالهم. وقد أحاط تسفينغلي بموضوع الشخصية عند كلا الخصمين، على نحو ممتاز في صورة قارن فيها لوثر بأجاكس، وإراسموس بأوديسويس أما لوثر الأجاكسي، إنسان الجرأة والحرب، الذي وُلِدَ ليحارب فلا يكاد يكون في أي مكان آخر، كأنه في بيته، وأما إراسموس الأوديسويسي الذي لم يصل إلى ميدان المعركة في الحقيقة إلاّ عن طريق المصادفة، وهو سعيد بأن يعود إلى دياره، إتاكا الهادئة، إلى جزيرة التأمل المباركة، من عالم الأفعال إلى عالم الفكر،

حيث تبدو الانتصارات أو الهزائم الدنيوية، الصائرة إلى الزوال كأنها وهم من الأوهام في مواجهة الحاضر الذي لايُهزَم، ولايتزحزح أو يتغيّر، حاضر الأفكار الأفلاطونية.

ولم يكن إراسموس ولد للحرب، وقد عرف ذلك، فكان كلما تصرّف خلافاً لما يقتضيه قانون طبيعته، وخاض في نزاع لم يكن له بُدٌّ أن يتكبد الهزيمة، لأن الفنان، أو المثقف، إذا تخطيّا حدودهما، ووقفا في طريق إنسان الفعل، والقوة، وإنسان العصر، يحطّان من شأن معيارهما الخاص، ولايجوز لرجل الفكر أن ينحاز إلى طرف معين ، وذلك أن مملكته هي العدالة، التي تعلو على كل نزاع، في كل مكان وقد تناهى إلى سمع إراسموس القَرْعُ الأول الخافت من قِبَل لوثر، ولكن يضطر عما قريب إلى التوقف وإلى أن يدفن هذا الاسم في قلبه، لأن الضربات الحديدية، التي سَمَّر بها الراهب الأوغسطينيّ المجهول أطروحاته الخمسة والتسعين على باب كنيسة فيتنبرغ، تتردد أصداؤها في كل أرجاء الدولة الألمانية. «وكأن الملائكة أنفسهم كانوا هم السُعاة» وهكذا تتخاطف الأيدي الصحف التي ماتزال ندية من حبر الطباعة. وبين عشية وضحاها بات مارتن لوثر، إلى جانب اسم إراسموس، ذلك الرائد من روّاد الكفاح الذي يعدُّ الأكثر تميُّزاً في لاهوت مسيحي حرّ. وبغريزة عبقرية لامَسَ الرجل الشعبي القادم، على وجه الخصوص النقطة الملموسة التي كان الشعب الألماني يحسُّ عندها بثقل وطأة الإدارة المركزية

البابوية في روما، حيث تكون أكثر ما تكون إيلاماً، أي في مسألة صك الغفران. وما من شيء تحتمله الأمة بامتعاض أشد مما تحتمل به غرامة مفروضة عليها من قبل قوة خارجية. على أن لجوء الكنيسة في هذه الحالة إلى الاستغلال المادي للخوف الأصيل عند مخلوقات الله عن طريق عملاء يشاركون في ذلك بنسبة مئوية، وعن طريق الباعة الممتهنين لصكوك الغفران، بحيث كانت هذه الأموال التي تمَّ ابتزازها من الفلاح الألماني، ومن المواطنين عن طريق إيصالات مطبوعة سلفاً من قبل الخزينة، تذهب خارج البلاد وتتخذ طريقها إلى روما، كان قد أدى منذ عهد بعيد إلى استياء قومي صامت في كل أنحاء البلاد - والحق أن لوثر لا يعطيه إلاّ وسيلة الاشتعال بمبادرته التي تتّم عن التصميم، وما من شيء يظهر بوضوح أكثر من أنَّ ما يكون له القول الفصل في التاريخ العالمي ليس اللوم الموجَّه نحو تقليد سيّء، بل قالب النقد، وذلك إن إراسموس وآخرين من الإنسانيين سبق أن أغدقوا تهكُّمهم المتسم بالظُّرف وخفة الروح، على هذه البطاقات التي تفتدي صاحبها من نار المَطْهَر، ولكن التهكم والفكاهة لايزيدان على أن يخرّبا قوى قائمة، بحكم كونها شيئاً سلبياً، ولايحشدان قوى جديدة من أجل صدمة إبداعية، وفي مقابل ذلك فإن «لوثر» يعرف، وهو ذو الطبيعة الدرامية، وربما كانت هذه هي الطبيعة الدرامية الوحيدة الحقيقية في التاريخ الألماني، بالاستناد إلى غريزة أولية فطرية غير مكتسبة،

كيف يبادر إلى كل أمر بأسلوب عنيف، مباشر، ملموس وحاسم ومفهوم من قِبَل المعنيين، وكان يتمتع، منذ الساعة الأولى فما بعدها، بموهبة القائد الشعبي العبقرية، المتمثلة باللفتة المتجسّدة الملموسة، وبالكلمة المبرمجة، فعندما يقول في أطروحاته بإيجاز ووضوح: «لا يستطيع البابا أن يغفر ذنباً» أو: «لا يستطيع البابا أن يعفي من عقوبة غير تلك التي كان فرضها هو ذاته»، تكون هذه كلمات مقنعة، واضحة كالبروق، تَنفُذُ كالرعد متغلغلة في ضمير أمة بأسرها، وتأخذ كاتدرائية القديس بطرس في الترنح تحت وَطْأتها. وعلى حين أثار إراسموس وأتباعه، بالتهكم والنقد، انتباه رجال الفكر، ولكن من دون أن يتقدموا فيبلغوا المناطق التي تمسُّ عواطف الجماهير الجامحة، وصل لوثر هنا بصدمة واحدة إلى أعماق وجدان الشعب. ويغدو، خلال عامين، الرمز المعبِّر عن ألمانيا، بل القائد المعبِّر عن كل الرغائب والمطاليب القومية المناوئة لروما، والطاقة المركَّزة لكل أشكال المقاومة. ولا بد لمعاصر يتميَّز بإرهاف السمع ويستحوذ عليه الفضول، كما هو حال إراسموس أن يكون سمع بِفعلة لوثر خلال أجل جدّ قريب. وكان ينبغي له في الحقيقة أن يَقَرَّ بذلك عيناً، إذ وقف إلى جانبه، بذلك حليف له في النضال من أجل لاهوت حر. ولا تُسمع في بادئ الأمر أيضاً كلمة لوم.

«كل خِيار الناس يحبّون جرأة لوثر، وما من شك في أن لوثر كان حتى الآن ذا فائدة للعالم».

– وفي هذه اللهجة ذات المقصد الحسن يعبِّر إراسموس عن رأيه، لأصدقائه الإنسانيين في ظهور لوثر، ولكن هاجساً أوّل كان قد علق بذهن السيكولوجيّ البعيد النظر، بلا ريب، في حذر.

«لقد أنحى لوثر باللائمة على الكثير من الأمور»، ولكن تنهُّدةً خافتة كانت تشوب هذا الكلام، ويحسُّ الرجل المرهف الإحساس، بغريزته، بطبع لوثر الفائق الحرارة، إحساسَه بخطر ويُلِحّ في الإيعاز بتذكيره بأن الظروف لا تكون على الدوام ملائمة للخروج بهذه الفجاجة، على الملأ. «ويبدو لي أن من الممكن أن يصل المرء، بالتواضع، إلى أكثر مما يصل إليه عن طريق إطلاق العنان لانفعالاته. وبذلك أخضع المسيح العالم».

وإذاً فلم تكن كلمات لوثر»، ولا أطروحاته هي التي أثارت الاضطراب في نفس إراسموس بل وَقْع الإدلاء بكلامه، واللهجة الديماغوجية، المتعصبة، في كل ما يكتبه لوثر وما يفعله. فإراسموس يرى أن مسائل حرجة في اللاهوت، كهذه، من الأفضل أن يناقشها المرء بصوت هادئ في وسطٍ من المثقفين، وينحّي المرء الغوغاء الأدنياء باستعمال اللاتينية الأكاديمية، ولايرفع صوته باللاهوت عالياً، وهكذا، في الحواري والأزقة، بحيث يمكن للاسكافيين وبائعي الأمتعة القديمة أن يُقْدِموا على الخوض في هذه المسائل الدقيقة الحرجة. وكل مناقشة تهدف إلى لفت الأنظار والتأثير على الجماهير ونيل استحسانها، تنزل بالمستوى بالنسبة إلى ذَوق الإنسانيين، وتجر

ورائها، لامحالة، خطر إثارة القلاقل، وتهييج الخواطر وإثارة العامة وإراسموس يكره كل دعاية، وكل إثارة وتحريض، من أجل الحقيقة، إذ يؤمن بقدرتها على مواصلة التأثير من تلقاء ذاتها. وهو يقصد أن المعرفة إذا ما حُمِلَت ذات مرة عن طريق الكلمة، إلى العالم، لابُدَّ لها عندئذ أن تفرض نفسها من طريق الفكر الصِّرف، ولايحتاج الأمر، لا إلى استحسان الجمهور، ولا إلى تشكيل حزب لتغدو أكثر صدقاً وأصالة وأكثر واقعيّة. وليس عليه أن يناضل من أجلها. وإذاً فلم يكن صادراً عن الحسد، كما يتهمه بذلك خصومه، بل بدافع شعور صادق بالخوف، كان إراسموس يرى، من منطلق شعور أرستقراطيّ الفكر بالمسؤولية، وقد شعر بالاستياء والامتعاض، كيف كان يرتفع من وراء العاصفة الكلامية التي أثارها لوثر، شيء كأنه سحابة هائلة من غبار انفعال الشعب. «ألا ليته كان أكثر اتزاناً واعتدالاً فحسب».

وتتجدد شكوى إراسموس، المرة بعد الأخرى، من هذا الذي جاوز الحدَّ، وكان يكنُّره، في أخفى جوانب سريرته، الشعور المسبق المنطوي على المعرفة، بأن مملكته الفكرية، مملكة الأدب الفنيّ والعلوم والإنسانية، لايمكنها أن تصمُد لعاصفة على العالم كهذه، ولكن لم يَجْرِ بَعدُ تبادل كلمة بين إراسموس ولوثر، ومازال الرجلان الأكثر شهرة في الإصلاح الدينيّ الألماني يلتزم كلٌّ منهما بالصمت حيال الآخر. وهذا الصمت يغدو، شيئاً فشيئاً، لافتاً للنظر. أمّا «إراسموس» المُحاذِر، فليس لديه ما يدفعه إلى الاسترسال الشخصي في الاحتكاك

Ware Contrafactur Herrn Martin Luthers:

wie er zu Wurmis auff dem Reichstag gewesen / vnd was er gebettet habe / Anno Christi 1519.



ALmechtiger Ewiger Gott / wie ist nur die Welt ein ding / wie sperret sie den leuten die meuler auff / wie klein vnd gering ist das vertrawen der menschen auff Gott / wie ist das fleisch so zart vnd schwach / vnd der Teuffel so gewaltig vnd geschefftig / vnd nur durch seine Apostel vnd Weltweisen / wie zeuhet sie so bald die hand ab / vnd schnurt dahin / leufft die gemeine ban / vnd den weiten weg der Hellen zu / da die Gottlosen hin gehören / vnd sihet nur bloß an / was prechtig vnd gewaltig / gros vnd mechtig ist / vnd ein ansehen hat. Wenn ich mein augen dahin wenden sol / so ist es schon mit mir aus / die glocken ist schon gegossen / vnd das vrtheil gefellet. Ach Gott / ach Gott / O Gott / du mein Gott / du mein Gott / stehe du mir bey / wider aller welt vernunfft vnd weisheit / thue du es / du must es thun / du allein / ist es doch nit mein / sondern dein sache / hab ich doch vor mein person allhie nichts zuschaffen / vnd mit diesen grossen Herren der Welt zuthun / wolt ich doch auch wol gute geruhige tag haben vnd vnuerworren sein / Aber dein ist die sach HErre / die gerecht vnd ewig ist / stehe mir bey / du trewer ewiger Gott / ich verlasse mich auff keinen menschen / es ist vmb sonst vnd vergebens / es hincket alles was fleischlich ist / vnd nach fleisch schmecket. O Gott Gott / O Gott / hörestu nicht mein Gott / bistu Todt? Nein / du kanst nicht sterben / du verbirgest dich allein. Hastu mich darzu erwelet / das ich die warheit fordern sol / ich frage dich / wie ich denn gewis weis / Ey so walt es Gott / Denn ich mein lebenlang / nie wider so grosse Herrn zusein gedacht / hab mir es auch nie vorgenommen / Ey Gott / so stehe mir bey / in dem namen deines lieben Sons Jhesu Christi / der mein schutz vnd schirm sein sol / ja mein feste burgk / durch krafft vnd sterckung deines Heiligen Geistes. HErr wo bleibstu? du mein Gott / wo bistu / kom / kom / ich bin bereit / auch mein leben darumb zulassen / gedültig wie ein Lemlein / denn gerecht ist die sache vnd dein / so wil ich mich von dir nit absondern ewiglich / das sey beschlossen / Ewiglich sage ich in deinem Namen / die Welt mus mich vber mein gewissen wol vngezwungen lassen / vnd wenn sie noch voller Teuffel were / vnd solt mein leib / der doch zuvor deiner hende werck vnd geschöpff ist / drüber zu grunde vnd boden / ja zu drümmern gehen / darfur aber dein Wort vnd Geist mir gut ist / vnd ist auch nur vmb den leib zuthun / die Seel ist dein vnd gehört dir zu / vnd bleibt auch bey dir ewig /

Gott helff mir. Amen in Gottes namen / Amen.

بذلك الذي لا يمكن تقدير ما يمكن أن يصدر عنه بصورة مسبقة. وأما لوثر، بدوره، فكان كلما دفعه اقتناعه الخاص إلى القتال بدرجة أكبر، ازداد تشككه في المتشكِّل على نحو يكاد يُلاحظ بالعين، وهو يكتب عن إراسموس، ويتبيَّن بذلك، التنائي المتبادَل بينهما بأسلوب الأستاذ المتمكِّن، إذ يقول: «الأمور البشرية تهمُّه أكثر مما تهمُّه الأمور الرّبانية»: وبالقياس إلى لوثر كان الدينيُّ أهم الأشياء على وجه البسيطة، أما عند إراسموس فكان الأهم هو الإنسانيّ.

ولكن في هذه السنوات ما عاد لوثر يقف وحده. فمن دون أن يرغب في ذلك، وربما من دون أن يفهم هذا كل الفهم، أصبح، بمطاليبه التي لم يكن يقصد بها إلاّ إلى الجانب الروحي، الممثل للمصالح الدنيوية المتعددة الجوانب إلى أقصى الحدود، المِحَكّ الذي يَتّخذ من أجل فرض مطاليب القضية القومية الألمانية، وبات حجراً مهماً في لعبة الشطرنج السياسية بين البابا والإمبراطور والأمراء الألمان، ويأخذ الآن مستغَلون لنجاحه غرباء كل الغربة، ليسوا بالإنجيليين على الإطلاق، في خَطْبِ ودِّ شخصه، لاستغلاله من أجل أغراضهم الخاصة. وشيئاً فشيئاً تتكوَّن حول الرجل الفرد نواة حزب مستقبليّ، أو نظام ديني قادم، ولكن قبل أن يتجمع جيش الجماهير الكبير، أي جيش البروتستانتية، بزمن طويل، كانت قد التأمت ، بما يتلاءم مع العبقرية التنظيمية عند الألمان، هيئة أركان سياسية، ولاهوتية، وقضائية، حول لوثر، وكان فيهم ميلانكتون وسبالاتين، والأمراء، والنبلاء والمثقفون وأهل العلم. ويتطلَّع المبعوثون

الأجانب بأبصارهم إلى دوقية سكونيا الناخبة، ليرَوْا ألا يمكن اقتطاع إسفين من هذا الرجل الصلب يستطيعون أن يدفعوا به في جسد الإمبراطورية القوية. وكانت دبلوماسية سياسية دقيقة الخيوط تشبُك خيوطها مع مطاليب لوثر التي كانت ذات مقاصد أخلاقية صِرْفة، وكان رهطه الأَنْوَن على وجه الخصوص يلتمسون له حلفاء، وكان ميلانكتون، الذي يعلم حق العلم أية قلاقل لا بُدَّ أن تنشأ بمجرد أن تظهر ذات مرة رسالة لوثر: «إلى نبلاء الأمة الألمانية» يلحُّ ويُلِحُّ لعل القوم يكسبون سلطان إراسموس النزيه إلى جانب الإنجيلية، وأخيراً ينزل «لوثر» على رغبته، ويتوجَّه، في ٢٨ آذار عام ١٥١٩، بشخصه إلى إراسموس، لأول مرة.

ومما يدخل في جوهر الرسالة الإنسانية، على نحو لا مندوحة عنه، الأدب والتهذيب المتملِّق، والحَطُّ من قيمة الذات على نحو فيه مبالغة صينيّة على نحو صريح. ولذلك فليس مما ينطوي على شيء خصوصوي أن يبدأ لوثر رسالته بأسلوب التراتيل والأناشيد قائلاً: «وأين عسى أن يوجد من لا أراسموس كل تفكيره؟ ومن ذا الذي لا يتعلَّم منه؟ ومن ذا الذي لم يستحوذ عليه؟» وذلك عندما يصوِّر نفسه في صورة فتى غليظ مكتنز لا شكل له، غير مغسول اليدين، لمّا يتعلَّم كيف يتوجه، عن طريق رسالة نحو رجل رفيع الثقافة حقاً. ولمّا كان قد سمع أن اسمه بات معروفاً لدى إراسموس من جراء الملاحظة «غير ذات الشأن والقيمة»، حول صكوك

الغفران، فقد أمكن أن يُؤوَل تَواصُلُ الإخلاد إلى الصمت بين كليهما على أساسٍ من سوء الفهم. «فلتعترف إذاً، أيها الرجل الطيب، إذا راق هذا لك، أيضاً، بأخيك هذا الصغير، أخيك في المسيح، الذي لا يستحق بالطبع، بالنظر إلى جهله، إلاّ أن يُدْفَن في رُكْن مظلم، لا معروفاً تحت السماء ذاتها، ولا تحت الشمس ذاتها». ومن أجل هذه الجملة الواحدة كتبت الرسالة بأسرها، وهي تتضمن كل ما يأمله لوثر من إراسموس وهو كتاب الإقرار والموافقة، أو أي كلمة تنطوي على موقف ودّي من نظريته (ولنقل: كلمة يمكن تقييمها على الصعيد الإعلاني) فهذه الساعة غامضة تنطوي على إمكانية الحسم بالنسبة للوثر، فقد استهل حرباً على أقوى الأقوياء في الأرض، وها هو ذا مرسوم الحرمان جاهز في روما، وكان الظفر بإراسموس في مثل هذا الكفاح إلى جانبه ليكون مسعفاً معنوياً، أمراً ذا أهمية، وربما كان حاسماً في انتصار القضية اللوثرية، لأن هذا الاسم يحظى بالاعتبار بسبب نزاهته. والإنسان غير المتحزِّب هو، على الدوام، أفضل راية يعتصم بها المتحزِّبون.

ولكن إراسموس لا يريد أبداً أن يأخذ على عاتقه التزاماً، على أنَّ الأَوْلى أن يأبى أن يكون كفيلاً لذنب مازال خارج نطاق التقدير والحساب. ذلك لأن موافقته للوثر على ما فعل الآن وعلى نحو مكشوف، تعني بصورة مسبقة، إقراركل ماكتبه من رسائل،مع هجماته القادمة وإعطاء الموافقة لإنسان يتخطى الحدود المعهودة، ولا

يلتزم بها، كما أن أسلوبه العنيف التحريضي، المثير للقلاقل أصاب إراسموس رجل الانسجام، في أعمق أعماق نفسه إصابة مؤلمة، ثم ما هي قضية لوثر؟ ما هي اليوم، في عام ١٥١٩، وما الذي ستصير إليه غداً ؟ إن الانحياز إلى إنسانٍ ما، والالتزام به يعنيان تخلّي المرء عن جزء من حريته الأخلاقية الخاصة، وتحمُّله المسؤولية عن مطاليب لا يستطيع أن يقدِّر مداها ببصره، ولن يسمح إراسمِوس أبداً بأن توضع قيود على حريته، وربما أحَسَّ الأنف الذي يُحسِن التشمُّم عند الكهنوتيّ الشيخ برائحة يسيرة من الهرطقة تنبعث نحوه من رسائل لوثر. ولم يكن تعريض السمعة للتشويه أو الشبهة، أبداً من فضائل إراسموس المُحاذِر ولا من مظاهر قوته.

وهكذا يتحاشى في جوابه، بأقصى قدر من العناية والحذر، الإجابة بنعم واضحة أو لا واضحة. وفي البداية ينشىء لنفسه خندقاً يتحصَّن فيه، إذ يُعلِن، ذات اليمين وذات الشمال، أنه لم يقرأ بعد رسائل لوثر قراءة حقَّة أبداً. وفي الواقع كان محظوراً، بالنص الحرفيّ، على إراسموس، بحكم كونه كاهناً كاثوليكياً، أن يقرأ كتباً معادية للكنيسة من دون إذن صريح من رئيسه: وبأقصى قدر من الحذر يورد كاتب الرسائل، إراسموس الرصين المتَّزن، هذا في صورة ذريعة أو اعتذار لكي يتفادى القول الحاسم، فيشكر «للأخ في المسيح» ويتحدث عن الانفعال الهائل الذي أحدثته كتب لوثر في لوفِن، ومدى البشاعة التي انقضَّ بها الخصوم عليها وبذلك يعبِّر، بطريقة ملتوية، عن قَدْرٍ معين

من التعاطف. ولكن يالها من براعة فائقة، تلك التي يتفادى بها ذلك المستقل المشغوف باستقلاله، كل كلمة تعبر عن موافقته له بوضوح، يستطيع المرء أن يثبّته عليها ويُلزِمه بها! وهو يؤكد بصراحة أنه قلّب أوراق تعليق لوثر على كتاب المزامير، مجرد «تقليب» (de gustavi) أي أنه لم يقرأها، وأنه «يأمل» أن يكون هذا التعليق ذا فائدة جلّى - وتتكرّر الرغبة المُعبَّر عنها بطرق بديلة، بدلاً من الحكم، ولكي ينأى بنفسه عن لوثر فحسب يتهكّم على الشائعات المزعومة التي تفيد أنه شارك في صياغة رسائل لوثر، بأنها سخيفة وخبيثة المقصد، ولكن بعد ذلك، وفي النهاية، يغدو إراسموس واضحاً، إذ يعلن بكل وضوح، أنه لا يرغب في أن يُورَّطَ في كل مسألة النزاع هذه غير المستحبّة: (أنا أتصرف تصرُّف المحايد على قدر الإمكان (integrum) لكي أستطيع أن أُنمّي العلوم التي عادت إلى الازدهار، تنمية أفضل، وأعتقد أن التحفُّظ الذي يتمكّن المرء منه بذكاء يمكن عن طريقه الوصول إلى ما هو أكثر مما يمكن الوصول عن طريق التدخل العنيف». ثم يُذكِّر بإلحاح، لوثر أيضاً، بوجوب الاعتدال، ويختتم الرسالة بتمنّياته الورعةُ، وغير المُلْزِمة، راجياً من المسيح أن يهب للوثر في كل يوم، مزيداً من روحه.

وبذلك تبوّأ إراسموس مكانه، وإنه لمماثل لما حدث في نزاع رويْشلين، حين قال: أنا لست رويْشلينيّاً، ولا أنحاز إلى أحزاب، فأنا مسيحي ولا أعرف إلاّ المسيحين، ولكني لا أعرف أتباعاً لرويْشلين أو

لإراسموس لقد عقد العزم على أن لا يخطو بعدُ خطوة واحدة أكثر مما يريد هو بالفعل، ، وإراسموس إنسان يجنح إلى الخوف، ولكن للخوف أيضاً قوىً تنظر وترى: فهي ترى من سطوع للوجدان مفاجيء على نحو يلفت النظر، في بعض الأحيان، ما هو قادم بصورة مسبقة، من طريق الهَلْوَسة. وفي رؤية أكثر جلاءاً وسطوعاً من كل الإنسانيين الآخرين، الذين يهتف لوثر لهم مهلِّلاً، على أنهم يمثلون المسيح المخلِّص، يتبيَّن إراسموس في الأسلوب المطلق العدواني عند لوثر، نُذُر «اضطراب»، وهو يرى بدلاً من الإصلاح الديني، ثورة، وهو لا يريد أن يسلك هذا الطريق الخطر بحال من الأحوال. «وبأي شيء كان في وسعي أن أعين لوثر إذا ما جعلت نفسي رفيقاً له في مواجهة الخطر الذي يحيق به، سوى أن يهلك اثنان من البشر بدلاً من واحد... لقد قال بعض الأمور على نحو ممتاز، وأَحسَن التحذير، ولقد وَدِدت لو أنه لم يكدِّر صفو هذه الأشياء الحسنة بأخطاء لاتحتمل. ولكن حتى لو كان كتب كل هذا بأسلوب أهل التقوى، لما عرَّضت رأسي للخطر، من أجل الحقيقة، فما كل امرئ بقادر على أن يكون شهيداً، ولابُدَّ لي أن يتولاني الخوف إلى حدٍّ يبعث على الأسى، من أن أحذو، في حالة نشوب اضطراب، حذو بطرس. وأنا أتَّبع وصايا البابا والأمراء، حين يكونون عادلين، وأصبر على شرائعهم السيئة لأن هذا أكثر أمْناً، وأعتقد أن سلوكي هذا يعد لائقاً بكل البشر أولي النوايا الحسنة، حين لا يرون أملاً يعلِّقونه على مقاومة ناجحة». وبدافع من خوفه وتردده

النفسي، ومن شعوره الذي لا يتزعزع، بالاستقلال، عقد إراسموس العزم على أن لا ينشئ قضية مشتركة بينه وبين أحد من الناس حتى ولا لوثر، إذ ينبغي لهذا أن يسلك طريقه ولإراسموس أن يسلك طريقه: وهكذا يبرمان اتفاقاً على أن لا يتصدى أحد منهما للآخر، شأنَ العدوّ، أما عرض التحالف فرُفِض، وعقدت معاهدة حياد، وتقرر أن يتولى لوثر صياغة المسرحية. أما إراسموس فيأمل - ويأله من أمل عبثي! - أن يُسمَح له بأن يكون في هذه الأثناء متفرِّجاً فحسب، وأن يظل «مشاهداً»: إذا كان الله يريد هذا كله على هذا النحو، كما يتبيِّن من الارتقاء الجبّار لقضية لوثر وربما كان لَمسَ الحاجة بسبب فساد هذه الأزمنة إلى جرّاح فظٍّ خشن مثل لوثر، وعندئذ لا يكون من شأني أن أُقاومه».

ولكن البقاء في الخارج والتزام الحياد في العصور السياسية، أصعب من الانحياز إلى حزب ما. وكان من بواعث الاستياء الشديد عند إراسموس أنَّ الحزب الجديد يحاول الاعتماد على إراسموس. وكان إراسموس وضع الأساس للنقد الإصلاحي للكنيسة، ذلك النقد الذي حوّله لوثر إلى هجوم على البابوية، وكان قد باض، كما يقول أهل اللاهوت الكاثوليك بمرارة، البيضة التي تَفقَّست عن لوثر. ويُعَدُّ إراسموس، شاء لم أبى، وإلى درجة معينة، وبحكم كونه ذلك الذي مهَّد الطريق، مسؤولاً عن فِعلة لوثر: (Ubi Erasm innuit , illic Luther irruit) (حين فتح الباب مُحاذِراً، دخل الآخر مقتحماً باندفاع وجموح)، ويضطر إراسموس ذاته إلى أن يعترف لتسفينغلي، قائلاً: «كل ما يطالب به

لوثر علَّمتُه بنفسي، ولكن ليس بهذا العنف، وبدون تلك اللغة التي تجري وراء الحدود القصوى شأن القنَّاص». وما يفصل بين كليهما إنما هو المنهج فحسب. لقد وضع كلاهما التشخيص ذاته، وهو أن الكنيسة يتهدّدها خطر على حياتها، يتمثل في أن يتولاها الهلاك من داخلها، ومن جراء اقتصارها على المظاهر، أو سطحيتها، ولكن بينما يقترح إراسموس معالجةً تتقدم خطواتها ببطء، أو عملية تطهير للدم، تدريجية متميِّزة بالعناية، عن طريق حقنات ملحية من العقل والتهكُّم، يبادر لوثر إلى البَضْع الجراحي. ولم يكن بُدٌّ لإراسموس الذي يُجفِل من الدم أن يرفض عملية خطرة على الحياة كهذه، إذ كان يمقت كلَّ ما هو عنيف: «لقد صحَّ عزمي واستقرَّ على أنْ أُفَضِّل أن أُمَزَّق إرباً إرباً على أن أشجِّع الخلاف والشقاق، ولاسيما في مسائل العقيدة. والحق أن كثيراً من أتباع لوثر يستندون إلى القول المأثور عن الإنجيل: لم آتِ لتوطيد السلام، بل أتيت بالسيف، ولكن على الرغم من أنه يتبيَّن لي أنه ينبغي تغيير بعض الأمور في الكنيسة لصالح الدين، إذ لا يروق لي البتَّة كل ما يفضي إلى الاضطراب وإثارة الخواطر بهذه الطريقة». وبتصميم يذكِّر بتولستوي يرفض كل نداء إلى استعمال العنف، ويعلن أنه يؤثر أن يكون على استعداد لمواصلة تحمُّل وطأة الظرف الباعث للاستياء والغيظ، على شراء هذا التحوُّل بالقوى والقلاقل. وبينما كان الإنسانيون الآخرون، الذين هم أقصر نظراً وأكثر تفاؤلاً، يهلِّلون لفعلة لوثر على أنها تحرير للكنيسة،

وخلاص لألمانيا، يتبيَّن هو في هذا تشرذمَ ما يسمى بالكنيسة العالمية (Ecclesia univesalis) إلى كنائس إقليمية، وانفصال ألمانيا عن وحدة الغرب، وهو يقدِّر ويستشعر انطلاقاً من قلبه أكثر مما يستطيع أن يعرف عن طريق العقل، وهو أن مثل هذا الانفصال، انفصال ألمانيا والبلدان الجرمانية الأخرى عن السلطة الرئيسية للبابا لا يمكن أن يتمّ من دون خَوْض أكثر ألوان الصراع دمويّة وفتكاً. ولما كانت الحرب تعني بالقياس إليه ارتداداً، وانتكاساً بربرياً يعود بالناس إلى حِقَب نَجَوْا منها منذ عهد بعيد، فهو يقف كل سلطانه على الحيلولة دون حلول هذه الكارثة والخطب الجَلَل في وسط المسيحية. وبذلك تنشأ لإراسموس، فجأةً، رسالة تاريخية تتجاوز حدود طاقته من الوجهة الذهنية والنفسية: ألا وهي أن يجسِّده وحده، في وسط كل أولي الأعصاب المستثارة إلى حد الإفراط، صفاء العقل، ووحدة أوروبا، التي يدافع عنها بقلمه، هو، وحده، ووحدة البشرية، وأن يدافع عن المواطَنة العالمية في وجه الانحلال والإبادة.

ويبدأ إراسموس بمهمة وساطته بمحاولة تهدئة ثائرة لوثر، ويظل يناشد ذلك الذي يمتنع على النُصح، عن طريق الأصدقاء، أَنْ لا يكتب بهذا الأسلوب المهيِّج للخواطر وأن لا يعلِّم الإنجيل هكذا، بطريقة «الإنجيلية»: «لقد وَدِدت لو يتخلّى لوثر، حيناً من الزمن عن كل أشكال الجدل والنزاع، وأن يعرض القضية الإنجيلية نقية خالصة لايمازجها شيء، إذاً لأصاب من النجاح قدراً أكبر»، وقبل كل شي:

ليس كل شيء تترتَّب معالجته علانية، على رؤوس الأشهاد، وأن لا يتم اللجوء، بحال من الأحوال، إلى الصراخ بالمطاليب المتعلِّقة بإصلاح الكنيسة، في آذان جمهور ثائر مضطرب، يجنح إلى المشاحنات، وبالتِلْك البلاغة التي يمجِّد بها إراسموس، الدبلوماسي، في مواجهة الطاقة التحريضيّة الكامنة في فن الكلام، تلك البراعة الفائقة عند رجل الفكر، ألا وهي الفن الرفيع المتمثل في الصمت في الساعة المناسبة: «ليس من الواجب أن تقال الحقيقة كلها دائماً، فالكثير يتوّقف على الكيفية التي تُعْلَن بها».

وهذا الفهم الذي يفيد أن الحقيقة يمكن أن يُسْكَتَ عنها من أجل مزيّة الزّمن، ولو دقيقة واحدة، لا بدَّ أنها كانت غير مفهومة عند لوثر. فبالقياس إليه، وهو المؤمِن، يتمثل الواجب الأقدس الذي يفرض على الضمير في أن يؤمن المرء أيضاً بكل حرف من الحقيقة أدركه قلبه وأدركته روحه ذات مرة، وأن يصرخ بها مجاهِراً، سواء أَنَجَم عن ذلك الحرب، أم الفوضى والقلاقل وسقوط السماء على الأرض. أمّا فنُّ الصمت فلا يستطيع لوثر، ولا يريد، أبداً، أن يتعلّمه. ففي هذه السنوات الأربع أُوتِي، فجأة، لغة جديدة، قوية مُحكَمة، ينطلق بها لسانه، وقوى لا يُسْبَر غورها وانتقلت إليه الضغائن المختزنة عند شعب بأسره، إنه الوعي القوميّ الألماني بأسره، المتطلِّع إلى النهوض ثائراً على كل ما هو روماني، أجنبي، وإمبراطوريّ، وهو كراهية صغار القساوسة، وكراهية الأجانب

واللهيب الداكن، الاجتماعي، والديني، الذي، يشتعل اشتعالاً بطيئاً داخناً، منذ أيام ثورة الفلاحين ذوي الأحذية ذات الأربطة الجلدية في عام (١٤٩٢)، كل هذا تمّ إيقاظه بفعل ضربات مطرقة لوثر على أبواب كنيسة فيتنبِرْغ وإذا كل الطبقات، من الأمراء والفلاحين والمواطنين، تشعر بأن قضيتها الخاصة وقضيتها الطبقية تكتسب القداسة عن طريق الإنجيل، وإذا الشعب الألماني بأسره تتركّز عاطفته، التي كانت حتى الآن مقسّمة متشظّية فيه. ولكن كلما ارتبط القوميُّ بالاجتماعيّ في غمرة لهيب الوجد الديني، تنشأ تلك الأشكال من زلزلة الأرض الهائلة التي تهز العالم، وإذا لم يكن هناك سوى رجل واحد في المكان يرى أفراداً لا يُحْصَوْن عدداً، إراداتهم اللاشعورية محقّقة فيه، نشأت لهذا الرجل قوى سحرية تضاف إلى قوته. وعندما تصب أمة بأسرها، طاقتها في قوتها الخاصة، فسيكون من السهل أن تشعر بميل شديد إلى أن تُحِسَّ بأنها رسول جاء من الأبديّ، وبعد سنين لا تُحصى عدداً يتكلم رجل من ألمانيا، مرة أخرى، بلغة الأنبياء «لقد رَسَمَ الله لي أن أعلِّم وأوجِّه، شأن واحد من الرسل وأصحاب الأناجيل، في البلاد الألمانية». فالرجل المعرَّض لنوبات الوجد يشعر أنْ قد اختصّه الله بمهمة تطهير الكنيسة وتخليص الشعب الألماني من بين يَدَي المسيح الدجال» أي البابا، هذا الشيطان المتجسِّد، في صورة كالمومياء، بالكلمة، وإلاّ فبالسيف والنار والدم، إذا لم تستقِمْ الأمور بغير هذه الطريقة.

على أن بث المرء الموعَظة في مثل هذه الأذن المترعة بهدير هتاف الشعب، والأمَر الرباني، الذي يدعو إلى التذكُر والحذر، لا بُدَّ أن يذهب سُدى، وسرعان ما يكف لوثر عن الإصغاء إلى ما يكتبه إراسموس أو يفكر فيه، إذ ما عاد في حاجة إليه، ويمضي في طريقة التاريخيّ، حديديّاً، بخطوات لا ترحم.

ولكن إراسموس يتوَّجه، بمثل الإلحاح الذي يمارسه على لوثر في الوقت ذاته، على الجانب المقابل، إلى البابا وإلى الأساقفة والحكام، ليحذِّرهم من قسوة مفرطة في التعجُّل على لوثر، وهنا يجد عدوَّه القديم يمارس عمله، يجد التعصُّب الأعمى، المكتفي بنفسه، الذي يأبى أن يدرك أخطاءهُ هو، فيذكِّر القوم قائلاً إنهم ربما تصرَّفوا بقسوة مفرطة في مسألة لعنة الحرمان، وأن المسألة تتعلَّق، في حالة لوثر، على أية حال، برجل أصوليّ مستقيم على وجه الإطلاق، محمود السيرة بوجه عام. وما من شك في أن لوثر أثار شكوكاً حول صك الغفران، ولكن آخرين قبله قد كانوا صرَّحوا تصريحات جريئة بهذا المعنى، ويذكِّر الوسيطُ الخالد، القومَ قائلاً: «وما كل خطأ يعدُّ هرطقة» ويبِّرر سلوكَ لوثر، أكثرَ خصومه لَدَداً، بقوله إن كثيراً من الأمور التي أقدم عليها إنما هي أقرب إلى أن تكون متعجِّلة متسرِّعة منها إلى أن تكون كتبت بقصد خبيث، وفي مثل هذه الحالة لا يكون المرء مضطراً إلى أن يصرخ مطالباً بالمحرقة، وإدانة كل مشتبَه به بالهرطقة. ويقول: ألم يكن من الأحكم إنذار لوثر ونصحه بدلاً من

سبّه وشتمه واستفزازه؟ وإن «أفضل الوسائل لتوطيد السلام» كما يقول في رسالة إلى الكاردينال كامبيجيو، «هي أن يطالب البابا كل طرف بالتصريح العلني بإقراره بالعقيدة، وبذلك سيتم استدراك استغلال التصوير الخاطئ، وتخفيف وطأة حُمَيّا الحديث والكتابة»، ويلح الساعي في المصالحة مِراراً وتكراراً في طلب عقد مجمع كَنَسيّ، ويشير بمناقشة حميمة لكل هذه الأطروحات في وَسَط من المثقفين ورجال الكهنوت، لاُ بدَّ أن تفضي إلى «تفاهم لائق بروح المسيحية».

ولكن روما لا تصغي إلى الصوت المحذِّر أكثر مما أصغت إلى الصوت الذي انبعث من فيتنبرغ وكان ثمة هموم أخرى تشغل البابا في هذه الساعات، إذ يموت فجأة صاحبه الحبيب، وافائيلو سانزيو، هذه الهدية الربانية من عصر النهضة إلى العالم الذي نشأ من جديد، فمن تراه يستكمل الآن موشّحات الفاتيكان المنقوشة في حجرات إقامة البابا بالـفـاتيكان، على نحوٍ لائق؟ ومن يستكمل البناء، بناء كنيسة القديس بطرس، الذي كان ينمُّ عن طموح بالغ الجرأة؟ فبالقياس إلى البابا الذي ينتمي إلى آل ميديتشي يعُد الفن، ذاته، الفن العظيم، الباقي على الزمن، أهم مائة مرة من هذا النزاع اليسير بين الرهبان، في مكان ما، هناك، في الجانب المقابل، في بلدة من إقليم سكسونيا. ولأن أمير الكنيسة هذا على وجه الخصوص يبدو شهماً إلى حد بعيد، ينظر نظرة اللامبالاة إلى هذا الراهب الضئيل الشأن للغاية، ماراً به مرور الكرام، غير أن كاردينالاته يطالبون من جديد، في كبريائهم واعتدادهم

بأنفسهم - أولم يسبق عملية طرد الهراطقة في إسبانيا من البلاد القذف بسافونا رولا في المحرقة؟ - بالحرمان جواباً وحيداً على تمرُّد لوثر وعصيانه، ففيم الاستماع إليه أوّلاً، وفيمَ نخاصمه؟ وكانت رسائل إراسموس التحذيرية يُلْقى بها جانباً من دون أن يلقي إليها أحد بالاً، ويبادر القوم إلى إنجاز مرسوم الحرمان في الديوان الكاثوليكيّ، ويأمرون مبعوثهم بالتصدّي لمثير القلاقل الألماني بكل قوة وقسوة. ومن جرّاء العناد على هذا الجانب والعناد على ذلك الجانب يتم تبديد الإمكانية الأولى، وبالتالي، الأفضل، للمصالحة.

ومع ذلك: ففي تلك الأيام، أيام الحَسْم - وقلّما كان مشهد الخلفيّة هذا يُلتَفَتُ إليه - يقع كل مصير الإصلاح الديني الألماني، لحظة وجيزة من الزمان، في يد إراسموس. وكان الامبراطور كارل قد دعا الرايشستاغ إلى الاجتماع في فورمس، حيث يُفتَرَض أن تتم إدانة قضية لوثر، مادام لم يذعن في اللحظة الأخيرة، وحتى أمير الإقليم الذي كان فيه لوثر، فريدريش أمير سكسونيا، الذي كان في تلك الأيام لم يدخل بعدُ في عداد أتباعه المكشوفين، بل كان حاميه فحسب، دُعي إلى اجتماع الرايشستاغ. وكان هذا الرجل الذي يلفت النظر، إذ كان يتميّز بورع صارم حيال الكنيسة، أكبر جمّاع للآثار التذكارية الدينية وعظام القديسين في ألمانيا، أي لأشياء كان لوثر ينبذها ساخراً على أنها أشياء لا قيمة لها وأحبولة من أحابيل الشيطان، ينطوي على أشكال من التعاطف مع لوثر، فهو فخور بالرجل الذي أضفى على

جامعته في فيتنبرْغ مثل هذه الشهرة في العالم، غير أنه لا يجرؤ على اعتناق مذهبه علانية، فهو يتحفَّظ من الناحية الدبلوماسية حيال التعامل الشخصي مع لوثر. وهو لا يستقبله (مثلما يفعل إراسموس على وجه الدقة)، لكي يستطيع أن يقول في حالة الضرورة، على سبيل التغطية إنه ليس له صلة شخصية به. ولكن لأسباب سياسية، ولأنّ من الممكن تماماً أن يحتاج إلى هذا الفلاح القويّ في لعبة الشطرنج ضد الامبراطور، وفي النهاية بدافع زُهُوٍّ خصوصي بقضائه الخاص، كان حتى الآن يمدُّ يده فوق رأس لوثر مُجيراً له، ويترك له، على الرغم من قرار الحرمان البابوي، منبراً، ومكاناً في الجامعة.

ولكن الآن تتحوّل هذه الحماية الحذِرة إلى خطر، ذلك لأن لوثر إذا دخل منطقة الحرمان من حماية القانون، كما كان هذا متوقَّعاً، كانت متابعة حمايته تعني التمرُّد الصريح من قبل أمير من أمراء الأقاليم، على امبراطوره، وهذا التذمر المكشوف هو الذي لم يعقد العزم عليه بعدُ حقاً الأمراءُ الذين لم يجتازوا إلاّ منتصف الطريق إلى البروتستانية. والحق أنهم يعرفون أن امبراطورهم لا تتوافر لديه قوة عسكرية، فقد ربط كلا الجيشين بالحرب ضد فرنسا وإيطاليا، وربما كانت الساعة المواتية لزيادة قوتهم هم، الحافز الأجمل، والأمجد أمام التاريخ، ولكن فريدريش، الرجل الذي يتميَّز شخصه بالتقوى والاستقامة، مازال في أعمق أعماقه غير مستَيْقِن من أمر صاحبه هذا، الكاهن والأستاذ الجامعيّ. أتُراه هو حقاً رسول التعاليم الإنجيلية

الحقّة، أم أنه مجرد واحد من المتحمسين الناطقين بلسان مذهب من المذاهب، ومازال لم يعقد عزمه فيَرى هل يستطيع أن يتحمَّل أمام الله، وأمام العقل الدنيويّ، مسؤولية حماية هذا المفكر الكبير والخطير مع ذلك، فيما يُستَقبَل من الأيام.

وفي إطار هذا الموقف النفسيّ غير المحسوم يعرف فريدريش وهو في طريق رحلته، في كولونيا، أن إراسموس يحل ضيفاً في المدنية، وعلى الفوريوعز إلى أمين سرّه، سبالاتين أن يلتمس منه المجيء إليه، إذ مازال إراسموس يعدُّ المرجعية الأخلاقية العليا في أمور الدين واللاهوت، ومازال يتوِّج هامته المجد الذي حَظِيَ به باستقامته وصدقه، وثباته على النزاهة والحياد الكاملَيْن، وكان الأمير الناخب ينتظر منه المشورة الأقرب إلى الأمْن واليقين وهو في حالة انعدام يقينه، وهو يطرح عليه للسؤال الصريح: أتُراه يرى لوثر على الحق أم على الباطل، على أن إراسموس ليس بالمولع بالأسئلة التي تقتضي نعم واضحة أو«لا» صريحة، وكان يرتبط بتصويته الآن على وجه الخصوص مسؤولية لا يمكن سَبْر غورها، لأنه إذا أَقَرَّ الأفعال والأقوال اللوثرية فسوف يواصل فريدريش إدخال لوثر في حمايته، إذ يلقى بذلك، الدعم في قرارة نفسه، وبذلك يكون قد تمَّ إنقاذ لوثر والإصلاح الديني الألماني، ولكن إذا تخلَّى عنه سيد بلده حين تُثَبَّط همَّته، فسوف يضطر لوثر إلى الفرار من البلاد لينقذ نفسه من المحرقة وكان مصير عالم معلَّقاً بين هذه النعم واللا، ولو كان

إراسموس حاسداً بالفعل كما زعم خصومه، أو معادياً لرفيقه الكبير لكانت الفرصة متاحة له للتخلص منه، الآن، وإلاّ فلن يكون مقصوداً منها رفع مظلة الحماية عن لوثر. وفي هذا اليوم، الذي صادف الخامس من تشرين الثاني عام ١٥٢٠ - كان يكمن مصير الإصلاح الديني الألماني وربما كان تاريخ العالم، على الأرجح، يرقد بأسره في يد إراسموس الرقيقة التي تجنح إلى الخوف.

ويحافظ إراسموس في هذه اللحظة على موقف صادق. لم يكن موقفاً يتَّسم بالشجاعة، ولا عظيماً ولا محسوماً ولا بطولّياً، ولكنه كان مع ذلك موقفاً صادقاً (وهذا وحده ليس بالقليل). ورداً على سؤال الأمير الناخب أينَ يمكن أن يُرى في وجهات نظر لوثر شيء من مجانبة الحق، والهرطقة يحاول أن يتملَّص بكلمته الهزلية (بقوله إنه لا يريد الانحياز إلى طرف معيَّن)، ويقول إن الشيء الرئيسي المجانِبَ للحق عند لوثر هو أنه أصاب البابا في تاجه والرهبان في بطونهم، ولكن حين طُلِبَ إليه بعد ذلك، بجدّ، أن يعرب عن وجهة نظره، يحدّد، في اثنتين وعشرين من الجمل القصيرة الذي يسميها حقائق مقرَّرة، أو بدهيّات، رأيه الشخصي في نظرية لوثر، على قدر ما يعلم وكما يملي عليه ضميره، فكان ثمة جمل يبدو أنها لا تقرّ لوثر على آرائه، مثل: «لوثر يسيء استغلال حلم البابا ورِفقه». غير أنه يقف إلى جانب الرجل المهدَّد بجرأة، في الأطروحات الحاسمة: «لم يُدِنْ لوثر، من بين كل الجامعات إلاّ اثنتان، على أن هاتين لم تَدحضاه، ولذلك فإن لوثر لا

يطلب إلاّ شيئاً رخيصاً حين يرغب في مناقشة علنية وقضاة غير مشتبه فيهم». و: »الأفضل بالنسبة للبابا أن يدع المسألة تُسَوّى عن طريق قضاة ذوي سمعة مرموقة، لا شبهة فيهم. فالعالم يتعطَّش إلى الإنجيل الحقيقي، كما أن كل تيّار العصر ينطلق في هذا الاتجاه، ولا ينبغي أن يتصدى الناس له بهذه الطريقة الممجوجة» وتظل مشورته النهائية هي أن تتم تسوية هذه المسألة الحرجة بالمُلاَينة والمسايرة وبمجمع كَنَسيّ علني، قبل أن تتردّى إلى شغب وقلاقل، وتُحْدِث الاضطراب في العالم على مدى قرون من الزمان. بهذه الكلمات حدث تحوّل بعيد المدى لصالح الإصلاح الدينّي (أما لوثر فقد حَمَل ذلك منه على محمل السوء)، فعلى الرغم من اندهاش الأمير الناخب من جراء التباسات و ألوان من الحيطة والحذر في تفسيرات إراسموس ينفذ الأمير الناخب مع ذلك ما اقترحه عليه إراسموس على وجه الدقة، في ذلك الحديث الليلي، وفي اليوم التالي. أي في السادس من تشرين الثاني يطلب فريدريش من المبعوث البابوي، الاستماع إلى لوثر علانية من قبل قضاة منصفين. أحرار لا شبهة تحوم حولهم، وأن لا تُحرَق كتبه قبل ذلك. وبذلك يحتجُّ على موقف روما والامبراطور المتّسم بالحدة والقسوة: وإذا بروتستانتية الأمراء الألمان ترفع صوتها لأول مرة، وأسدى إراسموس، بمعونته الخفية، إلى الإصلاح الديني، معونة حاسمة في ساعة حاسمة، واستحق، بدلاً من الحجارة التي قذفوا بها عليه بعد ذلك، نصباً تذكارياً.

ثم تأتي الساعة الحاسمة في تاريخ العالم فيفورمس. لقد أُتْرِعت المدينة بالبشر حتّى أسطحة المنازل والحوافِ العليا منها، ويدخل امبراطور شاب، يصحبه موفدو البابا، والمبعوثون، والأمراء الناخبون ولمناء السر، وقد أحدقت به الألوان التي تحاكي ألسنة للهيب، ألوان الفرسان والأقنان. وبعد أيام قلائل، يسير راهب ضئيل الجسم على الطريق ذاته، رجلاً منفرداً، قد مَسَّه حِرْمان البابا، ولم يحمِه من محرقة الهراطقة سوى رسالة تكفل له حرية التحرُّك يحملها مطوية في جيبه، ومع ذلك فقد دوَّت الشوارع مراراً، وتعالت الأصوات فيها من فرط الهتاف والحماسة. لقد اختار أحدَ الرجلين، أي الامبراطور، الأمراءُ الألمان، واحتار الآخرَ الشعبُ الألماني، قائداً لألمانيا.

على أن المداولة الأولى تؤخِّر الحسم الثقيل، المحمَّل بأهمية المصير. مازالت الفكرة الإراسمية حيّة، ومازال يسود الأمل، بصوته الخافت، في إمكانية توسُّط. ولكن في اليوم الثاني ينطق لوثر بالكلمة ذات الأهمية التاريخية: «ها أنذا أقف هنا، ولا أستطيع أن أفعل شيئاً غير هذا». لقد انقسم القوم قسمين، ولأول مرة منذ أيام جون هُسْ يشق رجل عصا الطاعة بين يَدَيْ الامبراطور ورجال بلاط الكنيسة المجتمعين. وتسري رعدة يسيرة في محيط البلاط، إنهم يتهامسون وتتولاّهم الدهشة من الراهب الضئيل الأهمية، الوقح، ولكن في الأسفل كان الأقنان يهتفون للوثر مهلِّلين. أتراهمُ يُقدِّرون أنْ ستَهُبُّ عليهم، من هذا الرفض ريح طيِّبة؟ أتراهم يتشمّمون، هؤلاء، طيور العاصفة، رائحة الحرب الوشيكة القادمة ؟

ولكن أين يكون إراسموس في هذه الساعة؟ لقد ظل، وهذا ذنبه المأساويّ، قابعاً في حجرة دراساته، في هذه اللحظة ذات الأهمية التاريخية. لقد كان خليقاً، وهو صديق الصبا لموفد البابا ألياندر الذي كان يشاطره المائدة والسرير في البندقية، والشخصية التي تحظى باحترام الامبراطور، ورفيق الإنجيليين في العقلية والتفكير، أن يحول وحده، ومن دون أحدٍ سواه، دون الحسم القاسي أيضاً، غير أنه يخاف، وهو الخائف الأبدي، من الظهور العلنيّ، وحين يطّلع على الخبر السيء فحسب، يدرك ذلك الجانب الذي لا سبيل إلى استعادته، من اللحظة التي فوّتها: «لو كنت حاضراً بنفسي لفعلت ما في وسعي لكي تسوّى هذه المسألة بطريقة متّزنة رصينة» ولكن الساعات ذات الأهمية التاريخية ما عاد يمكن استدراكها. وقد كان الغائب على غير الحق دائماً. لقد قصّر إراسموس، في هذه الساعة ذات الأهمية التاريخية، في تكريس كيانه، وطاقته وحضوره، ولذلك باءت قضيته الإراسمية بالخسران. أما لوثر فقد كرّس نفسه، بأقصى قدر من الجرأة والطاقة التي لا تلين لها قناة، في إرادة النصر عنده: ولذلك تحوّلت إرادته إلى فعل.

الكفاح في سبيل الاستقلال

وبانعقاد مجلس الرايشستاغ في فورمس، وبلعنة الحرمان الصادرة عن الكنيسة، والحرمان من حماية الامبراطور، يعتقد إراسموس ويشاطره معظم الناس شعوره – أن محاولة لوثر في الإصلاح الديني قد تمَّ الفراغ منها، أمّا يتبقىّ فهو تمرُّد مكشوف على الدولة والكنيسة، حركة جديدة على شاكلة حركة ألبيجينسَرْ أو حركة فالدينسَر، أو حركة الهوسيين التي ستُباد على الأرجح بمثل هذه القسوة، وكان هذا الحل الحربي على وجه الخصوص هو ما أراد إراسموس أن يطمئن إلى تجنُّبه، وكان يحلم أن يؤسس بنيان تعاليم الكنيسة الإنجيلية بأسلوب إصلاحيّ. وكان خليقاً أن يسرَّه أن يبذل مساندته لمثل هذا الهدف. «ولو ظل لوثر داخل إطار الكنيسة الكاثوليكية لسَرَّني أن أقف إلى جانبه»، إذا ما وعد بذلك علانية. غير أن ذلك الميّال إلى العنف انفصل عن روما إلى الأبد، دفعة واحدة. أما الآن فقد انتهت المسألة. «انتهت مأساة لوثر، وياليتها لم تظهر على المسرح أبداً»، كذلك كان يشكو محبُّ السلام المخيَّب الآمال. لقد انطفأت شرارة التعاليم الإنجيلية، وأفل نجم الضوء الإنجيلي». الآن يفصل الطغاة وتفصل المدافع في قضية المسيح. أما هو ذاته فقد عقد العزم على أن ينتحي جانباً في كل نزاع قادم، فهو يشعر أنه أضعف من أن يواجه جسامة المحنة، ويعترف متواضعاً، أنه يوجد لديه، في صدد قرار هائل ينطوي على المسؤولية،

ذلك اليقين الأخير، يقين الله ويقين الذات، الذي يباهي به الآخرون: «وإذا كان تسـفـينغلي وبوسَر يملكون هذا الروح، فإراسموس ليس إلاّ بشراً، وهو لا يستطيع أن ينصِت، أو يسترق لغة الفكر». وذلك أن ابن الخمسين حَوّلاً الذي حظي منذ عهد بعيد بنظرة عميقة في مسألة امتناع المشكلات الربانية على النفاذ إليها، يشعر أنه غير مندوب لأن يكون الناطق بلسان طرفٍ ما في هذا النزاع، فهو لا يريد أن يسدي خدمة بهدوء وتواضع إلاّ هناك حيث يسود الوضوح والصفاء الأبديّ، في العلم، وفي الفن. وهكذا يهرب من اللاهوت، ومن سياسة الدولة، ومن الشقاق الكنسي، إلى حجرة دراساته، ومن المشاحنات إلى صمت الكتب الجليل، فهنا مازال في وسعه أن يكون ذا نفع للعالم. وإذاً فَلْتَعُدْ إلى صومعتك أيها الشيخ، ولْتُسْدِل الستائر على نوافذك، في وجه الزمن ! ولْتَدَع الكفاح للآخرين، الذين يشعرون بنداء الرب في قلوبهم، ولْتُتابع المهمةَ الأهدأ، مهمة الدفاع عن الحقيقة، في جَوِ الفن والعلم، الأكثر صفاءاً. «وإذا كانت العادات التي فسدت لدى رجال الإكليروس الروماني تقتضي علاجاً استثنائياً فليس من شأني ولا من شأن أمثالي أن ندعي امتلاك المقدرة على الشفاء. وإني لأوثر أن احتمل وضع الأشياء على ماهي عليه، على أن أثير اضطراباً جديداً يتوجَّه في كثير من الأحيان نحو الهدف المعاكس. لقد كنت من أهل المعرفة والاطلاع، ولن أكون أبداً قائداً لتمرُّد أو عصيان، أو مشاركاً فيهما ».

لقد انسحب إراسموس من النزاع الكنسيّ إلى الفن، وإلى العلم، إلى عمله الخاص، وهو يشعر أنه يشمئز من هذا الزعيق والتكالب والتشاحن

بين الأحزاب، فهو ما عاد يريد سوى الهدوء، الصفاء والفراغ، وخلوّ البال المقدّس عند الفنان، ولكن العالم آلى على نفسه أنْ لا يدعه يخلد إلى الهدوء. وهناك عصور يُعَدُّ الحياد فيها جريمة، ففي اللحظات المستثارة من الناحية السياسية يطالب العالم بتأييد صريح أو معارضة صريحة، فإمّا أن يكون المرء مع لوثر وإمّا أن يكون مع البابا، ثم إن مدينة لوفن التي يقيم فيها تجعل السلوك السلميّ صعباً عليه. وفي الوقت الذي تنحي فيه ألمانيا الإصلاحية كلها على إراسموس باللائمة، لأنه صديق فاتر الصداقة، للوثر، إلى حد التفريط، تناصبه العداء هنا الكلية الكاثوليكية الصارمة، وتسميه «مُدَبِّر الوباء اللوثري». ثم إن الطلاّب الذين يشكّلون على الدوام قوة الصدام في حركة متطرّفة، ينظمون مظاهرات صاخبة ضد إراسموس وينكّسون منبره التعليمي، وفي الوقت ذاته يشتد التحمُّس ضده على المنابر، ويضطر مبعوث البابا، ألياندر إلى تعبئة كل سلطته لكي يقمع، على الأقل، الشتائم العلنية الموجَّهة إلى زميله القديم. على أن الجرأة لم تكن أبداً من طبائع إراسموس، وهكذا يفضّل أن يهرب بدلاً من أن يناضل ويكافح. ومثلما كان في العادة يفرُّ من الطاعون، يفرُّ فَرَقاً مِن الكراهية، ومن المدينة التي لبث يمارس عمله فيها على مدى السنين. ويحزم البدوي الشيخ أمتعته القليلة، ويضرب في الأرض. «لا بُدَّ لي أن أكون على حذر لكيلا أُمَزَّق إرَباً إرباً من قبل الألمان قبل أن أغادر ألمانيا». ويظل الرجل غير المتحزِّب يخوض على الدوام غمار أكثر المشاحنات مرارة.


ERASMVS.

وما عاد إراسموس يريد أن يقطن مدينة كاثوليكية صريحة، ولا مدينة إصلاحية، بل كانت المحايدة فحسب هي مجاله الملائم لقَدَرِه. وهكذا يحاول أن يلوذ بمعقل كل استقلال، بسويسرا. وتغدو مدينة بازِل (بال) الآن المدينة المصطفاة عنده على مدى كثير من السنين. ولما كانتْ واقعة في النقطة المحورية من أوروبا، وهادئة نبيلة، نظيفة الشوارع، وأهلوها هادئون لا تَجْمَحُ بهم الأهواء والعواطف، ولا تَتْبَعُ لأمير متلّهف على الحرب، بل هي حرة ديمقراطية، فهي تَعدُ المثقف المستقل بالهدوء الذي يتوق إليه. فهنا يجد جامعة وأصدقاءً ذوي ثقافة رفيعة، يعرفونه ويقدّرونه، وهنا يجد الخادمات، مساعداتٍ لطيفات، من أجل عمله، وهنا يجد فنانين، مثل هولباين، ولا سيما فروبنِ، الطابع الناشر، هذا الأستاذ الكبير في صناعته، الذي ربطه به منذ سنين، عمل مشترك باعث للسرور، وعن طريق همّة المعجبين به يُعْرَض عليه منزل مريح، ولأول مرة يحسُّ ذلك المطارد هنا وهناك، بشيء كشعور المرء بأنه في وطنه في هذه المدينة الحرة التي يطيب سكناها. وهنا يستطيع أن يعيش من أجل الفكر، أي أن هذا عالمه الحقُّ والفعليّ، وهو لا يقدر على الشعور بالارتياح إلاَّ حيث يستطيع أن يكتب كتبه بهدوء، وحيث تُطْبَع بعناية. وتغدو بازل نقطة الاستراحة الكبيرة في حياته. هنا عاش الرحالة الخالد أطول مما عاش في أي مكان آخر، ثماني سنوات كاملة. وعلى مر الزمن ارتبطت هذه الأسماء بعضها ببعض ارتباطاً مجيداً: فما عاد في وسع المرء منذ

ذلك الوقت، أن يتصوَّر إراسموس من دون بازل، ولا أن يتصور بازل من دونه. وهنا مازال ينتصب حتى اليوم منزله تحت الرعاية والحراسة الحسنة، وهنا تحفظ بعض تصاوير هولباين التي حملت محيّاه إلى الخلود، وهنا كتب إراسموس كثيراً من أجمل رسائله، ولا سيما «الأحاديث» (colloquia)، هذه المحاورات اللاتينية المتوهِّجة، التي كانت في الأصل مخصصة لفروبنِ الصغير لتكون قطعاً تعليمية ثقَّفت أجيالاً بأسرها في فن النثر اللاتيني. وهنا يستكمل الطبعة الكبرى لآباء الكنيسة، ومن هنا كان يبعث بالرسالة إثر الرسالة إلى أرجاء الدنيا. وهنا يبدع، متحصّناً في قلعة العمل، بعيداً عن الجلَبة وألوان التزاحم، العملَ بعد العمل، وكان عالَمُ أوروبا الفكر إذا نظر إلى زعيمه، أطلَّ ببصره على ما وراء المدينة الملكية القديمة، على الراين.
وتتحوّل بازل، عن كريق إراسموس، في تلك السنين إلى حاضرة للفكر الأوروبي، وتجتمع حول المثقف الكبير سلسلة من التلاميذ الإنسانيين، مثل أوكولامباديوس وريتانوس وآمرِباخ، وما من رجل له شأنه، ولا أمير، ولا مثقف، ولا صديق محبٍّ للفنون الجميلة تفوته زيارة مجاملة لمطبعة فروبن ولمنزله (تسوم لوفت) ويُقبِل الإنسانيون، من فرنسا وألمانيا وإيطاليا، في مثل رحلة حج ليروا الرجل الموقَّر وهو يمارس عمله، ويبدو كأنما خُلِق هنا، مرة أخرى، في جَومِن السكون، بينما كان النزاع اللاهوتي تستعر ناره في «فيتنبرغ» «وزوريخ» وفي كل الجامعات، للفنون والعلوم، ملاذ أخير.

ولا يَغرَّنْكَ هذا أيها الشيخ، فقد ولى عصرك الحقيقي، وباتت أرضك يباباً، وبات الكفاح في الدنيا كفاحاً من أجل الحياة أو الموت، وأصبح الفكر متحيّزاً، متحزّباً، وبات الناس ينضم بعضهم إلى بعض في عصابات يناصب بعضها بعضاً العداء. وهاهو ذا كفاح عالمي تدور رحاه من أجل التجديد الإنجيليّ أو ضده، وما عادوا يتسامحون مع الحر المستقل الذي ينتحي جانباً أو ينتبذ مكاناً قصيّاً. الآن، ما عاد يُجدي أن توصد النوافذ، وأن يهرب المرء فيتوارى وراء الكتب. الآن، إذ مزّق «لوثر» العالم المسيحيّ، من إحدى نهايتَيْ أوروبا إلى النهاية الأخرى، ما عاد يمكن للمرء من بعدُ أن يدُسَّ رأسه في الرمال ثم يحاول الهرب على طريقة الأطفال، ولو فعل فما قرأ أعماله. والآن تثور، عن اليمين وعن الشمال ثائرة عبارة القسْر: «مَنْ لم يكن معنا فهو علينا» وعندما ينقسم عالم إلى شطرين يسري الصدّع خلال كل إنسان على حدة. كلاّ، يا إراسموس، فلقد كان من قبيل العبث هربُك، ولسوف يخرجك القوم من قلعتك بالحرائق إذ يعرّضونك لدخانها. فهذا العالم يريد مذهباً معيناً، إنه يريد أن يعرف أن يقف إراسموس، زعيمهم الفكري، أهو مع لوثر أم ضده، أهو مع البابا أم ضده.

والآن تبدأ مسرحية تزلزل النفوس. فالعالم يريد، على وجه الإطلاق، إنساناً تَعِب من القتال يَزُجُّ به في حمأة المعركة. ويشكو الرجل في عامه الخامس والخمسين، قائلاً: «إنه لمن سوء الحظ أن هذه العاصفة

التي تعصف بالعالم فاجأتني على وجه الخصوص في لحظة استطعت فيها أن آمل راحة استحققتها بعملي الكثير، لماذا لا يسمحون لي أن أكون مجرد متفرج أثناء هذه المأساة، وأنا الذي لا يلائمني البتة أن أكون ممثِّلاً فيها، ما دام هناك الكثير من الآخرين الذين ينقَضّون على المشهد انقضاض الراغب المتلِّهف؟». غير أن الشهرة تتحوّل في أمثال هذه الأيام العصيبة إلى التزلم، وإلى لعنة. وذلك أن رجلاً مثل إراسموس موضوع في مواجهة الفضول العالمي بدرجة أكبر، وكلمته تتميز بأهمية أكبر من أن تجعل أهل الأحزاب عن اليمين وأهل الأحزاب عن الشمال يتخلّون عن مرجعيَّته. ويخرج القادة من كلا الجانبين، ويجّرونه بكل الوسائل ليظفروا به من أجل قضيَّتهم، فيغرونه بالمال وألوان التزلف والتملُّق، ويسخرون منه، قائلين إنه يفتقر إلى الجسارة، ليخرجوه عن صمته الفائق الذكاء، ويُفزِعونه بالخبر الكاذب، ومفاده أن كتبه حُظِرت وأحرقت في روما، ويزوِّرون رسائله، ويحرِّفون كلماته. وفي مثل هذه اللحظة تتضح القيمة الحقَّة لإنسان مستقل على نحو رائع. ذلك لأن الامبراطور والملوك، وثلاثة من البابوات، وعلى الجانب الآخر لوثر، وميلانكتون وتسـفـينغلي، وكل هؤلاء يلتمسون الآن كلمة موافقة من إراسموس، لقد كان في وسعه أن يصل إلى كلِّ ما في الدنيا لو أراد أن ينضم إلى هذا الحزب أو ذاك: فهو يعلم أنه يستطيع «أن يتبوأً مكاناً له في الصف الأول في حركة الإصلاح الديني» إذا ما أعلن إيمانه بعقيدتها

بوضوح، ويعلم، من ناحية أخرى، أنه «كان في وسعه أن يحصل على أسقفيّة لو كتب ضد لوثر». ولكن هذا الالتزام المطلق، من دون قيد ولا شرط، وأحادية الجانب في الاعتقاد، كانا على وجه الخصوص هما اللذان يرتعد منهما صدقُ إراسموس واستقامته. فهو لا يستطيع أن يدافع عن كنيسة البابا بقلب سليم، أو بضمير مرتاح، لأنه كان أوّل من عاب عليها تقاليدها السيئة في إطار هذا النزاع، وطالب بتجديدها، غير أنه لا يريد، أيضاً، أن يلتزم كل الالتزام تجاه الإنجيليين، لأنهم لا يحملون فكرة مسيح السلام إلى العالم، التي كان يحملها، بل تحوّلوا إلى متعصبين مغالين في التعصب. «إنهم يصرخون بغير انقطاع: الإنجيل، الإنجيل!» غير أنهم يريدون أن يكونوا، هم أنفسهم المفسّرين له. لقد كان الإنجيل، فيما سلف، يجعل من الوحوش أناساً ذوي رقة ودماثة، ومن اللصوص أناساً مُسْعِفين أولي مروءة، ومن المولعين بالمشاحنات مُوادِعين، ومن اللعّانين مباركين، غير أن هؤلاء يستهلّون، كالممسوسين، ألواناً من الفتن والقلاقل فظيعة، ويشنّعون على الوبال الذي يحل بالناس وهم مستحقون له بلا ريب. وإني لأرى منافقين جداً، وطغاة جداً، غير أني لا أرى شرارة من الفكر الإنجيلي ». كلاّ فإن إراسموس لا يريد أن يدين بالتبعية العلنية لأيّ مِن هذين، لا يريد البابا ولا لوثر بل يريد السلام فحسب، السلام، ثم السلام، والانتحاء جانباً والسكينة، ومجرد العمل الذي ينفع البشرية بأسرها:

« consulo quieti meae »

ولكن شهرة إراسموس كانت أكبر، وكان التربُّص به إلى أن تتجلىً عقيدته أكثر مشاكسة وجموحاً وكانت تتزايد النداءات من العالم بأسره، تهيب به أن يتقدَّم، قائلة إن عليه أن يدلي بالقول الفصل عن نفسه وعن الناس جميعاً. أما مدى عمق الجذور التي ضرب بها، في كل الوسط الثقافي، الإيمانُ به، فكراً نبيلاً نزيها، فذلك ما يتبيَّن من نداء يزلزل النفوس، من أعمق أعماق وجدانِ ألمانيٍّ كبير. وكان ألبرشت دورَرْ قد تعرف، في طريقه إلى هولندا، على إراسموس، وبعد أشهر قلائل، حين انتشرت شائعة تفيد أن لوثر، قائد القضية الدينية الألمانية قد مات، رأى دورَرْ في إراسموس الوحيد الذي كان لائقاً بما فيه الكفاية، ليواصل النهوض بعبء القضية المقدسة. وفي غمرة الزلزلة التي انتابت نفسه ينادي إراسموس، في يومياته بالكلمات التالية: «أيْ إراسْم روتردام، أين تريد أن تبقى؟ فلتسمع، يا فارس المسيح، ولتتقدَّم الصفوف، على جوادك، إلى جانب السيد المسيح، ولْتَحْمِ الحقيقة، ولْتَحْظَ بتاج الشهداء: فما أنت، فيما عدا هذا، إلا رجل ضئيل شيخ، ولقد سمعت منك، أنت، أنك تُقَدِّر لنفسك بعدُ عامين من العمر تكون فيهما صالحاً لعمل شيء ما، فَلْتَستَثْمِر هذين بربك! في خدمة الإنجيل والإيمان المسيحي الصحيح، بالله، ثم فلتبلغني بأخبارك وبذلك لن تستطيع أبواب الجحيم، أو الكرسي البابَوِيّ في روما، أن يفعل شيئاً حيالك، كما يقول المسيح... أَيْ إراسَموس، فَلْتذكر هنا أنني أشيد بك أمام الله وأقول فيك ما ورد في الكتاب عن داوود، عند ذلك تستطيع أن تفعل حق الفعل، تستطيع أن تصرع جالوت».

وهكذا يفكر دوَرِرْ، ومعه الأمة الألمانية بأسرها. ولكن لم يكن يقلُ عن ذلك ما تؤمّله الكنيسة الكاثوليكية في محنتها. من إراسموس ويكتب ممثل المسيح على وجه البسيطة، البابا في رسالة بخط يده، تذكيراً مماثلاً مماثلة حرفية تقريباً: «فلتتقدّم الصفوف، ولْتَتَقَدَّمْ لمساندة قضية الرب! ولْتَبْذُل مواهبك الرائعة من أجل مجد الرب! ولْتُفكر في أن الأمر يرجع إليك، بمعونة الله، عندما يعود الشطر الأكبر من أولئك الذين أغواهم لوثر، إلى الطريق القويم من جديد، وعندما يظل أولئك الذين لماَ ينسلِخوا من الدين، متمسّكين به، وتتم وقاية أولئك الذين يوشِكون أن يسقطوا من السقوط!». وإن سيد المسيحية وأساقفته، وحكام الدنيا، «هنري الثامن، ملك إنكلترا، وشارلكان وفرانسوا الأول، وفِرديناند امبراطور النمسا، ودوق بورغنديا، ومن الناحية الأخرى، قادة الإصلاح الديني، كل هؤلاء يقفون أمام إراسِموس بإلحاح ورجاء، مثلما وقف، في غابر الأزمان، الأمراء الهوميريّون، أمام خيمة أخيل الغاضب، لكي يقلع عن وقوفه مكتوف الأيدي ويزجَّ بنفسه في المعركة. وإن هذا لمشهد لرائع: فمن النادر في التاريخ أنْ يُنالَ من جبابرة الأرض، من أجل كلمةٍ من إنسان فرد، من أهل الفكر مثلُ مانال إراسموس، ومن النادر أن يُثْبِت تفوّق السلطان الفكري على السلطان الدنيويّ حسن بلائه، بهذا القدر من الظّفَر. ولكن هنا يتجلىّ التصدُّع الخفيّ في مَعْدِنِ إراسموس، فهو لا يدلي لكل هؤلاء الذي يخطبون ودّه

ويلتمسون الحُظْوة عنده، بما يشير إلى شيء واضح، أو شيء بطوليّ: إذ يقول: «لا أريد»، فهو لا يستطيع أن يغالب نفسه لينطِق بكلمة صريحة واضحة، بكلمة لا، إن لا يريد أن يكون مع حزب من الأحزاب: وهذا يُشَرِّف استقلاله في قرارة نفسه، ولكن من المؤسف أنه يريد في الوقت ذاته أن لا يفسد علاقته بأيّ طرف، وهذا أمر يُجرِّد موقفه الصحيح صحة مطلقة، من الكرامة والاعتبار، لأنه لا يجرؤ على مقاومة صريحة مكشوفة في مواجهة هؤلاء الرجال الجبابرة، الذين هم أولياء نعمته، والمُعْجَبون به والمساندون له، بل يصدُّهم جميعاً بمعاني غير واضحة، فهو يروغ منهم ذات اليمين وذات الشمال، ويتفادى الريح العاصفة بالسير في خط متعرِّج كما تفعل السفن الشراعية إذ تسير في عكس اتجاه الريح، ويطيل المناقشة بكثرة الأخذ والردّ، ويلفُّ ويدور، اجتناباً للطعنة كما يفعل الفرسان في المبارزة – ولا بُدّ للمرء هنا أن يتعمَّد اختيار أكثر الكلمات اصطناعاً على الإطلاق، ليجسِّد الجانب المصطنع في موقفه – فهو يَعدِ ويتردد ويؤجل، ويكتب كلماتٍ مُلْزِمة، من دون أن يرتبط، ويعتذر بالمرض تارة، وبالتعب تارة أخرى، وسَرْعان ما يعتذر بعدم الاختصاص عن تحفُّظه. أما البابا فيجيبه بتواضع مبالغٍ فيه: كيف؟ أوَ ينبغي له هو، ذو العقل المتواضع إلى هذا الحد، وهو الذي تعدُّ ثقافته دون المستوى المتوسط، أن يجرؤ على اقتحام المَهول، ويستأصل الهرطقة؟ وأمّا ملك إنكلترا فيماطله من شهر إلى

شهر، ومن عام إلى عام، ويهدِّئ، في الوقت ذاته، وعلى الجانب المقابل، ميلانكتون وتسـفـينغلي برسائل تنطوي على التملُّق والزلفى ويجد المئات من أشكال التهرُّب، ويخترعها، كما يجد المئات غيرِها، وغيرها، على الدوام، ولكن كان يستكن وراء كل هذا التلفيق للأحابيل، إرادة مُصَمِّمة: «حين لا يستطيع امرؤٌ أن يقدِّر إراسموس لأنه يبدو له مسيحياً مصاباً بالوَهْن، فليتصَوَّرْني في أية صورة تروق له، فأنا لا أستطيع أن أكون امرءاً آخر غير الذي كُنتُه حتى الآن وإذا كان امرؤ آخر آتاه المسيح مواهب أكبر في الفكر وكان أكثر مني ثقة بنفسه فليستعمل هذه المواهب في سبيل مجد المسيح. فإن مما ينسجم مع طراز تفكيري بدرجة أكبر، أن أسلك طريقاً أَهْدَأَ وأكثر أمناً، ولا أستطيع سوى أن أكره الانقسام وأن أحب السلام والتفاهم، لأنني أدركت مدى إظلام كل الشؤون البشرية، وأنا أعرف كم سيكون نبش البلبلة والفوضى أسهل على المرء من دفنهما، ولمّا كنت لا أَثِق لعقلي الخاص بالمقدرة في كل الأمور، فأنا أفضل أن أتجنَّب الإعراب بثقة كاملة عن رأيي في طراز تفكير امرئ آخر، وستكون رغبتي هي أن يكافح الناس جميعاً، معاً، من أجل انتصار القضية المسيحية وإنجيل السلام، وذلك من دون ممارسة للعنف، وبروح الحقيقة والعقل فحسب، بحيث نتفاهم، سواءاً في صدد كرامة الكهنة، أم في صدد حرية الشعب الذي كان سيدنا المسيح يريده حراً. ولن يقف إراسموس مسروراً إلاّ

إلى جانب أولئك الذين يعملون في اتجاه هذا الهدف على قَدْرِ أفضل ما يتوافر لديهم من طاقات، ولكن حين يرغب أي امرئ في توريطي في بلبلةٍ ما فلنَ يَحظى بي، لا قائداً، ولا رفيقاً».

ويظل تصميم إراسموس يستعصي على المطاوعة، ويظل سنوات، وسنوات، يدع الامبراطور والملوك والمصلحين، ولوثر، وميلانكتون، ودورَرْ، وكل العالم المقاتل الكبير، ينتظرون وينتظرون فلا ينجح واحد منهم في انتزاع كلمة حاسمة منه، فشفتاه تبتسمان بأدب لكل امرئ، غير أنهما تظلان تعاندان، موصَدَتَين، دون الكلمة الحاسمة الأخيرة.

ولكن كان هناك واحد لا يريد أن ينتظر، محاربٌ حامي الوطيس، نافد الصبر، من أهل الفكر، قد صمَّم تصميم الشامِس الجامح، على أن يحطم هذه العقدة الغورديونية[1] المُحكمة: وهو أولريش فون هوتِّن. وكان هذا «الفارس الذي تحدى الموت والشيطان»، هذا الذي يمثل الملاك ميكائيل في الإصلاح الديني الألماني، ينظر إلى إرلسموس نظرة المؤمِن المحب، كما ينظر المرء إلى والده. ولما كان تيفانى في الحركة الإنسانية بعاطفة جامحة، فقد كانت أمنية الفتى التي يتوق إلى تحقيقها أكثر مما يتوق إلى أية أمنية سواها، أن يكون «ألكيبيادِس هذا السقراط»[2] ووضع

(1) نسبة إلى مدينة غورديون التي واجه فيها الاسكندر عقدة لم يستطع حلها إلا بقطعها السيف .

(2) Alkibiades : سياسي وقائد من أثينا (٤٥٠ – ٤٠٤ ق.م)، عبقري، ولكنه أناني، حفَزَ إلى الحملة المأساوية على صقلية «المترجم».

حياته كلها، فِعْل الواثق، في يد إراسموس، «وعلى وجه الإجمال، فلكي تحفظني الآلهة، ولتبقى لنا مجداً لألمانيا، أنا خليق أن أرفض كل شيء لكي أستطيع أن أظل معك». وقد شجَّع إراسموس، المستعد في كل وقت لتقبُّل الإعجاب، بدوره، هذا الفتى الفريد من نوعه، والأثير عند آلهة الشعر» بأرق مشاعره وأحناها، ونَمّى ألوان مقدرته، وأحب هذا الشاب المتوهِّجَ الذي قذف بهتاف التهليل الذي لا يُسْبَر غوره، مثلما يُقْذَف بقُبُرة حديدية في السماء: « Osaeculum ,olitterae ! jwrat vivere! » وهذا الذي أسعده أنه مفعم بالثقة: « ألا إن الحياة لمتعة!».

وقد كان يأمل، صادقاً، مصمماً على الفعل، أن يربّي في هذا الباحث الفتى أستاذاً جديداً من أساتذة علوم الدنيا، ولكن سَرعان ما اجتذبت السياسة الفتى هوتِن، وبات يضيق ذرعاً بهواء حجرة الدراسة ومجموعة الكتب القديمة العائدة للحركة الإنسانية، شيئاً فشيئاً، بل بات جوّه رطباً خانقاً لا يُحتَمل، ويعود الفارس الشاب، من جديد، إلى ارتداء قفّاز القتال، فما عاد يريد الاقتصار على حمل القلم، بل يريد أيضاً أن يرفع سيفه على البابا وعلى رهط القساوسة. وعلى الرغم من تتويجه بإكليل غار الشاعر اللاتينيّ، يطرح هذه اللغة الأجنبية العسيرة المتناوَل، جانباً، ليقتصر، بعد ذلك، على استحضار العصر الملائم للإنجيل الألماني، بالسلاح، وبالكلمات الألمانية:

أما اللاتينية فقد كتبت بها من قبل،

ولم يكن يعرفها كل قارئ

وأما الآن فأجأر بالصراخ، إلى الوطن

ولكن ألمانيا تطرد الفتى الجسور، وفي روما يهمُّ القوم بإحراقه، على أنه هرطيق. ويجرٌّ الفتى الذي لم يكد يبلغ الخامسة والثلاثين، قدميه، بآخر ما تبقى من قواه، إلى بازِل، مطروداً من منزله وأرضه، قد افتقر وشاخ قبل الأوان، وأتت عليه العِلّة الفرنسية الرهيبة حتى عظامه، وغَشَّت جسمه القروح، وَحْشاً نصف ممزَّق، قد وصلت الجروح إلى أحشائه، فهناك يقيم صديقه الكبير، «ضوء ألمانيا»، ومعلمه، وأستاذه، وحاميه، إراسموس، الذي أشار إلى مجده، والذي تصحبه صداقته، والذي نمَّت توصياته ألوان مقدرته، هو الذي يدين له بالفضل بقدر لا يُستهان به من طاقته الفنية نصف المدمَّرة، التي حسب الناس أنها ضاعت، إليه يفزَع هذا الطريد الشيطاني، قُبَيْل الهلاك، ناجياً من سفينة غَرِقَت، قد التقطته موجة داكنة، فأمسك باللوح الأخير من السفينة.

ولكن إراسموس - ولم يتكشَّف توجُّسُه وفَرَق نفسه المؤسِفان عارِيَيْنِ عُرْياً أكثر مما حدث في هذا الامتحان الذيُ يُزَلزِل النفس، لا يَدَع المنبوذ يدخل منزله، وقد كان هذا المشاكس الأبدي، والمتبرِّم العَيّاب بغيضاً إليه، لا تستريح إليه النفس، ومنذ أن كان في لوفــِن، حين طالبه هوتَّن قائلاً إنه ينبغي للمرء أن يعلن حرباً صريحة على القساوسة رفض بحدَّة، قائلاً: «إن مهمتي أن أرعى قضية الثقافة». إنه لا يريد أن تكون له علاقة بهذا المتعصب الذي ضحى بالشعر من أجل السياسة، بهذا الذي

هو« لوثر البيلاديسي »[1] ، لا يريد هذا في العلانية على الأقل، ولا يريده، من باب أولى، في هذه المدينة، التي تطل عليه فيها مئات العيون، من النافذة. كان إراسموس يخاف من هذا الإنسان المطارَد الذي يبعث حاله على التفجُّع، والذي قتلت المطاردة شطراً منه، وكان يساوره خوف ثلاثي الجوانب، وأوّل ذلك هو أن هذا الناقل للطاعون - ولم يكن إراسموس يخاف من شيء خوفاً شديداً كخوفه من العدوى - يستطيع أن يتقدم بالتماس السماح له بالإقامة في منزله، وثانيه أن هذا المتسوّل، المجرَّد من كل مُلْك أو متاع، سيقع عِبؤه بعد ذلك عليه، على نحو دائم، وثالثه أن هذا الرجل الذي يشتم البابا والذي استفَزَّ الأمة الألمانية إلى الحرب على القساوسة (الكاثوليك)، خليق أن ينتقص من نزاهته وبعده عن التحزُّب، الذي يحمله ظاهراً للعيان، وهكذا يصُدُّ زيارة هوتن رافضاً لها، والحق أنه لا يفعل ذلك، تبعاً لأسلوبه، بعبارة صريحة حاسمة، كقوله: «لا أريد هذا». بل يفعله مقروناً بأعذار تافهة. إذ يقول إنه لا يستطيع أن يستقبل هوتن في حجرته المدفّأة بسبب معاناته من داء الحصى ومغص الأمعاء، وحاجته من جرّاء ذلك إلى دفء الحجرة، غير أنه لا يطيق هو ذاته. أيَّ دخانٍ من المدفأة، وهذا مهرب واضح، أوهو بالأحرى مهرب يبعث على الأسى البالغ.

---

(١) نسبة إلى بيلادِس الذي صادق أوريست وصَحِبَه في جولاته ، وفي النهاية تزوج أخته إلكترا .

والآن ننشأ، أمام أعيُن العالم كله مسرحية هي مَجلَبة للعار. ففي بازل (بال)، المدينة التي كانت في تلك الأيام ما تزال صغيرة. ربما كان فيها، على الإجمال، مائة شارع، وساحتان أو ثلاث، حيث يعرف كلٌ من أهلها الآخر، يعرج، طوال أسابيع، مريض يستحق الرثاء، هو أولريش فون هوتّن، الشاعر الكبير، القَنُّ المأساوي عند لوثر، وفي حركة الإصلاح الديني الألماني، متنقِّلاً بين الأزِقَّة والفنادق، وما يفتأ يمرُّ المرة بعد الأخرى بالمنزل الذي يقيم فيه صديقه الغابر، المُساند الأول للقضية الإنجيليه ذاتها، وباعثها. وفي بعض الأحيان يقف في ميدان السوق ويرسل بصره، المشحون بالغضب، صوب الباب الموصد بالرتاج، وصَوْب نوافذ الرجل المغلَقة في خوف، نوافذ الرجل الذي زفَّه إلى العالم، فيما سلف متحمساً، على أنه «لوقيان الجديد»[1] وشاعر العصر الهجّاء الكبير. ووراء مصاريع النوافذ الموصدة بلا رحمة، يقعد إراسموس، الرجل الضئيل الهزيل الشيخ مثل قوقعة في المنزل، ولا يستطيع أن يتوقَّع أن يغادر أخيراً هذا المعكِّر لصفو الهدوء والنظام، هذا الثقيل، جوّاب الآفاق، الشريد، لأن هوتّن مازال ينتظر بعدُ لعل الباب ينفتح، وتتوجَّه نحوه الصداقة القديمة لتسعفه آخر الأمر بإخراجه من بؤسه. ولكن إراسموس يُخلِد إلى الصمت، ويصدُّه بضمير لا حياة فيه، مستخفياً في منزله، بغية الاحتياط لنفسه.

---

(1) Lukian : شاعر يوناني، من ساموساتا على الفرات (١٢٠ ــ ١٨٠) اختص بالتهكم على مثالب عصره .

وأخيراً يرتحل هوتّن، مسمَّم الدم، وقد بات الآن مسمَّم القلب أيضاً، وينتقل إلى زوريخ، حيث تسفينغلي، الذي يستقبله غير هيّاب، ويظل يجُر قدميه، بشقّ النفس، من سرير مرض إلى سرير مرض، ولن يمتد به الأجل بعدُ سوى بضعة شهور، إلى أن يجّهز القوم قبره في جزيرة أوفيناو، ولكن قبل أن يهوي هذا الفارس الأسود، يرفع سيفه الذي تحطّم شطره، من دون خوف، ولا تقريع، للمرة الأخيرة، ولكي يصيب بما تبقىّ منه على الأقل، إراسموس إصابة قاتلة ليقتل، هذا المؤمن، المبالغَ فـي الحيطة والحذر الـذي يأبى أن يؤمن. وبرسـالة غضب رهيب «Expostulatio cum Erasmo». ينقضّ على الصديق الغابر، والقائد السالف، ويتّهمه، أمام العالم كله بحب الشهرة الذي لا يشبع ولا يرتوي، والذي يجعله يشعر بالحسد حيال السلطان المتنامي لرجل آخر (في إشارة إلى طعنه في سكسونيا، موطن لوثر)، ويتهمه باستحالة الركون إليه والاعتماد عليه إلى حد يبعث على الأسى البالغ، ويصب وابلاً من اللعنات على عقلّيته، ويصرخ متفجّعاً راثياً للأرض الألمانية كلها، ويقول إن إراسموس خان القضية الوطنية، اللوثرية، وعلى الرغم من تبعيّته لها في قرارة نفسه، تخلّى عنها في ساعة الشدة وخانها خيانة شائنة. ومن سرير موته يهيب بإراسموس بكلمات ملتهبة قائلاً: فليهاجم النظرية الإنجيلية بصراحة، على الأقل مادام لا يتمتع بالجرأة الكافية للدفاع عنها، لأن القوم في صفوف الإنجيليين ما عادوا يهابونه منذ عهد بعيد. فلتُسرِج حصانك، لأن القضية نضجت للفعل، وإليك هذه المهمة،

اللائقة بسِنِّك المتقدم، استَجْمع كل قوتك ووجِّهْها إلى العمل، ولسوف تجد خصومك قد اتخذوا أُهبتهم، وهاهو ذا حزب اللوثريين الذي تودُّ أن تزيله عن وجه البسيطة ينتظر القتال، ولن يَأْباه عليك ». وفي معرفة عميقة بالفصام الخفّي عند إراسموس، يتنبأ هوتِّن لخصمه بأنه لن يكون ندّاً لخصومه في مثل هذا القتال، لأن ضميره يعطي الحق للوثر في كثير من الأمور. «إن جزءاً منك لن يتوجه ضدَّنا بمقدار ما يتوجه ضد ما سلف من كتاباتك أنت، وسوف تكون مضطراً إلى أن توجه معرفتك ضد نفسك ذاتها، وإلى أن تكون فصيحاً، ذَرِب اللسان ضدَّ ما سلف من فصاحتك وطلاقة لسانك، ولسوف تقاتل كتاباتكُ السابقة بعضُها بعضاً».

وأحَسَّ إراسموس على الفور بقسوة الضربة. ولم يكن رفع عليه عقيرته بالسّب والمَعْيَرة حتى الآن إلاّ أناس ضئيلو الشأن، كما أشار بعض الكَتَبة الحانقين عليه إلى أخطاء في ترجمته غير ذات شأن، وإلى ألوان من الشطحات والشطط، والشواهد غير الصحيحة، وكان مجرد وخزات اليعاسيب هذه، غير الخطيرة يثير الاضطراب في نفس الرجل المرهف الحس. غير أنه كان يتعرَّض هنا، أوَّل مرة، لهجوم من قبل خصم حقيقي، ولِتَحَدٍّ من قبل ألمانيا بأسرها. وفي غمرة فزعه الأولى يحاول إزالة وطأة ضغط رسالة هوتنّ، التي كان يتمُّ تداولها مخطوطةً فحسب أول الأمر، ولكن حين لايصيب نجاحاً في هذا يتناول قلمه غاضباً ويجيب برسالة عنوانها باللاتينية (Spongia adversus aspergines Hutteni)

(لكي نمحوَ بالاسفنجة مآخذ هوتن): ويردُ على القسوة بمثلها، ولايَرْعوي، في غمرة هذا الكفاح المرير، عن تسديد ضرباته إلى ماتحت الحزام، حيث يعلم أن هوتن مصاب بجروح قد أصابت منه مَقْتَلاً، في أربعمائة وأربع وعشرين فقرة، مستقلة، ينقضُ كل مأخذ على حِدة، لكي يُدلي في النهاية، باعتراف قوي واضح - وإراسموس يكون على الدوام عظيماً، حين تتصل المسألة بالأمر الحاسم عنده، بالاستقلال: «لقد صرَّحتُ، في عَدَد جمٍّ من الكتب، وفي عدد جمٍّ من الرسائل، وفي عددٍ جمٍّ من المجادلات والمساجلات، في ثبات لاتلين له قناة، أنني لا أريد التدخل في أية قضية كانت من قضايا الأحزاب، وإذا كان هوتن يستثير غضبي لأنني لا أساند لوثر كما كان هو يرغب، فقد صرَّحت، قبل ثلاث سنوات، علانية، بأنني غريب عن هذا الحزب كل الغربة وأريد أن أظل مقيماً على هذا، بل أعلنت أنني لن أظل خارجه وحدي، بل كنت أشجع كل أصدقائي أيضاً على اتخاذ هذا الموقف، ولن أتذبذب في هذا الاتجاه، فأنا أفهم من كلمة الحزب (أو التحزُّب)، الالتزام الكامل بما كتبه لوثر أو يكتبه، أو سيكتبه في أي يوم من الأيام، ومثل هذا الأسلوب في التضحية الكاملة بالذات، يَرِدُ أحياناً عند الممتازين من البشر، أمّا أنا فقد أعلنت لكل أصدقائي، بصراحة، أنهم إذا كانوا لايستطيعون أن يحبّوني إلاّ وأنا لوثري مطلق، ففي وسعهم أن يتصوَّروني كما يشاؤون، فأنا أحب الحرية، ولا أستطيع أن أعمل في خدَمة حزب أبداً.»

على أن الضربة المقابلة القاسية ما عادت تصيب هوتّن، فحين تغادر رسالة إراسموس الغاضبة المطبعة يكون هوتّن، المناضل الأبديّ، قد رقد في مثواه الأخير، وإذا هدير الماء اليسير في بحيرة زوريخ يلفُ قبره الوحيد كأنما يغسله، لقد هزم الموت هوتن قبل أن تصل إليه ضربة إراسموس القاتلة، ولكن هوتن المنهزم الكبير يتاح له وهو يُحتَضَر، انتصار أخير بعد: لقد فرض مالم يقدر على فرضه الأباطرة ولا الملوك، ولا البابا ولا رجال الكهنوت بكل جبروتهم. فقد استخرج، بلسعة تهكُمه، إراسموس من وكْرِه الثعلبي، إذ نفث فيه بَخوره السام. ذلك لأن إراسموس الذي يواجه التحدي على الملأ، وُيتّهم، على رؤوس الأشهاد، بالخوف والجبن والتذبذب، يضطر إلى أن يعبِّر بوضوح، عن أنه لا يهاب مناقشة مع هذا الذي هو أقوى الخصوم قاطبة، مع لوثر ولابُدّ له أن يعترف بلَونه، وأن يتخذ لنفسه حزباً، ويقبل إراسموس على عمله بقَلْبٍ مثقل بالهمّ والغمّ، وهو الشيخ الذي ما عاد يريد شيئاً آخر سوى سلامه، ولا يخطئ في تصوُّره أن القضية اللوثرية أصبحت، منذ عهد بعيد أكثر شموخاً وجبروتاً من أن يتم القضاء عليها بقصبة ريشة. وهو يعلم أنه لن يقنع أحداً، ولن يغيِّر شيئاً أو يصلحه، ويزُجُّ بنفسه في المعركة التي فُرِضَت عليه، من دون رغبة منه فيها، ولا متعة، غير أنه ماعاد في وسعه أن يرجع القهقرى. وحين يسلِّم الرسالة ضد لوثر، آخر الأمر، في عام ١٥٢٤، إلى الطابع يتنفّس الصعداء: (Aea iacta est)، «لقد تقرَّر مصيري!»».

المساجلة الكبرى

والثرثرة الأدبية، أو «الدردشة» كما يقولون، ليست من خصوصيات عصر معين، بل تشيع في كل العصور، وحتى في القرن السادس عشر، إذ كان أهل الفكر لايشكلون إلاّ طبقة ضئيلة، وكانوا على مايظهر، متفرقين في البلدان دونما رابط بينهم، لايظل شيء في الخفاء، في هذا المحيط الذي يستبدُّ به الفضول أبداً، والذي تربط بين أطرافه شبكة دقيقة الخلايا، فقبل أن يضع إراسموس القلم، وقبل أن يستيقن على وجه الإطلاق، أنه سيدعى للمنازلة وقبل أن يعرف متى يكون ذلك، بات القوم في فيتنبرغ يعرفون ما يُخَطَّط له في بازل. ولقد كان لوثر يحسب، منذ زمن طويل حساباً لهذا الهجوم، وهو يكتب، منذ عام ١٥٢٢، إلى صديق، قائلاً: «الحقيقة أقوى من الفصاحة، والإيمان أكبر من التبُّحر في العلوم والثقافات. وأنا لن أتحدى إراسموس، ولا أفكر في الردّ على ضربته، إذا ما هاجمني، على الفور، ومع ذلك فإذا تجرّأ فسوف يعلم أن المسيح لايتولاّه الخوف، ولا أمام أبواب الجحيم، ولا من أقوى الأجواء. أريد أن أتصدّى لإراسموس الشهير، ولا أحفِل بسمعته، ولاباسمه، ولا بمركزه».

وهذه الرسالة التي كانت مخصَّصة، بحكم البدهية، لكي يتم إبلاغ إراسموس بها، تتضمن تهديداً، أو بالأحرى إنذاراً، ويحسُّ المرء من وراء الكلمات أن لوثر كان يودُّ، وهو في وضعه الصعب، لو يتفادى النزاع بالقلم، ويتدخل الآن، على كلا الجانبين، الأصدقاء للتوسط، ويحاول كلٌ من ميلانكتون وتسفينغلي، توطيد السلام مرة أخرى، من أجل القضية الإنجيلية، بين بازل وفيتنبرغ، وكان قد بدا أن جهدهم يسير على أفضل الطرق، وإذا لوثر يعقد العزم، خلافاً لما كان متوقعاً، على أن يوجه الكلمة إلى إراسموس ذاته.

ولكن ما أكثر ما تغيَّر الإيقاع منذ السنوات القلائل، حين كان لوثر يدنو من «الرجل الكبير» بتواضع مهذب، بل مفرط في التهذيب، وبانحناءة تلميذ! وذلك أن وعيه لمكانته الخاصة في تاريخ العالم، وشعوره برسالته الألمانية، كانا يضفيان الآن على كلماته تعبيراً وجدانياً ينبعث من جموح عاطفته، وما عسى أن يعني العدوُّ بعدُ بالقياس إلى لوثر، الذي بات يخوض الآن صراعاً مع البابا والإمبراطور، ومع كل دول الأرض؟ لقد شبع من تمثيلية التكتُّم، وهو لايريد انعدام يقين واتفاقاً فاتراً. «ينبغي للمرء أن يرفض الحديث غير المستيقن، والحافل بالشوك، والمذبذب، ويطوي صفحته، ويبعثره على الفور، ولايدعه يكون صالحاً». فلوثر يريد الوضوح، ولأول مرة يمدُّ يده إلى إراسموس غير أنها باتت يداً محمية بالقفاز الحديدي. ويكون للكلمات الأولى وقع مهذَّب، متحفِّظ: «لقد لبثت حتى الآن وقتاً طويلاً

بما يكفي، قاعداً بهدوء، ياسيدي إراسموس العزيز، وعلى الرغم من أنني لبثت أنتظر لعلّك تكون، بحكم كونك الأكبر سناً، والأعظم قدراً، أوّل من يضع نهاية للصمت، فإن المحبة تدفعني، بلا ريب، بعد الانتظار الطويل، إلى أن أجعل البداية بالكتابة. وفي المقام الأول ليس لديّ ما أعترض به على أنكم اتخذتم منا موقف الغريب حيال الغريب، لكي يظهر تصرفكم بمظهر التصرُّف الحسن في نظر رهط البابويين...» ولكن السخط الباطني ينبثق بعد ذلك بقوة، ويكاد ينمُّ عن الازدراء والسخط على المتردِّد: «ولأننا نرى أن الرب لم يُؤتِكم بعدُ مثل هذا الثبات، ومثل هذه الجرأة، والعقل، إلى الحد الذي يحملكم على إقرار النضال ضد المهوَل وأن تتصدّوا له وأنتم مطمئنون، إلى جانبنا فإننا لانريد أن نطلب منكم ما يتجاوز نطاق قوايَ الخاصة... غير أنني كنت خليقاً أن أرى أن مما هو أحبُّ إليّ، أن لاتكونوا تدخَّلتم في قضيّتنا، وذلك بأن تعطّلوا مواهبكم ولاتلتفتوا إليها، ذلك لأنكم، على الرغم من أنه كان في وسعكم أن تبلغوا الكثير بموقفكم وببلاغتكم، كان من الخير لكم، ما دام قلبكم ليس معنا، ألاّ تخدموا الرب إلاّ بالمواهب التي أوتيتُموها». وهو يأسف لضعف إراسموس وتحفُّظه، غير أنه يقذف في وجهه، في النهاية بالكلمة الحاسمة، وهي أن أهمية هذا التصرف تجاوزت حدود هدف إراسموس منذ عهد بعيد، وأنه ما عاد ثمة خطر بالقياس إليه لو أن إراسموس وقف ضده بكل عنفوانه، على أن هذا لابد أن يزداد ضآلة بعد إذا ما اقتصرت

المسألة على شيئ من الغمز واللَّمْز والطَّعْن والتجريح. ويطالب لوثر إراسموس مطالبة السيد، الآمر الناهي تقريباً، بالإمساك عن «كل الأحاديث الواخزة، البلاغية، ذات الكنايات والتلميحات» ولاسيما بأن يظل «متفرجاً على مأساتنا حين لايكون في وسعه أن يفعل شيئاً آخر، وأن لاينضم إلى مناوئي لوثر، ويقول إنه لا ينبغي له أن يهاجمه بكتاباته مثلما لايريد هو، أي، لوثر، أن يقوم من جانبه، بعمل ضده. لقد مورس الهمز واللمَّز حتى الآن بما فيه الكفاية، لابُدَّ لنا أن نحرص الآن على ألاّ يأتي بعضنا على بعض ويستنفد بعضنا قوى بعض».

ولم يكن سبق لإراسموس أن تلقى من أحد رسالة من هذا الطراز المنطوي على الغطرسة والتعاظم، وهو سيد الإمبراطورية الإنسانية، وعلى الرغم من كل ما ينطوي عليه هذا الشيخ من المُوادعة فهو يأبى أن يدع الرجل ذاته الذي أقبل فيما مضى، خاضعاً يلتمس مظلته وحمايته، ينهال عليه بالتوبيخ والتأنيب إلى هذا الحد في نظرة المتعالي إلى من دونه، ويعامله على أنه ثرثار مِهذار، غير ذي طائل. ويجيب مَزْهُوّاً: «لقد حرَصت على الإنجيل أكثر مما حرص الكثيرون الذين يتبجّحون الآن بالإنجيل، وإني لأرى أن هذا التجديد أفسد الكثير وأخرج أناساً ينزعون إلى الفتن وإثارة القلاقل، وأرى أن العلوم الجميلة يواكبها تطوُّر نحو الأسوأ، وأن الصداقات ستتمزَّق عُراها، وإني لأخشى أن تنشب قلاقل دامية. ولكن ما من شيء سيحملني على التضحية بالإنجيل إرضاءاً للأهواء والعواطف»، ويذكر مع التوكيد

والإلحاح كم كان خليقاً أن يلقى من الامتنان والاستحسان لدى الأقوياء أصحاب السلطان لو كان مستعداً للوقوف موقفَ المناوئ للوثر، ولكن ربما كان المرء أكثر نفعاً للإنجيل حين يمسك بزمام الكلام ضد لوثر، بدلاً من أولئك السخفاء الأغبياء الذين يكرِّسون أنفسهم له برفع العقيرة، والذين ليس من الجائز بالقياس إليهم «أن يظل المرء مجرَّد متفرِّج أو مُشاهِد لهذه المأساة». لقد أدَّت صلابة لوثر إلى تصليب إرادة إراسموس المتذبذبة: «ألا ليت المسألة لا تنتهي نهاية مأساوية بالفعل فحسب!». كذلك يقول متنهِّداً في استشعار باعث للتجهُّم، ثم يبادر إلى القلم، سلاحه الوحيد.

وإراسموس يعي كل الوعي أيَّ خصم عملاق يواجهه، بل كان يعلم في أعمق أعماقه تفوُّق لوثر في مضمار النزال، وهو الذي كان حتى الآن يطرح كل مناوئ له، بطاقه غضبته، أرضاً، غير أن القوة الحقيقية عند إراسموس تكمن في أنه يعرف حدوده – وتلك حالة نادرة بالقياس إلى فنان يعلم أن هذه المبارزة الفكرية تحدث أمام أعين العالم المثقَّف بأسره، فكل لاهوتيي أوروبا وإنسانيّوها يترقَّبون بصبر نافِد محموم، هذه المسرحية: ولذلك تقتضي المسألة أن يلتمس المرء موقعاً يستحيل الاستيلاء عليه أو التمكُّن منه، وإراسموس يختاره اختيار الأستاذ العارف الخبير، بأنْ لاينقضَّ، متعجِّلاً، ودونما رَوِيّة، على لوثر وكل النظرية الإنجيلية، بل يستطلع، من أجل هجومه، بعين الصبر الحقيقيَّة، نقطة مفردة، ضعيفة، أو قابلة لأن ينال المرء من خلالها،

على الأقلّ، من العقيدة اللوثرية: فهو يختار مسألة ثانوية في ظاهرها، غير أنها تعدُّ في الحقيقة، مسألة جوهرية في بنيان النظرية اللاهوتية اللوثرية التي مازالت متذبذبة، غير مُحكَمَة البنيان وبعيدة عن اليقين إلى حد بعيد. وحتى المَعْنِيّ الرئيسيّ، حتى «لوثر» نفسه، سوف يضطر إلى «إزجاء الكثير من المديح والثناء»، على «أنك كنت وحدك، من بين كل خصومي، ذلك الذي أدرك لبَّ القضية»: «لقد كنت، أنت وحدك، ولا أحد غيرك، ذلك الرجل الذي أبصر عصب القضية كلها، وأمسك بخُناقي، في هذه المبارزة، بقبضة قاسية». لقد آثر إراسموس أن يختار لنفسه، بفهمه الفنيّ الفائق، من أجل هذه المبارزة، بدلاً من الموقف الثابت الذي لايتزحزح في صَدَد قناعةٍ ما، الأرضية السَلِسة، أرضية مسألة لاهوتية، لايستطيع هذا الرجل ذو القبضة الحديدية، أن يطرحه عليها أرضاً بصورة كاملة، ويعلم، فيها، أنه يحظى بمظلة وتغطية غير مرئيَّتَيْن، مِنْ لَدُن أكبر فلاسفة العصور كلها.

والمشكلة التي جعل منها إراسموس محوراً للمساجلة هي المشكلة الأبدية عند كل باحث في اللاهوت: وهي السؤال عن حرية إرداة البشر أو انعدام تلك الحرية. فبالقياس إلى نظرية لوثر الأغسطينية الصارمة في القضاء والقدر، يظل الإنسان إلى الأبد حبيس إرادة الرب، ولايُوتى ذرة واحدة من حرية الإرادة، وكل فعل يفعله معروف لدى الرب منذ عهد بعيد ومرسوم بصورة مسبقة وعلى هذا فلا يمكن لأرادته أن تثور وتتحرَّر من هذا التورُّط في إثم سبق

اقترافه، لا بأعمال صالحة، ولا بتوبة أو ندم، ولكن رحمة الله وحدها هي التي يُتْرك لها القول الفصل من أجل توجيه الإنسان إلى الطريق القويم، على أن الترجمة الحديثة لهذا خليقة أن تكون على النحو التالي: نحن محكومون، في مصائرنا، حكماً كاملاً، بكتلة من الموروثات، أو بالوضع الإجمالي الناجم عن اجتماع ظروف وأحوال خصوصية، وعلى هذا فالإرادة الخاصة لاتقدرِ على شيء مادام الرب لايريد أن يكون فينا – إذا شئنا أن نعبر عن ذلك بأسلوب غوته:

«وما كل إرادة
إلاّ أن يريد المرء، لأن ثمة واجباً يَترتَّب علينا،
وفي مواجهة الإرادة يلوذ التعسُّف بالصمت...»

ولا يستطيع إراسموس، الإنساني، الذي يرى في العقل الدنيوي قوة مقدسة ممنوحة من قبل الرب، أن يقر لوثر على مثل هذا الفهم. ولا بُدَّ له، وهو الذي يعتقد اعتقاداً لا يتزعزع، أنه يستطيع، لا الإنسان المفرد فحسب، بل البشرية بأسرها، أن تتطوَّر لترتقي عن طريق إراداة مستقيمة، صادقة، إلى أخلاقية تزداد سُمُوّاً على نحو مطرد، وأن تقاوم مثل هذه الجبرية الجامدة التي توشك أن تكون إسلامية، في أعمق أعماقه، ولكن إراسموس ما كان ليكون إراسموس لو أنه قال عن أي رأي معارض له، «لا» حادة، فظة، فهو لايرفض هنا، مثلما يفعل في كل مكان، سوى التطرُّف، أي الحادّ والمطلق، في فهم نظرة لوثر ذات النزعة الحتمية. وقال هو ذاته بأسلوب متأرجح يُمْنة ويُسْرة، في حذر،

إنه لايجد سروراً في الادعاءات الثابتة التي لا تتزحزح) وإنه يميل شخصياً، على الدوام، إلى الشك، غير أنه يسره أن يمتثل في أمثال هذه الحالات لكلمات الكتاب المقدَّس والكنيسة، ويقول، مرة أخرى، إن هذه النظرات تعدُّ في الكتاب المقدس، حافلة بالأسرار، وغير مُعَبَّر عنها على نحو يمكِّن من استقصائها وسبر غورها بصورة كاملة، فهو يرى أن مما يالموصوفة الموصوفةتنطوي على الخطر أن يجحد المرء، بأسلوب المصمِّم الجازم إلى حد بعيد، مثلما يفعل لوثر، حرية الإرادة البشرية، جحوداً كاملاً، على أنه لايعدُّ نظرة لوثر خاطئة كل الخطأ، مجال من الأحوال، غير أنه يقاوم هذه النزعة الموصوفة بأنها (nonnihil لا عدمية)، أي القول بأن كل الأعمال الصالحة التي يعملها الإنسان ليس لها أي أثر عند الله أبداً، وتعدُّ من أجل ذلك فائضة عن الحاجة. وعندما يجعل امرؤٌ، مثل لوثر، كل شيء موقوفاً على رحمة الله وحدها، فما عسى أن يبقى، بالنسبة للبشر، على الإطلاق، من جدوى تعود إليهم من جراء فعل الخير؟ ويقترح، بحكم كونه الوسيط الأبدي، أن يدع المرء للإنسان، على الأقل، وَهْمَ حرية الإرادة، لكيلا يتولاّه اليأس ويبدو الرب قاسياً وغير عادل. «وأنا أنضمّ إلى رأي أولئك الذين يُوكِلون بعض الأمور إلى حرية الإرادة، غير أنهم يسلِّمون لها بقسط كبير من الرحمة، لأننا لا ينبغي لنا أن نحاول أن نتحاشى مسألة الوقوع بين بديلين كلاهما محفوف بالمخاطر، وما يتعلق بذلك من الزُّهُوِّ بالنفس، لكي يجترفنا البديل الآخر، وهو الجبرية».

وإن المرء ليرى أن إراسموس، المُوادِع، يتصدى لخصومه، حتى في المجادلة، بأن يذهب إلى الحد الأقصى، وهو يذكِّر أيضاً، في هذه المناسبة، بوجوب أن لايقدِّر المرء أهمية أمثال هذه المناقشات فوق قدرها، وأن يسأل نفسه، «أَمِن الصحيح إثارة القلاقل والفتن في كل أرجاء المعمورة من أجل بعض الأقوال المتناقضة. وفي الواقع لو تراجع لوثر أمامه تراجعاً يسيراً فحسب لمجرد أن ينزل على رغبته بمقدار خطوة لانتهى هذا الشقاق للفكري أيضاً إلى سلام، وإلى انسجام وتعايش، ولكن إراسموس يأمل في فهم متساهل من جبهة القرن الحديدية، من رجل ما كان ليضحِّي، في مسائل العقيدة، واليقين، حتى ولا في مواجهة المحرقة، بحرف واحد منها، وكان بحكم كونه متعصباً بالفطرة، شديد اللَّدَد في الخصومة يفضل الهلاك، أو ترك العالم ينتهي إلى الفناء، على أن يتخلَّى عن مقدار أُنْمُلة من أدنى فقرة من فقرات تعاليمه، وأقلها أهمية».

ولا يجيب لوثر إراسموس على الفور، على الرغم من أن هذا الهجوم يستثر غضب الرجل الذي يجنح إلى الغضب كثيراً، بأشد الطرق مرارة: «بينما كنت أدبِّر مكيدة للمدعو (هـ)... (إذا شئت أن أتحدث بلغة التأديب والتربية) كنت قد فرغت من قراءة هذه الرسالة للسيد إراسموس، ولكني قرأتها قراءة فَكَّرْتُ على أثرها في رَمْيِها وراء المنصة» كذلك يقول بطريقته الفجَّة الفظة. ولكن في هذا العام كان قد فُرِض عليه شيء أهم وأصعب من مناقشة لاهوتيَّة، وكان

المصير الخالد لكل ثوري يبدأ في التحقّق من خلاله، حتى إنه أطلق الآن من العنان، هو أيضاً، وهو الذي أراد أن يضع نظاماً جديداً يحل محلّ النظام القديم، قوى العَماء والفوضى، وتعرَّض لخطر اكتساحه، مع تطرُّفه، من قبل أناس أكثر تطرفاً. وكان لوثر يطالب بحرية الكلام وحرية المعتقد. والآن، يطالبون، أيضاً بحريات أخرى لأنفسهم، أنبياء تسفيكاوْ. وكارلشتات، ومونتسر، وكل هذه الأدمغة المفعمة بالحماسة». كما يسميها، هؤلاء أيضاً يحتشدون باسم الإنجيل لإثارة القلاقل في وجه الإمبراطور والمملكة. وتتحوّل كلمات لوثر ذاته ضد النبلاء والأمراء عند زمر الفلاحين الداخلين في التحالف، إلى الرُمْح ونجمة الصباح، ولكن بينما كان لوثر لا يرغب إلاّ في ثورة فكرية ودينية، يطالب الفلاحون المكبوتون الآن بثورة اجتماعية وشيوعية واضحة، وتتكرَّر، لدى «لوثر» في هذا العام، مأساة إراسموس الفكرية، وهو أنه ينشأ عن كلمته قَدَرٌ من أحداث العالم أكثر مما كان هو نفسه يريد، ومثلما كان يلوم ذلك الرجل على فتوره يُشَنِّع عليه هو الآن أهل أحذية التحالف والزاحفون على الأديرة والمحرِّقون للتصاوير، على أنه «سفسطائيّ بابوي جديد»، و«وثنيّ عريق»، و«وغد دنيء»، و«صديق للمسيح الدجال وُلِد بعده»، وعلى أنه «الجسد المستكبر» في فيتنبرغ. إنه المصير الإراسمِيّ: فما قاله بالمعنى الفكري والكهنوتيّ، يُفهَم من قِبَل الجمهور العريض، وقادته الأكثر تعصُّباً بعد، كما يقول هو ذاته، بالمعنى «الجسدي»، أي بالمعنى التحريضيّ الفجّ.

إنها التشكيلة الخالدة للثورة، وهي أن تطغى الموجة الواحدة بطوفانها على الأخرى: فإذا كان إراسموس يمثل الجيرونديين، فلوثر يمثل رهط روبسبيير، وتوماس مُنْتسَر وأتباعه يمثلون رهط مارا. ويضطر، وهو القائد الأعلى لاينازعه منازع، إلى أن يحارب على جبهتين دفعة واحدة، ضد المفرطين في الفتور وضد المفرطين في الجموح، ويضطر إلى تحمُّل المسؤولية عن الثورة الاجتماعية، وعن هذه الثورة الأكثر إثارة للفزع والأكثر دموية بين ماشهدت ألمانيا من الثورات منذ قرون. ذلك لأن من يحمل اسمه هم رهط من الفلاحين، يحملونه في قلوبهم، وكانت ثورته وحدها ونجاحه ضد الإمبراطور والمملكة قد وهبا لهؤلاء الثوار المنتمين إلى الطبقات الدنيا، الجرأة على الثورة على أسيادهم وأمرائهم الذين يمارسون القهر ضدهم. «أنت لا تعترف بمثيري الفتن والقلاقل، غير أنهم يعترفون بك...» وأنت لاتدحض القناعة العامة بأن هذا الوبال أُعْطِيَ الحافزُ إليه عن طريق كتبك، ولاسيما تلك التي وضعت بالألمانية.

وإنه لقرار رهيب بالنسبة للوثر: هل ينبغي له، وهوالذي يضرب بجذوره في الشعب ويعيش بين ظهرانيه والذي تمرَّد على الأمراء وحرَّض عليهم، أن يتنكَّر للفلاحين الذين يناضلون بروحه وباسم الإنجيل، من أجل الحرية، أو ينشق عن الأمراء؟. ولأول مرة (لأن مركزه بات جد مشابه لمركز إراسموس بين عشية وضحاها) يحاول أن يتصرَّف بأسلوب إراسموس، فيذكِّر الأمراء بوجوب التروّي،

ويذكر الفلاحين بأن عليهم أن لايجعلوا من « الاسم المسيحي غطاءاً لتمويه نواياهم غير المسالمة، والمتسرِّعة، النافدة الصبر، والمُجانبة للمسيحية ولكن لمّا كان هذا مما لا يَحتَمَل بالنسبة لرجل بمثل اعتداده بنفسه - إذ ما عاد الشعب يصغي إليه، بل يفضّل الإصغاء إلى أولئك الذين هم الأكثر بذلاً للوعود، إلى توماس مُنْتسَر وأهل اللاهوت الشيوعيّ، وفي النهاية يضطر إلى البتّ في المسألة، لأن هذه الثورة المطلَقة العنان تنتقص من عمله، وهو يدرك أن هذه الحرب الاجتماعية داخل المجتمع الألماني تفسد عليه حربه الفكرية التي يخوضها هو ضد البابوية: « لو لم يكن هؤلاء الرجال من أصحاب الأفكار الفتّاكة القتّالة، مع فلاحيهم يصطادون بشباكي لكان من المفروض أن تكون أحوال البابوية الآن على غير هذه الصورة، بلا ريب ». وعندما تتعلق المسألة بعمله وموقعه لا يعرف لوثر تردُّداً. ولّما كان هو ذاته ثورياً فلا بُدَّ له أن ينحاز ضد ثورة الفلاحين الألمانية، وعندما ينحاز لوثر إلى حزب معيَّن فهو لايستطيع أن يُقدِم على ذلك إلاّ بصفته متطرِّفاً من الطراز الأكثر غلياناً بالغضب والأكثر أحاديةَ جانبٍ، والأكثر جموحاً. ومن بين كل كتاباته تعدُّ هذه الرسالة التي تعود إلى حقبة ذروة الخطر الذي كان يتهدَّده، وهي الكراسة الموجَّهة ضد الفلاحين الألمان، الرسالة الأكثر وحشية وإثارة للفزع وتعطُّشاً للدماء، إذ يقول في موعظته: «من مات في معسكر الأمراء كان شهيداً من أهل السعادة، ومن يَمُت في المعسكر المقابل يذهبْ إلى

الشيطان، ولذلك ينبغي لكل من يستطيع، أن يطوِّح بالعدوّ أو يخنقه، ويطعنه، في الخفاء والعلانية، وأن يذكر أنه ما من سُمًّ يمكن أن يكون أفتَكَ، ولا أشدَّ ضرراً، ولا أكثر شيطانية، من الإنسان المثير للفتن والقلاقل. ومن دون مراعاة لأي اعتبار ينحاز في كل الأوقات والمناسبات إلى جانب الحكام ضد الشعب: «الحمار يحتاج إلى ضرب، والغوغاء من الناس يحتاجون إلى أن يُحكَموا بالقوة». وما من كلمة طيبة تشير إلى دماثة ورِفْق، أو إلى الرحمة، يجدها هذا المحارب المتوحش المولع بالقتل، فهو لايجد سوى أن تثور ثائرة الفرسان المُظَفَّرين فينقضّوا بأكثر أشكال القسوة فظاعة على أهل الطبقة الدنيا الذين يبعثون على التفجُّع، وما من تعاطف ينطوي عليه هذا الإنسان العبقري، والمجاوِز للحدود في غضبه، حيال الضحايا الذين لا يُحْصَوْن عدداً، والذين كان الألوف منهم خرجوا، في ثقة منهم باسمه، وفعله المثير للشغب والقلاقل، ضد أبراج الفرسان ومعاقلهم، وهو يعترف بجرأة قاسية، في النهاية، إذ سُمِّدت الحقول في فورتمبرغ بالدم: «أنا مارتن لوثر، أردَيْتُ، في غمرة القلاقل كل الفلاحين قتلى، لأنني أمرت بقتلهم: فكل دمائهم معلَّقة بعنقي».

وهذا الانقضاض الجنونيّ، هذه المقدرة الرهيبة على الكراهية، تظل مِنْ بعدُ مستكنّة في قلمه حين يوجِّهه ضد إراسموس، وربما كان بعدُ خليقاً أن يغفر لإراسموس مناقشته اللاهوتية التي جاءت خارجة عن الموضوع، غير أن الاستقبال المتحمِّس الذي لقيته هذه الدعوة إلى

الاعتدال في كل مجال عالم الحركة الإنسانية، يستثير حقده إلى حد الجنون. ولوثر لا يطيق الفكرة القائلة إن أعداءه يأخذون الآن في الترنم بأغنية انتصارهم. «ألا فقولوا لي أين يوجد المكّابي[1] العظيم، أين يكون هذا الذي ظل ثابتاً على نظريته لايتزحزح عنها ولايريم؟» الآن لايريد أن يجيب فحسب، إذ ما عاد همُّ الفلاحين يُثقِل كاهله، أي كاهل إراسموس، بل يريد أن يحطمه التحطيم الكامل، وهو يعلن على المائدة، أمام أصدقائه المجتمعين، عن رغبته، بالكلمات الرهيبة التالية: «ولذلك آمركم، باسم الرب أن تتّخذوا إراسموس عدوّا لكم، وأن تكونوا من كتبه على حذر. وأريد أن أكتبَ ضده، ولو قدِّر لكم بعد ذلك أن تموتوا ويتولاّكم الفناء، فأنا أريد أن أقتل الشيطان بقلمي»، ويضيف قائلاً بما يوشك أن يكون زَهْوَاً بالنفس «ما أكثر ما قتلت من رهط مُتَنَسِّر الذين يقع وزر دمهم على عنقي».

ولكن حتى في حالة غضبه، وعلى وجه الخصوص عندما يغلي الدم في شرايينه وهو على أشدِّ ما يكون حرارة يثبت لوثر أنه فنان كبير. فهو يعرف أيَّ خصم كبير يتناول، وفي إطار الوعي بالالتزام أصبح عمله هو عظيماً، فهو ليس رسالة قتالية ضئيلة، بل هو كتاب واسع النطاق بدرجة أساسية، يلتمع ببَرْق الصور، ويُسكر بما فيه من حُمَيَّا العواطف، إنه كتاب يُعَدُّ، إلى جانب ما فيه من العلم باللاهوت، أيضاً

---

(١) نسبة إلى سلالة من الكهنة تنتسب إلى يهوذ المكّابيّ الذي توفي عام ١٦١ ق.م وحرر اليهود من الحكم السوري «المترجم».

أروع مما تكشف عنه معظم الكتب، من سلطانه الإدبي وسلطانه على البشر. فمقالته في عبودية الإرادة « De servo arbitrio » يعد من أقوى الرسائل الجدلية التي وضعها هذا الرجل النزّاع إلى الحرب، كما تعد المجادلة مع إراسموس من أهم المناقشات التي دارت في أي يوم من الأيام، في مضمار التفكير الألماني بين رجلين ذَويْ طبيعتين متضادتين، ولكنهما ينتميان إلى أكثر الأحجام شموخاً. ومهما يكن ما صار إليه هذا الموضوع اليوم من البُعْدِ عن شعورنا بالحاضر، فقد ظل هذا الكفاح من جراء عظمة الخصمين حدثاً من الأحداث الفكرية في الأدب العالميّ.

وقبل أن ينطلق لوثر لوجهه، وقبل أن يُحكِم ربط الخوذة ويتقلّد الحربة من أجل الصدام الفتّاك، يرفع سيفه لحظة من الزمان في تحية مهذَّبة عابرة: «أنا أضفي عليك من الشرف والقيمة مالم أُضفِ مثله، فيما عدا هذا على أحد من الناس». ويعترف، صادقاً، بأن إراسموس عامله «بلطف ودماثة، وتعامل معه في كل موضع، بِرُفْق وسماحة»، ويُسَلِّم بأن هذا هو الوحيد من بين كل خصومه «الذي تبيَّن له عصب المسألة برمّتها»، ولكن بعد أن قَسَر لوثر نفسه على الخروج بهذه التحية، يكوِّر قبضته، ويغدو جافيَ الطبع، ويكون بذلك في إطار عنصره الذي هو من أخصِّ خصائصه، ويقول إنه لا يجيب عن مناقشة إراسموس، على وجه الإطلاق، إلا لأن بولس يأمر بسَدِّ أشداق الثرثارين المِهذارين غير أولي النفع والطائل». والآن تنهال الطعنة

إثر الطعنة بصليلها. وينهال لوثر بمقدرة على التصوير ذات أُبَّهة، لوثرية أصلية، ضرباً بمطرقتها، على إراسموس، قائلاً إنه «يسير في كل مكان، على بَيْض، ولا يريد أن يطأ بقدميه بيضة منه، ويمشي بين كؤوس، ولا يريد أن يمسَّ واحدة منها»، وإراسموس لايريد أن يقول شيئاً وهو يَجْزِم به، ومع ذلك فهو ينطق بمثل هذا الحكم علينا، وهذا يعني أنه يهرب من مطر يسير ليغوص حتى في بركة من الماء.وبإحداث ثغرة أو شرخ يكشف عن التناقض بين التَّرَوِي الذي يزحف زحفاً، شأن المتسلل وبين الاستقامة وسمة الإطلاق الصريحة المتوافرتين لديه. أما ذاك فينظر إلى الراحة والدعة الناجمين عن «السلام المرتبط بحاجات الجسد وسكينته على أنهما شيء أسمى من العقيدة» على حين يرى هو نفسُه، أنه مستعد، للإيمان، أو اعتناق الدين «حتى لو لم تقتصر المسألة على مجرد انهيار السلام، بل جرَّت معها الغرق الكامل، والتحوُّل إلى أنقاض». وعندما يذكِّر إراسموس، في رسالته، تذكيراً ذكياً، بوجوب الحذر، ويشير إلى غموض بعض المواضع في الكتاب المقدس التي لا يستطيع إنسان من أهل هذه الأرض أن يفسِّرها، يقابله لوثر بالعقيدة القائلة: «لو لا اليقين لما كان هناك وجود لمسيحية، وإنما يفترض في المسيح أن يكون على يقين من قضيته وإلاّ فما هو بمسيح،» ومن يترددْ ويتلَجلَجْ، أوَ يكُنْ فاتراً أو متشكِّكاً في أمور الدين فعليه أن ينفض يده من اللاهوت مرة وإلى الأبد. «ليس الروح القدس بالشكّاك»، بذلك يُرْعِد في وجهه، «إنه لم

يكتب في قلوبنا وهماً غير مستيقَن، بل كتب يقيناً قوياً» ويصِرّ لوثر، بعناد على موقفه القائل إن الإنسان لا يكون صالحاً إلاّ حين يحمل الله في نفسه، ولا يكون طالحاً إلاّ حين يركبه الشيطان غير أن إرادته الخاصة تظل من دون جوهر، وتظل لا حَول لها ولا طَول في مواجهة العناية الإلهية التي لا مندوحة عنها ولا سبيل إلى تغييرها. وشيئاً فشيئاً ينبثق فوق المشكلة المنفردة، من هذا الحافز المنفرد، تناقض أكبر كثيراً. ويفصل بين هذين المجدِّدَيْن للدين، نظرتاهما المختلفتان كل الاختلاف إلى جوهر المسيح ورسالته، كما يفصل بين الماءَيْن خط تقسيم المياه، وَفْقاً لطَبْعَيهما. أما إراسموس، الإنساني، فيُعد المسيح عنده المبشِّر بكل ضروب الإنسانية، وهو الإلهي الذي جاد بدمه ليخلِّص العالم من كل أشكال سفك الدماء، ومن كل ألوان الشقاق والنزاع، وأما لوثر، الذي هو عبد الله، فيُلحُّ على كلمة الإنجيل التي تفيد أن المسيح جاء «لا مطالباً بالسلام بل مطالباً بالسيف»، ويقول إراسموس إنّ من أراد أن يكون مسيحيّاً فلا بُدَّ أن يكون بفكره محباً للسلام، متسامحاً، ويجيب لوثر، الذي لاتلين لــه قناة، قائلاً إن مَنْ كان مسيحياً فلا يجوز له أبداً أن يتهاون، ما دامت المسألة تتعلَّق بالرب، ولو كان في ذلك خراب العالم بأسره. فالكلمة التي كتبها قبل سنوات إلى سبالاتين، هي كلمة حياته: «ألا لا تَحْسَبَن أن المسألة يمكن خوض القتال من أجلها من دون قلاقل، وغيظ واستياء، وثورة أو عصيان، وأنت لاتستطيع أن تجعل من السيف ريشة أو قلماً، ولا أن


Vlrich von hutten rc

تصنع من الحرب سلاماً. وكلمة الله هي الحرب بل الاستياء والسخط، والهلاك والسُّمّ، إنها تتصدى لأبناء إفرايم مثل دُبٍّ في الطريق أو لَبْوة في الغابة». ومن أجل ذلك يرفض رفضاً عنيفاً نداء إراسموس من أجل الاتحاد والتفاهم. «ألا فَخَلِّ عنك نُواحك وصُراخك، فلا يُجدي مع هذه الحمى دواء، وهذه الحرب حرب ربنا فهو الذي بعثها، ولن تتوقف قبل أن يقضي على كل أعداء كلمته» ويقول إن لَغَط إراسموس المنطوي على اللين والضعف ليس إلاّ نقصاً في الإيمان المسيحيّ الأصيل، ولذلك ينبغي له أن يظل ينتحي جانباً ويعتزل، منصرفاً إلى دراساته الجديرة بالتقدير في اللاتينية واليونانية، وبصريح العبارة: أن يظل في إطاره ألوان لهوه وعبثه المتصل بالحركة الإنسانية – ولا يُناور – بكلماته المزوَّقة – محاولاً التطرُّق إلى مشكلات لايمكن البَتّ فيها إلاّ بالانطلاق من اليقين الباطني بالله عند إنسان مؤمن، ومؤمن إيماناً كاملاً. ويطالب لوثر إراسموس، بأسلوب الإملاء والهيمنة بالابتعاد، مرة وإلى الأبد، عن التدخل في هذا الصراع الدينيّ الذي اكتسب صفة عالمية. «أمّا أنك كنت تمارس تأثيرك على قضيّتنا بما يكفي من سلطان القسر، فذلك ما لم يكن يريده الرب ولم يمنحك إياه». ويقول إنه هو نفسه، أي لوثر، يشعر بالنداء، ويشعر من جرّاء ذلك، باطمئنان الضمير: «أما ما عساي أكون، ومَنْ تُراني أكون، ومن خلال أي فكر أو قضية انتهيت إلى هذا النزاع، فذلك ما أَدَع أمره لله الذي يعلم كل شيء، ويعلم أنّ قضيّتي هذه لم تبدأ ولم يجر الاشتغال بها حتى الآن بإرادتي أنا، بل بإرادته الإلهية الحرة».

وبذلك تمت كتابة خطاب قطع العلاقة والتبرُّؤ المتبادل، بين الحركة الإنسانية والإصلاح الديني الألماني. وذلك أن الإراسمِيّ واللوثريّ، والعقل والعاطفة أو الهوى، والديانة العالمية، والتعصب العقائدي، والقومي والمتخطّي للحدود القومية، والمتعدد الجوانب، والأحادي الجانب والمَرِن المطاوِع والجامد لايمكن الجمع بينهما إلاّ بمقدار ما يمكن الجمع بين الماء والنار، وكلما صادف أحدهما الآخر، فَحَّ، في غمرة الغضب، عنصرٌ، في وجه عنصر، كفحيح الأفاعي.

ولن يغفر لوثر لإراسموس أبداً أنه تصدى له جهاراً، إذ إن هذا الرجل الذي تستحوذ عليه حمّية القتال لايصبر على نهاية لنزاع سوى الإبادة الكاملة، المطلقة، المناوئة. وعلى حين يكتفي إراسموس بجواب واحد لايتكرّر عن رسالة « Hyperaspistes » ثم يعود من جديد إلى دراساته، تواصل نار الكراهية استعارها في نفس لوثر ولايفوّت مناسبة من دون أن يُغدِق على الرجل الذي تجرّأ على معارضته في نقطة واحدة من تعاليمه، مطاعنة الرهيبة، وكان حقده «القاتل» كما يذكر إراسموس شاكياً، لايَرْعَوي عن أي طريقة للطعن وتشويه السمعة. «مَنْ يسحق إراسموس فإنما يخنق بقّةً، على أن هذه تنفث رائحتها الكريهة ميّتةً وحيةً». ويسمّيه «أشد أعداء المسيح ضغينةً عليه وحِقداً وغِلاًّ». وحين تُعْرَض عليه ذات مرة صورة لإراسموس ينذر الأصدقاء قائلاً إن هذا «رجل داهية مكّار، غدّار تهكَّم على كل من الرب والدين» يبتدع في الليل والنهار، كلمات

تنطوي على التذبذب، وحين يحسَبُ المرء أنه قال الكثير، لا يكون قد قال شيئاً. ويصيح بأصدقائه على المائدة غاضباً: «سوف أُخلِّف لكم هذا في وصيَّتي، وأُشهِدُكم جميعاً على أنني أَعُدُّ إراسموس عدوَّ المسيح الأكبر، الذي لم يسبق له مثيل خلال ألف عام»، وأخيراً يصل به الأمر إلى أن يتجرّأ حتى على النطق بالكلمة التجديفيّة: «عندما أدعو بدعاء: تبارك اسمُك، أصبُّ لعنتي على إراسموس وعلى كل الهراطقة الذين يشتمون الرب ويشنِّعون عليه».

ولكن لوثر إنسان الغضب الذي يثب الدم إلى عينيه حارّاً في غمرة القتال، لا يكون على الدوام محارباً فحسب بل يُضطَرُّ من أجل تعاليمه وتأثيره، إلى أن يكون أيضاً، دبلوماسياً بصفة مؤقتة. والأرجح أن الأصدقاء لفتوا انتباهه إلى مدى ما يتسم به تصرُّفه من قلة الذكاء حين يطلق العنان لنفسه بهذه الألوان من الشتائم والتشنيعات ضد هذا الرجل الشيخ الذي يلقى التبجيل الكثير من قبل كل أوروبا، وهكذا يُغمِد لوثر سيفه ويتناول غصن الزيتون، ويوجِّه، بعد عام من قصيدته الهجائية الساخرة الرهيبة، إلى هذا الذي هو «ألدّ أعداء الرب»، رسالة تكاد تكون هزلية يعتذر فيها عن تعرُّضه له بهذه القسوة. «ولكن الآن يكون إراسموس هو الذي يرفض التفاهم بحدة، ويجيب قائلاً بقسوة»: «أنا لست من ذوي النفسية الطفولية بحيث يمكن تهدئة خاطري، بعد أن تمّت الإغارة عليَّ بألوان الشتائم الأخيرة، بالنكات التافهة وألوان التملُّق... وإلامَ كانت تهدف كل هذه الملاحظات

الساخرة، والأكاذيب الدنيئة، وقولكم إنني ملحد، ومتشكك في أمور العقيدة، شتّامٌ للرب، وكل ماعدا ذلك من أمور لا أعرفها... أنا الذي بتُ قريباً من الموت، غير أن ما يغدو، بالقياس إلى كل إنسان من ذوي التهذيب، مثلي أنا، باعثاً للغيظ، هو أن العالم كله يتكدَّر صفوه من جرّاء سلوكك الذي ينمُّ عن الصلف، وقلة الحياء، وإثارة الرغبة في الفتنة... وأن هذه العاصفة لا تنتهي، إلى تلك النهاية المستحبَّة، من جراء إرادتك... واتفاقنا مسألة خصوصية، غير أنَّ مايؤلمني هو المحنة العامة، واختلاط الأمور الذي لايُرْجى له شفاء، وهذا ما لاندين به لجهة أخرى سوى أسلوبك الذي لايمكن الجامُه، والذي يأبى أن يستجيب لتوجيه أولئك الذين يشيرون عليك فيحسنون المشورة... ولقد كنت أتمنًى لك طِرازاً من الفكر غير طراز فكرك هذا الذي أنت مفتون به أيَّما افتتان، وفي وسعك، أن تتمنى لي، من جانبك كل ما تريد، باستثناء تركيب عقلك، إلاّ أن يغيِّره الربّ. وبقسوة كانت في العادة غريبة عنه، يردُّ إراسموس اليد التي عصفت بعالمه فحوَّلته إلى أنقاض، وما عاد يريد أن يحيِّي الرجل الذي أفسد سلام الكنيسة وجَرَّ على ألمانيا وعلى العالم، بلبلة الفكر الأكثر إثارة للفزع على الإطلاق.

ولكن البلبلة موجودة في العالم، وما من أحد يستطيع أن يهرب منها، حتى ولا إراسموس. والاضطراب هو القانون الذي رسمه له القدر، وكان كلما نازعته نفسه إلى السكينة والهدوء، تذمَّر العالم من حوله، وحتى بازِل، المدينة الذي كان فَزِع إليها من أجل حيادها، تستحوذ

عليها حمى الإصلاح الدينيّ، ويزحف الجمهور كالعاصفة، على الكنائس، فينتزع التصاوير والقطع المنحوتة من الهياكل وتُحرَق بعد ذلك في ثلاثة أكوام كبرى أمام الكنيسة الكبرى، ويرى إراسموس، وقد تولاّه الفزع، عدّوه الأبدي، التعصُّب يهبُّ كالمجنون، باللهب والسيف، زاحفاً على بيته، ولم يُؤْتَ في هذه القلاقل إلاّ العزاء الضئيل: إذ لم يسفك دَمٌ – وياليت المسألة كانت تقتصر على هذا دائماً – ولكن الآن، إذ أصبحت بازِل مدينة متحزِّبة في يد الإصلاح الديني، ما عاد يريد، وهو الذي يثير اشمئزازه كل ما يتَّسِم بالتحزُّب، أن يمكث داخل جدران المدينة بعد هذا. وينتقل إراسموس، وهو في الستين، من أجل الهدوء اللازم لعمله، إلى فرايبورغ النمساوية الأكثر هدوءاً، حيث يتلقاه المواطنون والسلطات في موكب احتفالي ويعرضون عليه قصراً احتفالياً للسكن، غير أنه يرفض المنزل الفخم ويؤثر منزلاً صغيراً إلى جانب دير الرهبان، ليعمل هناك بهدوء، وليموت في سلام، وما من رمز أروع من هذا كان في وسع التاريخ أن يبتدعه لرجل الوسط هذا الذي لا يكون موضع الترحيب في أي مكان لأنه يأبى أن ينحاز إلى حزب. لقد اضطر إراسموس إلى الهرب من لوفِن، لأن المدينة كانت مفرطة في كاثوليكيَّتها، ومِنْ بازِل لأنها تغدو مفرطة في بروتستانتيّتها، فالفكر الحرّ، الفكر المستقل، الذي لا يربط نفسه بعقيدة ما، ويأبى أن يقرر الانحياز إلى طرف معين، لا يوجد له موطن في أي مكان على وجه الأرض.

النهـاية

ويستقر إراسموس، من جديد، في فرايبورغ في الستين، متعباً مستهلكاً، وراء كتبه - لاجئاً - وما أكثر ما فعل ذلك حتى الآن! - في مواجهة زحف العالم عليه، واضطرابه، ويزداد، على نحوٍ مطرد ذوبان الجسد الضئيل الهزيل، منكمشاً على ذاته، ويزداد على نحو مطَّرد، شَبَهُ الوجه الرقيق الذي أفسدته التجاعيد، بتقطيباته الألف، بالرموز الصوفية ورَقِّ الجلد الذي نقشت عليه كتابة بالحروف الرونيّة (الجرمانية القديمة، والمأخوذة عن أعواد الغابة)، ويغدو ذلك الذي كان أكثر نقاءاً، شيئاً فشيئاً رجلاً مفعماً بالمرارة، يبعث على السخرية والتهكُّم. ولما كان متمسكاً بعادات ومبادئ معينة بعناد يبعث على الضحك، شأن كل العُزّاب الشيوخ، فهو يشكو كثيراً من انحطاط العلوم، ومن روح العداء عند أصدقائه، ومن الغلاء، ومن مخادعة أهل المصارف، ومن الخمر الرديئة والحامضة، ويظل مخيَّب الآمال الكبير، يشعر، على نحو مطّرد الزيادة، بأنه غريب في عالم لا يريد الحفاظ على السلام على الإطلاق، ويتمُّ فيه اغتيال العقل غدراً من قبل العاطفة الجامحة واغتيال العدالة غدراً من قبل العنف. أما قلبه فقد أخذ يجنح إلى النعاس منذ عهد بعيد، ولم يكن كذلك حال اليد، ولا حال

الدماغ الصافي، المشرق، على نحو رائع، الذي ينشر، كالمصباح، دائرة من الضوء دائمة، لاشائبة فيها، على كل ما يدخل في مجال نظر فكره النزيه، وثمة صديق واحد، هو الصديق الأكبر سناً، والأفضل، يقعد إلى جانبه مخلصاً: وهو العمل. ويكتب إراسموس يوماً فيوماً، ثلاثين حتى أربعين رسالة، ويملأ صحائف كاملة من القطع الكبير مع ترجمات آباء الكنيسة، ويستكمل مناظراته، وينمي سلسلة كتابات لا يمكن تقدير مفعولها، جمالية وأخلاقية. إنه يكتب ويعمل بوعي الرجل الذي يؤمن بحق العقل وواجبه، وهو أن ينطق بكلمته الخالدة عن العالم، وهو يعلم أن فكرته الرفيعة السامية عن الحركة الإنسانية قد هُزِمَت، وكل ما أراده، وما كان يطمح إليه، من التفاهم والموازنة بين الأمور، بدلاً من الاقتتال المُطلَق العنان، تحطَّم على صخرة عناد المتحمسين من أهل التعصب، ولم يكن لدولة الفكر التي أرادها، دولة أفلاطون في نظره، في وسط جمهورية الأرض، أي جمهورية العلماء عنده، مكان في وسط ميدان معركة الأحزاب المستثارة، وكانت تدور رحى الحرب بين دين ودين، بين روما وزوريخ، وفيتنبِرْغ، بأسلوب المتوحشين المولعين بالقتال وكانت الحملات العسكرية تروح وتجيء، بين ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا بغير انقطاع شأن العواصف المتنقِّلة، وأصبح اسم المسيح نداءً ميدانياً ورايةً للعمليات العسكرية. وما أكثر ما كان يبعث على الضحك أن تُكتَبَ مِنْ بَعْدُ الأبحاث، وأن يُذَكَّر الأمراء بوجوب التعقُّل، وما أشد

العبث الكامن في أن يكون المرء بعدُ متحدثاً باسم التعاليم الإنجيلية، منذ أن بات القائمون بالأمر باسم الله والمنادون بكلامه، يستعملون كلمة «الإنجيل» مثلما يستعملون بلطة القتال. «ففي أفواه الناس جميعاً هذه الكلمات الخمس: الإنجيل – وكلمة الله – والإيمان – والمسيح – والفكر. ومع ذلك فأنا أرى كثيراً منهم يتصرّفون كأن بهم مسّاً من الشيطان». كلاّ، فما عاد يجدي أن ينزِع المرء في مثل هذه الأيام الحافلة بفرط التوتر السياسي إلى مواصلة القيام بدور الوسيط والمُسوّي للنزاع، أما الحلم السامي بإقامة إمبراطورية أوروبية إنسانية موحَّدة في الأخلاق، فقد انتهى، وأما الرجل الذي كان يحلُم به من أجل البشرية، أي هو نفس، إراسموس، فهو رجل شيخ، مُرْهَق، لا يصلح لشيء، إذ لايُصغى إليه، والعالم يمرُّ به مرور الكرام، إذ ماعاد في حاجة إليه.

ولكن من قبل أن تنطفئ شمعة، يظل لهيبها يخفق مرتفعاً بعدُ، يائساً. وقبل أن تقمع الفكرةَ عاصفةُ العصر، تكشف مرة أخرى عن قوتها الأخيرة، وهكذا تضيء مرة أخرى، قصيرة ولكنها رائعة، هذه الفكرة الإراسمية، فكرة المصالحة والتوسُّط في هذه الساعة. وكان شارلكان، سيد العالَمَيْن، قد اتخذ قراراً هاماً، ولم يكن الإمبراطور بعدُ ذلك الفتى المُقَلْقَل الذي ظهر في صورته بين يَدَيْ الرايشستاغ في فورمس إذ كانت خيبات الأمل والتجاريب قد أنضجته، ثم إن النصر الكبير الذي كان قد أحرزه لتوّه على فرنسا يَهَبُ له أخيراً

الأمن واليقين الضروريين، والسلطة. وحين عاد أدراجه إلى ألمانيا عقد العزم على أن يفرض النظام بصورة نهائية في مضمار الجدل الديني، وعلى إعادة الوحدة إلى الكنيسة، تلك الوحدة التي مزّقها لوثر، مرة أخرى، ولو كان ذلك بالعنف، ولكن يريد أن يجرِّب ذلك بروح إراسموس، عن طريق التفاهم، وأن يقوم بعملية موازنة بين الكنيسة القديمة والأفكار الجديدة، وأن يدعو إلى عقد مَجْمَع لرجال حكماء ليس لديهم أحكام مسبقة لكي يستطيعوا، في جوٍّ من المحبة والاستقصاء والعمق، أن يسمعوا كل الحجج ويوازنوا بينها ويستطيعوا أن يوجهوا المعنيين بالكنيسة إلى كنيسة مسيحية واحدة متجدِّدة. ومن أجل هذا الغرض يدعو الامبراطور شارلكان الرايشستاغ إلى أَوْغسبورغ، ومَثَّل رايشستاغ أوغسبورغ هذا لحظة من أكبر اللحظات المصيرية « الألمانية، كما مَثَّل فوق ذلك ساعة حقيقة من ساعات القدر في تاريخ البشرية، بل مَثَّل مناسبة من تلك المناسبات التاريخية التي لا يمكن استعادتها، والتي تتضمن، في ثناياها، مجرى أحداث القرون التالية. وربما لم تكن درامية إلى هذا المدى، من حيث الظاهر مثلما كانت تلك المناسبات التي أتيحت في فورمس لو أن هذا الرايشستاغ الذي اجتمع في أوغسبورغ تأخر فجاء في لحظة لا يكاد يكون لها تأثير متواصل من الوجهة التاريخية. وكانت المسألة هناك مثلما كانت في تلك الأيام، تتعلَّق بالوحدة الفكرية – الكهنوتية للغرب.

وقد كانت أيام أوغسبورغ، أوَّلاً مواتية على نحوٍ غير عادي، للفكرة الإراسمية لتلك الفكرة التي كان يطالب بها المرة بعد المرة، وهي فكرة الحوار التصالحيّ بين الخصوم في مجال الفكر والكهنوت ذلك لأن كلتا القوتين، أي الكنيسة القديمة والكنيسة الجديدة، تعرضت لأزمة وباتت، من أجل ذلك مستعدة لتنازلات كبيرة. وكانت الكنيسة الكاثوليكية قد خسرت كثيراً من كبريائها الذي كان شديد التحفُّظ والتَّنائي، وهو الكبرياء الذي كانت تنظر به في البداية إلى الهرطيق الألماني الضئيل الشأن منذ أن لاحظت أن قضية الإصلاح الديني استحوذت على كل شماليّ أوربا وانتشرت فيه انتشار الحريق في الغابة وكان استعارُها يزداد نطاقه اتساعاً في كل لحظة. ولا يلبث أن يتم كسب هولندا، ثم السويد، ثم سويسرا، ثم الدانيمارك، وقبل كل شيء، انكلترا، إلى جانب التعاليم الجديدة، وفي كل مكان يكتشف الأمراء الذين كانوا يتعرَّضون على الدوام لحَرَج ماليّ، مدى الفائدة التي تعود على أموالهم من جراء مصادرة الأملاك الكَنَسيّة الثمينة باسم الإنجيل. وكانت وسائل القتال القديمة التي تتمتع بها روما، كالطرد من الكنيسة، وإخراج الشياطين أو الأرواح الشريرة التي يُدَّعى وجودها لدى المغضوب عليهم، ما عادت لها تلك القوة التي كانت لها في أيام كانوسّا، منذ أن بات راهب أوغسطيني واحد يستطيع أن يُحْرِق علانيةً، ومن دون أن يُعاقَب، مرسوم حرمان بابوي، من دون أن يساوره همٌّ أو يعوقه عائق، ولكن اعتداد البابوية بنفسها عانى أشد ألوان المعاناة إثارة للفزع، منذ أن

اضطُرَّ المفوَّض بالسلطة الكنسية إلى أن يُطِلَّ ببصره، من برجه (إنجلز بورغ)، على روما التي تتعرض للنهب، ثم إن «ساكّوي دي روما» ذهب بجرأة السلطات البابوية على مدى العقود من الزمان، كما ذهب بتعاظمها وصلَفها. ولكن حتى لوثر وأتباعه أَلَمَّت بهم ساعات محنة وهمٍّ، منذ أيام فورمس الصاخبة، البطولية. وحتى في المعسكر الإنجيلي يسوء حال الانسجام والتعايش الحَسَن في الكنيسة. ذلك لأنه حتى قبل أن ينجح لوثر في إنشاء كنيسته الخاصة في صورة منظمة منغلقة، كانت قد نشأت كنائس مقابلة، كتلك الكنائس التابعة لتسفينغلي وكارلشتات، والإنكليزية التابعة لهنري الثامن، وفِرَق العقول المتآخية – (Schwarmgeister) وكان متعصب العقيدة الذي كان هو ذاته مستقيماً صادقاً قد تبيَّن له ما كان إراده من الوجهة الفكرية، وما فهمه الكثيرون بالمعنى المادي الملموس، وكان يُستَغَلُّ من أجل المنفعة والمزايا استغلالاً فاحشاً وأجمل ما في هذا الباب ما يعبِّر به غوستاف فرايتاغ عن مأساة لوثر في السنين المتأخرة: «من يَصطَفِه القدر لكي ينشئ الأعظم في صورة جديدة يُحَطِّمْ في الوقت ذاته جزءاً من حياته الخاصة فيحوّله إلى أنقاض، وكلما كان ضميره حيّاً بدرجة أكبر ازداد شعوره بالشرخ الذي أحدثه في نظام العالم، في قرارة نفسه. وهذا هو الألم الخفيّ، بل الندم على كل فكرة تاريخية عظيمة». ولأول مرة يتجلى الآن، حتى في هذا الإنسان الصلب، وغير النزّاع إلى التصالح في العادة، قدر يسير من إرادة التفاهم، كما يتجلى شركاؤه الذين كانوا

في العادة يَشدُّون أزر إرادته، بل يفرطون في شدِّ أزرها، ويغدو الأمراء الألمان أيضاً أولي عقلية أكثر حذراً الآن، منذ أن لاحظوا أن شارلكان، سيدهم وإمبراطورهم قد فرغ من شواغله، من جديد وهو مَحْمِيٌّ بسلاح جيّد، ويقول فريق منهم في أنفسهم: ربما كان من المستحسن أن لا يتصدّى المرء لمواجهة سيد أوربا هذا على أنه متمرِّد: فقد يخسر المرء حياته وأرضه في حالة الإصرار الجامح.

وعلى هذا فلأول مرة يفتقد ذلك الإصرار والصمود وعدم التهاون، وهو الذي كان يهيمن من قبلُ ومن بعد في مسائل العقيدة الألمانية. وأتيحت من جراء تخفيف حدة التعصب هذا، إمكانية هائلة. ذلك لأنه لو نجح التفاهم بالمعنى الذي كان يقصد إليه إراسموس، بين الكنيسة القديمة والتعاليم الجديدة لتوحَّدت ألمانيا، ولَتَوَّحد العالم في المضمار الفكري من جديد، وكان من الممكن اجتناب حرب المائة عام العقائدية، والحرب الأهلية، والحرب بين الدول، بكل ما يرافقها من ألوان التدمير الفظيع للقيم الثقافية والمادية، ولكان من الممكن ضمان السيادة العليا لألمانيا في العالم، ولأمكن تجنب عار عمليات الاضطهاد بسبب العقيدة، ولما كان من الضروري أن تشتعل نيران المَحارِق، ولما احتاجت إدارة الرقابة على المطبوعات في الكنيسة، ولا ديوان التحقيق (أو محاكم التفتيش) إلى وضع وصماتهم القاسية (بالكَيّ الحارق) على حرية الفكر ولكان بؤسٌ لا يمكن تقديره، ولا سَبْرُ غوره خليقاً أن يُوَفَّر على أوربا الممتحنة.

وفي الحقيقة ما عاد هناك إلاّ فاصلٌ جدُّ يسير يفصل بين الخصوم، فإذا تمَّ التغلُّب عليه بالمسايرة المتبادلة فقد انتصر العقل وانتصرت قضية الإنسانية وانتصر إراسموس مرة أخرى. ويعدُّ مما ينطوي على الكثير من الأمل في المستقبل بالنسبة لمثل هذا التفاهم، فضلاً عن ذلك، في هذه المرة، الظرف المتمثل في أن تمثيل القضية البروتستانتية واقعاً بين يَدَي لوثر غير المتساهلتين بل في أيدي ميلانكتون الأكثر دبلوماسية، وهذا الرجل اللِّين الجانب والنبيل، والذي تحتفي به الكنيسة البروتستانتية على أنه الصديق والمساعد الأكثر إخلاصاً للوثر، كان، على نحو غريب طريف، طوال حياته أيضاً، المُبَجِّل الوفيّ لمنافسة الكبير، وقد ظل تلميذ إراسموس الذي لا يتزعزع. أما من حيث النفسية فإن نظرة الحركة الإنسانية، ذات السمة الإنسانية إلى التعاليم الإنجيلية، بمعناها الوارد عند إراسموس تعد أقرب إلى طبيعته المتروِّية الحذرة، منها إلى الصياغة القاسية والصارمة عند لوثر، غير أن مايؤثر فيه تأثيراً إيحائياً قوياً يفرض نفسه هو شخصية لوثر وعنفوانه. ففي فيتنبرغ، حيث يكون ميلانكتون على مقربة مباشرة منه، يشعر أنه تابع لإرادة لوثر تبعية كاملة، ومتفانٍ فيه، فهو يخدمه خدمة المُذْعِنِ بكل ما لديه من عقل يفكر تفكيراً تنظيمياً. أمّا هنا، في أوغسبورغ، إذ يكون، لأول مرة خارج نطاق التنويم المغناطيسي المرتبط بشخصية القائد، فيستطيع الشطر الآخر من طبيعته، يستطيع الجانب الإراسمي في ميلانكتون أن يتفتَّح أخيراً من دون عوائق. ومن دون تحفُّظ يعلن ميلانكتون، في أيام أوغسبورغ هذه، استعداده للحد الأقصى من الاتجاه التصالحيّ، ويذهب في تنازلاته إلى حدٍ يجعله يكاد يضع قدميه في الكنيسة

القديمة من جديد. على أن «المذهب الأوْغسبورغيّ»، الذي اصطنعه هو شخصياً، لأن لوثر، كما يقول هو معترفاً: «لا يستطيع أن يقف مثل هذا الموقف السَمْح والهادئ»، لا يتضمن، على الرغم من صياغته الواضحة والفنية، شيئاً استفزازياً بصورة خشنة تجاه الكنيسة الكاثوليكية، ففي المناقشة تعامل المسائل الخلافية الهامة، بدورها، من باب الحيطة والحذر، بالصمت. وهكذا تظل نظرية القضاء والقدر التي خاض لوثر بصددها صِراعاً مريراً للغاية، من دون مناقشة، وكذلك النقاط الأكثر حَرَجاً، كالحق الإلهي الذي تتمتع به البابوية. والطبيعة غير القابلة للإلغاء أو الاستبدال في طبقة الكهنة، وسُباعية الأسرار المقدَّسة، ويأخذ من كلا الجانبين بالكلمات التوسُّطية إلى حد مدهش. ويكتب ميلانكتون قائلاً: «نحن نقدِّر سلطة بابا روما، وطاعة الكنيسة بمجملها، مالم يطردنا بابا روما من الكنيسة فحسب». ومن ناحية أخرى يعلن ممثل للفاتيكان، بصورة نصف رسمية أن مسألة زواج الكهنة. ومسألة كأس غير الكهنة هما مسألتان جديرتان بالنظر، وإذا المشاركون يحققون، على الرغم من كل الصعوبات، أملاً يسيراً، ولو كان هناك الآن رجل يتمتع بسلطة معنوية عالية، رجل يتمتع بإرادة سلام سامية، رجل ذو إرادة سلام مبنية على عاطفة جيّاشة، حاضراً في المكان، وكرَّس كل طاقة فصاحته في التوسط، وفَنَّ منطقة ولُستاذيّته في الصياغة اللغوية، لاستطاع، حتى في الساعة الأخيرة، أن ينتهي بالبروتستانت والكاثوليك الذين يرتبط بهم ارتباطاً وثيقاً، إلى اتفاق، هذا عن طريق التعاطف وذلك عن طريق الإخلاص، ولكانت الفكرة الأوربية قد تمَّ إنقاذها.

وهذا الرجل الواحد والوحيد هو إراسموس، وكان الامبراطور كارل، سيِّد العالَمين، قد دعاه دعوة صريحة إلى الرايشستاغ، وكان قد التمس منه قبل ذلك نصيحته ووساطته، غير أن صورة المصير الإراسمي تتكرَّر على نحو مأساوي، بحيث كان مقدَّراً لهذا الرجل الذي يستشرف المستقبل ولا يجرؤ، مع ذلك على التصرُّف وفقاً لتقديراته المستقبلية، أن يتبيَّن اللحظات ذات الأهمية في تاريخ العالم، كما لم يتبيَّنها أحد سواه، ثم يقصِّر مع ذلك في حَسْم المسألة من جرّاء الضعف الشخصيّ، ومن جراء انعدامٍ للجرأة لا يرجى له شفاء: وهنا يتجدَّد ذَنْبهُ التاريخي وعلى نحو مماثل لما حدث في الرايشستاغ، في فورمس، يتغيَّب إراسموس عن الريشستاغ في أوغسبورغ إذ لا يستطيع أن يعقد عزمه على أن يظهر. بشخصه، بين يَدَيْ قضيَّته، وقناعته. وما من شك في أنه يكتب رسائل، كثيراً من الرسائل، إلى كلا الحزبين، رسائل تنم عن ذكاء ألمعيّ وإنسانية بالغة، ومقدرة عالية في الإقناع، ويحاول أن يدفع صديقَيْه في كَلا المعسكرين، ميلانكتون، ومبعوث البابا من الناحية الأخرى، إلى الحد الأقصى من النزوع إلى التصالح والتنازلات المتبادلة بينهما، ولكن لم تتميَّز الكلمة المكتوبة بينهما أبداً، في ساعة القدر ذات التوتُّر بطاقة النداء الحي الذي تسري فيه حرارة الدم، كما أن لوثر يبعث أيضاً، من كوبورغ، بالرسالة تِلْوَ الرسالة، ليزيد ميلانكتون صلابةً فوق صلابته، وليجعله أبعدَ عن التساهل والملاينة مّما كان ينزع إليه في جوهره الداخليّ. وفي الختام تتصلَّب أشكال التعارض مـن جديد بسبب غياب شخص الوسيط العبقري

VIVA IMAGO REVERENDI VIRI

D. PHILIPPI MELANTHONIS.



SI tibi non licuit coram spectare Philippum,
  Et quæ fluxerunt dulcibus ora favis.
Præsentisq; Dei templum, venerabile pectus,
  Ingeniiq; oculos splendida signa vivi.
Idq; caput, quod virtutum thesaurus abundans,
  Et doctrinarum fertilis arca fuit.
Hoc pictoris opus circumspice, namq; Philippi
  Non procul à vivis vultibus illud abest.
Proximè ad externos habitus accedit, ocellos,
  Et frontem, & nares, osq; genasq; refert.
Sed quod mentis opes, aut repræsentet acumen,
  Nullus Apellæo flamine ducet opus.
Scilicet ingenii specimen mirabile, & alti
  Pectoris, in scriptis edidit ipse suis.
Solus enim potuit proprias depingere dotes,
  Has igitur notas quisquis habere cupis.
Perlege concinno quos condidit ordine libros,
  Autoris referunt hi simulacra sui.
Ex his non tantum quæ sit doctrina Philippi,
  Et mens, de sancta relligione patet.
Sed quoq; qui fuerint mores illius, & acta,
  Et quæ dexteritas, totaq; vita liquet.

HENRICVS MOLLERVS
HESSVS. 1560.

الحق: ففي مناقشات لا تُحْصى يجري سحق فكرة التفاهم مثلما تُسْحَق بذرة مثمرة بين حَجَرَيْ الرحى، ويتولى مجمع أوغسبرغ تمزيق أوصال المسيحية التي أراد أن يَلُمَّ شملها، بصورة نهائية، إلى شطرين من حيث العقيدة، إذ يسود الشقاق في العالم بدلاً من السلام، ويستخرج لوثر نتيجته قاسية: «إذا نجمت عن هذا حرب فلينجُم ما ينجم، لقد قدَّمنا وفعلنا، ما فيه الكفاية. ويقول إراسموس بلهجة مأساوية:«إذا رأيت أشكالاً رهيبة من اختلاط الأمور والبلبلة تنشأ في العالم فلتفكر في أن إراسموس تنبّأ بها».

ومنذ هذا اليوم فصاعداً، إذ تشهد فكرتهُ الإراسمية» الهزيمة الأخيرة الحاسمة، لا يعود هذا الشيخ، في قوقعته التي يتخذها من الكتب، في فرايبورغ، من بعدُ، سوى مخلوق عديم الفائدة ظلاً باهتاً، شاحباً لمجده الغابر، على أنه يشعر هو ذاته بذلك أفضل ما يكون الشعور، بأن رجلَ المرونة ولين الجانب، مع اقتران ذلك بالهدوء لا يكون في مكانه الصحيح «في هذا العصر الصاخب، أو بعبارة أفضل، في هذا العصر المسعور». ففيم يظل المرء يُجَرِّر، إلى أجل بعيد أيضاً، هذا الجسد المتداعي، المصاب بالنقرس، في أرجاء العالم الذي بات غريباً عنه من جراء العقلية التي تُوادِع الناس جميعاً ؟ لقد تعب إراسموس، من الحياة التي كانت فيما سلف محبوبة أيّما حب. وينبثق من بين شفتيه، وقد زُلْزِلَت نفسُه، النداء الضارع، «عسى أن يأخذه الله، أخيراً إلى جواره، من هذا العالم المجنون!» وإلاّ فأين يجد الفكريُّ مِنْ بعدُ مستقراً له ومُقاماً حين ينهال التعصب على القلوب بسياطه؟ وها هي ذي المملكة السامية، ومملكة الحركة الإنسانية التي أنشأها، قد اكتسحها الأعداء وافتتحوا شطرها. لقد

ولّت وأدبرت أيام «eruditio والبلاغة»، وما عاد الناس يصيخون السمع إلى كلمة الشعر التي قُدِّرَت فأُحْسِن تقديرها، بل لا يستمعون إلاّ إلى كلمة السياسة الفظّة والعاطفية المبنية على الهوى، وسقط التفكير في أيدي جنون العصابات، وتوحَّدت قوالبه في ضربين، لوثري وبابوي، وما عاد المثقفون يناضلون بالرسائل الأنيقة والكتيّبات، بل باتوا يتبادلون السباب والشتائم على طريقة نساء السوق بالكلمات الفظة والفجّة، وما من أحد يريد أن يفهم الآخر، بل يريد كلٌ منهم أن يَسِم الآخرين بَمِيْسَم عقيدة حزبه، مثلَ وشْمِ الكيّ بالنار، والويل لأولئك الذين تنازعهم نفوسهم إلى أن ينتبذوا مكاناً قَصِيّاً ويتعلّقوا بمعتقدهم الخاص: فهؤلاء الذين يريدون أن يكونوا بين الأحزاب وفوقها، هم الذين تتوجه ضدهم كراهية لها وجهان ! ألاّ ما أشد الغربة والعزلة التي تنتاب في أمثال تلك العصور ذلك الذي لا يتعلّق إلاّ بالفكري ! ويلاه، إلى من ينبغي للمرء أن يكتب بعدُ حين تصبح الأذان صُمّاً في وسط هذا الزعيق والصراخ، بالنسبة للألحان المستعذبة الرقيقة التي تتردّد في تضاعيفه، وبالنسبة للسخرية الرقيقة النفّاذة، ومع من ينبغي للمرء أن يدخل في مجادلة حول تعاليم الرب، من الوجهة اللاهوتية منذ أن سقطت هذه التعاليم في أيدي المذهبيين أولي الحماسة والتعصب، الذين تتمثل آخرحججهم الدالة على صحة ما يذهبون إليه في استدعاء الجند أولي البطش الذين لا يرجون لشيء وقاراً، واستحضار أرتال الفرسان والمدافع؟ لقد بدأت عملية مطاردة ضد أولئك الذين يفكرون تفكيراً آخر، وضد ذوي التفكير الحر، إنها دكتاتورية أحادية الجانب: فإن القوم يعتقدون أنهم يخدمون المسيحية بالبلطات ذوات الأشواك وأسياف الجلاّدين، ثم إن العنف

الأكثر فظاظة على الإطلاق، هذا العنف على وجه الخصوص، يستحوذ على أكثر الأفراد جرأة بين معتنقي المذهب. لقد بدأت الفتنة التي كان تنبأ بها، فمن كل البلدان كانت رسائل الرعب يُطَوَّح بها في هاوية قلبه اليائس الكليل، فأما في باريس فقد أحرقوا مترجمه وتلميذه، بيركان، على نار بطيئة، وأما في إنكلترا فكانوا يجرِّدون حبيبيْ قلبه، جون فيشر وتوماس مور، صديقيه الأكثر نُبْلاً، تحت ضربات البلطة (ألا إنَّ مَنْ كان يتمتع بالمقدرة على أن يكون شهيدَ إيمانه لسعيد!)، وإراسموس يتأوَّه إذ تتناهى الرسالة إلى سمعه: «إني ليُخَيَّل إليّ كأنني متُّ أنا فيهم»، وأما تسـڤـينغلي الذي طالما تبادل معه الرسائل والكلمات الودية فقد أردَوْه قتيلاً في موقعة كابِل، وأمّا توماس منتسَر فقد ساموه سوء العذاب حتى مات بألوان منه ما كان الكفار و الصينيون ليبتدعوا أكثر منها هَوْلاً. وأما القائلون بإعادة التعميد فكانوا يشدّون لسانهم حتى يقتلعوه من جذوره وأما الوُعاظ فكانوا يمزقون لحومهم بكمّاشات من الحديد المتوهِّج، وكانوا يشوون أجسادهم على خازوق الهراطقة، وكانوا ينهبون الكنائس، ويحرقون كل الكتب، ويحرقون المدن، أما روما التي كانت روعة الدنيا فقد خرَّبها الأفنان – ربّاه، أيةُ غرائز بهيمية وحشية يستَعِر جنونها باسمك! كلاّ، فإن العالم ما عاد فيه مكان لحرية التفكير، وللفهم والتروّي، أيْ لهذه الأفكار الأصيلة التي جاءت بها النظرية الإنسانية، ولا يمكن للفنون أن تزدهر على أرض مخضَّبة بالدماء كهذه. لقد ولّى، إلى أجل يمتد عقوداً من الزمان، بل إلى قرون، بل ربما إلى الأبد، زمن المجتمع الذي يتخطى الحدود القومية، وحتى

اللاتينية، هذه اللغة الأخيرة لأوروبا الموحَّدة، لغة قلبه، تموت، فلْتَمُتْ أنت أيضاً، يا إراسموس!

ولكن طامَّة حياة هذا البدويّ الخالد تتمثل في أنه يضطر، مرة أخرى، إلى التَّرحال، ومع ذلك تكون هذه هي المرة الأخيرة، فهو يَفرُّ مرة أخرى، وقد قارب السبعين حولاً، فجأة، من منزله ودياره، إذ انتابته رغبة لا يمكن تفسيرها البتة، في مغادرة فرايبورغ والخروج إلى برابانت، وكان الدوق قد دعاه إلى هناك، ولكن كان يناديه، في أعمق أعماقه منادٍ آخر: الموت، وكان اضطراب حافل بالأسرار قد تملّكه. وإذا هذا الذي قضى حياته كلها مواطناً عالمياً يحس بحاجة مستعذبة مشوبة بالخوف، إلى تربة موطنه، فالجسد المتعب يريد أن يعود من حيث أتى. إذ إن حَدْساً في داخله يعلم أن المسيرة توشك أن تنتهي.

غير أنه لم يصل بعدُ إلى هدفه. ففي عربة سفر صغيرة لا تستعمل في العادة إلاّ للنساء جيء بالرجل المتداعي إلى بازل، ويضطر الشيخ إلى الاستراحة هناك بعض الوقت أيضاً، والانتظار، إلى أن ينهار الجليد ويستطيع أن ينطلق إلى موطنه مع الربيع، وفي هذه الأثناء تتشبَّث به بازل، ههنا ما زال يوجد شيء من دفء للفكر، ومازال يعيش هنا بعض الأوفياء، ابن فروبن، وأمَرْباخ وآخرون، ويؤمِّن هؤلاء الملاذ المريح للمريض. ويستضيفونه، وحتى المطبعة القديمة مازالت قائمة هنا. فهو يستطيع، مرة أخرى، أن يشهد، وقد أُفعم بالسعادة، تحوُّل الكلمة التي أخرجها الفكر ودُوِّنَت، إلى كلمة مطبوعة، وأن يستنشق الرائحة الدسمة التي تفوح من المطبعة وأن يمسك بالكتب الجميلة، ذات الطباعة

الواضحة، في يده، وأن يمارس معها حوار الموادَعة الرائع، الناصح المُعلِّم. وينفق إراسموس أيام حياته الأخيرة في صقيع داخليّ، هادئاً كل الهدوء، في عزلة كاملة عن العالم، وهو أشد إرهاقاً وخلُوّاً من الطاقة، من أن يفارق السرير أكثر من أربع ساعات أو خمس من ساعات النهار. ويساوره الشعور بأنه بات نسياً منسياً، محروماً من حماية القانون، لأن الكاثوليك ما عادوا يخطبون وده، والبروتستانت يسخرون منه، وما عاد ثمة أحد يحتاجه، وما من أحد يطلب منه حكماً أو قولاً يدلي به. «أعدائي يزدادون عدداً وأصدقائي يتقلّص عددهم». كذلك كان يشكو الغريب الوحيد، في يأسه، وهو الذي كان التعامل الإنساني الفكري يمثّل، بالقياس إليه أجمل ما في الحياة وأكثرها إسعاداً.

وإذا النافذة التي غشِيها الصقيع من الشتاء تقرع مرة أخرى، كأنما نقَرها طائر سنونو متأخر، إنها كلمة تعبِّر عن المهابة والخشوع بين يديه، والتحية، إليه في ملاذه المهجور. « كل ما أكونه، وما أُصلِح له، إنما جاء لي منك، وحدك، ولو لم أعترف بهذا لكنت أكثر بني آدم نكراناً للجميل على مر العصور قاطبة.

Salve itaque etiam atque etiam, pater amantissime, pater decusque patriae. litterarum asserto , veritatis propugnator invic tissime.

أهدي إليك التحية بعد التحية، يا أبي الحبيب، ويا شرف الوطن، والملاك الحارس للفنون، والمحارب الذي لا يُقهرَ، في سبيل الحقيقة». على أن اسم الرجل الذي يكتب هذه الكلمات سوف يشرق بنوره على

اسمه، إنه فرانسوا رابليه، الذي يحيي، في حمرة شفق فجر مجده الناشيء، ضوء المساء الذي ينبعث من الأستاذ المعلّم المُحتَضَر، ثم تأتي رسالة أخرى، من روما، ويفتحها إراسموس، ابن السَبعَين حَوْلاً بصبر نافد، ثم يُفلِتُها من يده وهو يبتسم ابتسامة مريرة. أوَلا يتهكَّم القوم عليه يا تُرى، ها هو ذا البابا الجديد يُقَدِّم إليه قبعة كاردينال مع مناصب كنسية تدرُّ عليه دخلاً كبيراً، عليه، هو الذي ظل طوال حياته يتحاشى كل الوظائف في هذا العالم من أجل الحرية. ويرفض رفضاً ينمُّ عن التفوّق، التكرّم الذي يكاد يحزّ في نفسه. «هلَ يحسُن بي، وأنا على وَشْك الموت، أن أحمل على عاتقي أعباءاً ظللت أرفضها طوال حياتي؟»، كلاَّ، بل هو الموت مع الحرية، مثلما عشت معها! الموتُ حرّاً، وفي ثوب المواطن العاديّ، من دون نياشين ومظاهر شرف دنيوي، حراً مثل كل الوحيدين، ووحيداً مثل كل الأحرار.

غير أن الصديق الخالد، بل الصديق الأكثر إخلاصاً في كل عزلة وانفراد، وأفضل المُواسين طُرّاً، وهو العمل، يظل يلازم المريض حتى الساعة الأخيرة. وبجسد محنيّ الظهر من فَرْط الألم، راقِد في السرير، وبيدين ترتجفان، يكتب إراسموس ويكتب، ليلاً ونهاراً، في تعليقه على كتاب الأوريجين (Origenes admantius) وفي كتيّبات ورسائل، أنه ما عاد يكتب في سبيل المجد، ولا ابتغاء للمال، بل في سبيل المتعة الحافلة بالأسرار، وحدها، متعة التعلُّم عن طريق إضفاء سمة الفكر على الحياة. وممارسة الحياة من جديد، بطريقة أقوى، عن طريق التعلُّم، إنه استنشاق المعرفة، وإرسالها مع الزفير، مجرد هذا الانبساط الأبديّ في

عضلة القلب، في كل حياة دنيوية. هذه الدورة وحدها هي التي تحافظ على دوران دمه. وعن طريق مزاولة نشاطه حتى اللحظة الأخيرة يهرب متسللاً من خلال متاهة العمل المقدّسة في عالم لا يعترف به ولا يفهمه، عالم ما عاد يريد أن يعترف به ولا أن يفهمه، وأخيراً يتقدّم حامل السلام الكبير من سريره. وحين يغدو قريباً منه، ذلك الموت الذي ظل إراسموس يخشاه خشية تتجاوز كل الحدود والمقاييس، يتلقّاه الآن ذلك الذي أدركه التعب، ساكناً، يكاد يكون ممتنّاً له عارفاً للجميل، ومازال فكره مشرقاً حتى الوداع، ومازال يقارن الأصدقاء الذين يُحدِقون بسريره فروبن وأَمَرْ باخ، بأصدقاء أيوب، ويحادثهم بأحسن أساليب اللغة اللاتينية مرونة ورشاقة وظُرفاً، ولكن بعد ذلك، وفي اللحظة الأخيرة، حين تمسك بخناقه أزمة تنفسية، يحدث شيء غريب: إذ ينسى، وهو المثقف الإنساني الكبير الذي ظل طوال حياته بأسرها لا يتحدث إلاّ باللاتينية، هذه اللغة التي اعتادها، والتي باتت من الأمور البدهية عنده، وفي غمرة الخوف الفطري الأصيل عند المخلوقات تتلعثم الشفتان المتجمدتان فجأة بالعبارة التي تعلّمها حين كان طفلاً «lieve God» وإذا الكلمة ذاتها، الأولى والأخيرة في حياته، موجودة في الصوت الألمانيّ الشمالي، ويلي ذلك بعدُ نَفَسٌ واحد، وإذا هو يحظى بما ظل يتوق إليه من أجل البشرية كلها في أعمق أعماقه: ألا وهو السلام.

تراث إراسموس

وفي فلورنسا يظهر، في الوقت ذاته الذي يخلِّف فيه إراسموس المُحتَضَر تراثه الفكريّ من الانسجام والتعايش السلمي للأجيال القادمة رسالةً هي أنبل الرسالات، كتاب من أكثر الكتب التي ظهرت في تاريخ البشرية حَسْماً وجسارة، وهو كتاب «الأمير – Principe» السيء السمعة لنيقولو مكيافــيللي. وفي هذا المرجع الذي يتميَّز بوضوح كوضوح الرياضيات في سياسة السلطة والنجاح التي لا تُراعي أية اعتبارات، يصاغ المبدأ الإراسمي، فبينما يطالب إراسموس الأمراء والشعوب بأن يجعلوا مطاليبهم الشخصية والإمبريالية الأنانية، طوْعاً، وعلى نحو سلمي، تابعة للمجتمع الأخوي الذي يشمل البشرية جمعاء، يُعلي مكيافيللي من شأن إرادة السلطان وإرادة القوة عند كل أمير، وعند كل أمة، ليصل به إلى مستوى الهدف الوحيد لتفكيرهم وسلوكهم. ويترتب على كل قوى المجتمع ذي الوعي القومي أن تخدم فكرة الشعب مع التفاني في فكرة دينية، ولابُدَّ أن تكون مصلحة الدولة وتفتُّح الفردية الخاصة وتطوُّرها إلى أقصى الحدود، بالقياس إليها الغرض القائم بذاته والهدف النهائي لكل تطور تاريخي وأن يكون فرضها، من دون مراعاة لأي اعتبار آخر، هو الرسالة الأسمى ضمن إطار الحدث العالمي. وبالنسبة لمكيافــيللي يعدُّ السلطان وتطوُّر السلطة هما المضمون الأخير، أمّا عند إراسموس فيتمثّل هذا في العدالة.

وبذلك يكون قد تمَّ سَبْكُ الشكلين الرئيسيَّيْن الكبيرين، الخالدين في كل سياسة عالمية في قالب فكري، القالب العملي والقالب المثالي، أو في سياسة الدولة الدبلوماسية وفي سياسة الدولة التي تعمل من أجل البشرية. أما عند إراسموس الذي ينظر في العالم نظرة فلسفية، فتدخل السياسة في باب الأخلاق بالمعنى الوارد عند أرسطو، وأفلاطون وتوما الأكويني، إذا يترتب على الأمير، أو قائد الدولة، قبل كل شيء، أن يكون خادم الإلهي، ونصير الأفكار الأخلاقية. وفي مقابل ذلك تمثل السياسة عند ميكيافـيللي، الدبلوماسي المحترف الذي أَلِف الممارسة العملية في دواوين الدولة، علماً لا صلة له بالأخلاق، وهو مستقل كل الاستقلال، ولا يمت بصلة إلى الأخلاق إلاّ بمقدار ما يمت به إليها علم الفلك والهندسة، وليس على الأمير أو على قائد الدولة أن يحلم بالبشرية، بهذا المفهوم الغامض الذي لا يمكن الإحاطة به بنظرة شاملة، بل يترتب عليه أن يحسب حسابه بصدد الإنسان على أساس غير عاطفي البتة، بحكم كونه المادة الوحيدة القائمة من الوجهة الحِسِّية، وأن يستغل طاقاته ونقاط ضعفه بأقصى قدر من شدِّ الأعصاب وتَوتيرها، مما يتوافر في علم النفس، لنفسه ولأمته، وأن لا يقيم الأمراءُ، اعتباراً لخصومهم أو يراعوهم، مثلما يفعل الممثل، بل يجب أن يظفروا لشعبهم على نحو واضح وبارد، بكل الوسائل، المسموح بها وغير المسموح بها، بالقدر الأقصى الذي يمكن بلوغه من المزايا والسيادة.

ويعد السلطان وتوسيعه، عند مكيافـيللي الواجب الأعلى، كما يمثل النجاحُ الحقَّ الحاسم لأمير أو لشعب.

أما في مجال التاريخ الواقعي فقد عرفت نظرة ميكيافيللي التي تمجِّد القوة كيف تفرض نفسها. ومنذ ذلك الوقت لم تكن تقرِّر مسار التطور الدراميّ للتاريخ الأوروبي تلك السياسة الإنسانية التي توفِّق بين أشكال التعارض والتناقض وتنزع إلى المصالحة، ولا الاتجاه «الإراسمي» بل كانت تقرر مسار هذا التطور سياسة قوة الداخل المركزية التي تنتهز كل فرصة بعزم وتصميم، بالمعنى الوارد في كتاب « الأمير ». وقد تعلمت أجيال بأكملها من الدبلوماسيين، فنَّها البارد، من كتاب الحساب السياسي الذي وضعه هذا الفلورنسيّ الحادُّ النظر في قسوة، وكان يتم رسم الحدود بين الأمم بالدم والحديد، كما يجري قَلْبُها وتعديلها المرة بعد الأخرى. وكان التقابل، أو المواجهة، لا التعاون، هو الذي استخرج، بالقسر، الطاقات الأكثر حرارة وجموحاً، لدى كل شعوب أوروبا. وفي مقابل ذلك لم يحدث قطُّ، حتى الآن، أن صاغت الفكرة الإراسمية التاريخ، أو كان لها نفوذ ملموس في صياغة المصير الأوروبي: إذ ظل الحلم الإنساني الكبير بحل التناقضات بروح العدالة، وتوحيد الأمم الذي طال الشوق إليه في ظل الثقافة المشتركة، مسألة طوباوية، لم تتحقق وقد لا تتحقق أبداً في إطار واقعنا.

غير أن كل التناقضات لها مجال في عالم الفكر: وحتى ذلك الذي لا يظهر في عالم الواقع مُظَفَّراً أبداً، يظل هناك فعّالاً من حيث كونه طاقة ديناميّة، ثم إن المثل العليا التي لم تتحقق، على وجه الخصوص، تثبت أنها الأكثر امتناعاً على التمكُّن منها والتغلُّب عليها. ولذلك فالفكرة التي لا تظهر لا تعد فكرة ثبتت هزيمتها ولا ثَبَتَ زَيْفُها

وخَطَوِها، والضرورة لا تقل ضرورتها حتى وإن تم تأجيلها، بل على النقيض، فالمثل العليا التي لم تتعرَّض، عن طريق التطبيق، للاستهلاك، أو الانتقاص، تواصل إحداث تأثيرها في كل جيل جديد بحكم كونها عنصراً من عناصر القوة الدافعة إلى النهضة الأخلاقية، ولا تتميز بالقابلية الأبدية للعودة إلاّ تلك المُثُل التي لم يجر تطبيقها بعدُ أبداً ومن أجل ذلك لا تعني، في المجال الفكري، تجريداً من القيمة، حقيقة أن المثل الأعلى الإنساني أو الإراسمي، هذه المحاولة المرئية الأولى، لتفاهم أوروبي، لم تصل أبداً إلى الحق في الحكم، ولم تكد تصل، في يوم من الأيام، إلى تأثير سياسي. وليس مما يكمن في جوهر إرادة التعالي عن التحزُّب، أن يشكل الطرف المعنيّ حزباً وأكثرية في يوم من الأيام، ولا يكاد يكون من المأمول أن يتحوّل ذلك النمط من أنماط الحياة المتناهي في قدسيته وتساميه، والقائم على رزانة غوته وطمأنينته، في أي يوم من الأيام، إلى شكل ومضمون لنفسية الجماهير. ولا بُدَّ لكل مثل أعلى إنساني، مصنَّف تبعاً لاتساع أفق النظرة إلى العالم وقدسية القلب، أن يظل مثلاً أعلى خاصاً بالأرستقراطية الفكرية، لا يُؤْتاهُ إلاّ القلائل، ويتصرّف فيه هؤلاء مثلما يتصرفون في تراثٍ ما، ويتمُّ تناقله من فكر إلى فكر، ومن جيل إلى جيل. ولكن هذا الإيمان بمصير مشترك مستقبلي لبشريتنا، في أي عصر من العصور، وإن كان هذا العصر هو الأكثر بلبلة واختلاطاً، لن يضيع أبداً ضياعاً كاملاً، من الناحية الأخرى. أمّا ما خلَّفه إراسموس، هذا الشيخ المخيَّب الآمال والذي لا يمكن، مع ذلك، تخييب أمله، في

غمرة البلبلة الناجمة عن الحروب والشقاق الأوروبي، في صورة تراث، فلم يكن شيئاً سوى الحلم الذي يمثل الأمنية العريقة في القدم والمتجددة في كل الديانات والأساطير، والمتعلقة بإضفاء قادم، لا سبيل إلى وقفه، لِلَّمسة الإنسانية، على البشرية، وبانتصار للعقل الصافي والمُنصِف، على العواطف والأهواء المبنية على الأنانية والصائرة إلى الفناء. ومع كونه مرسوماً بيد غير مطمئنة، ولا واثقة، ومترددة في كثير من الأحيان، بأسلوب براغماتي لأول مرة، كان هذا المثل الأعلى يبثّ الحياة في نظرة عشرة أو عشرين من الأجيال في أوروبا، بأمل يتجدَّد المرة بعد الأخرى، وما من شيء تمَّ التفكير فيه والتعبير عنه في أي يوم من الأيام بدافع من طاقة أخلاقية صرِقة، يعد من قبيل العبث بصورة كاملة: فحتى حين يكون ذلك مدفوعاً بيد واهنة ولا تكون صياغته إلاّ غير مكتملة، فهو يَحفز الفكر الأخلاقي إلى صياغة تتجدَّد المرة بعد الأخرى. ولسوف يظل مجد إراسموس الذي لقي الهزيمة في المجال الدنيوي، أنه أرشد الفكرة الإنسانية، بأسلوب أدبي، إلى الطريق إلى العالم، وبيَّن لهذه الفكرة المتناهية في بساطتها، والخالدة في الوقت ذاته، أن المهمة الأسمى للبشرية هي أن تصبح على نحو مطَّرد، أكثر إنسانية، وأكثر نزوعاً إلى السمة الفكرية، وأكثر تفهُّماً ويواصل تلميذه مونتانيي، الذي تعني اللا إنسانية عنده الرذيلة الأسوأ بين الرذائل قاطبة، قائلاً: «que je n´ay point le courage de concevoir sans horreur»، الحديث عن رسالة التبصُّر والتروّي. ويطالب سبينوزا، بدلاً من الهوى الأعمى، بما يُسميّ (المحبة العقلانية – amor intellectualis »، أما

ديديرو وفــولتير وليسنغ، الرِّيْبيّون والمثاليون في وقتٍ معاً، فكانوا يحاربون تلك المحدودية في التفكير لصالح تسامح يتفهَّم كل الأمور، وأما عند شيلر فتتشأ رسالة المواطنة العالمية محمولة على أجنحة الشعر، وأما عند كانط فينشأ مطلب السلام الخالد، ويظل فكر التفاهم بقوة المنطق يطالب بحقه الأخلاقي، إلى جانب الحق المبنيّ على القوة، المرة بعد الأخرى، حتى أيام تولستوي وغاندي ورولان، ويظل الإيمان بإمكانية توطيد السلام بين البشر ينبثق المرة بعد الأخرى، وذلك على وجه الخصوص في أكثر لحظات الشقاق حفولاً بتوُّفز المشاعر، لأن البشرية لن تستطيع أبداً أن تعيش وتبدع من دون هذا الوهم الذي يبعث في النفوس العزاء والسلوى، وَهْم الارتقاء إلى المستوى الأخلاقي، ومن دون هذا الحلم بتفاهم أخير ونهائيّ. ومهما يُثْبِتْ أهل الحساب الذكي البارد، المرة بعد الأخرى، من جديد، أنْ لا مستقبل للإراسْمِيّ، ومهماً يتَجَلَّ الواقع لهم، مراراً وتكراراً، في الصورة التي تصوِّب حساباتهم: فسوف يكون من الأمور ذات الضرورة الملحّة أن يشير المرء إلى ما يربط بين الشعوب، على الجانب المقابل لما يفصل بينها، وأن يجدِّد، في قلب البشرية، فكرة عصر قادم لبشرية أرفع شأناً، وفي هذا التراث يُحْدِثُ مفعولَه بطريقة إبداعية، أمل كبير. ذلك لأن ما يوجّه الفكر، من فوق مجال الحياة الخاصة، إلى الإنساني العام، هو وحده الذي يَهَبُ للفرد قوةً فوق قوته. ولا تشعر البشرية، والشعوب بمعيارها الحقيقي والمقدس إلاّ من خلال مطالبيها التي تتنزّه عمّا هو شخصي ولا يكاد يكون من الممكن تحقيقها.

اللوحات المصورة

الإضافات المصورة نسَخ عن الأصول من ممتلكات أرشيف الصور ومجموعة مخطوطات دار الكتب الوطنية النمساوية، فـيينا، الألبرتينا، فـيينا، والمجموعات الفنية العمومية، بازِل.

الفهرس

صدر في سلسلة

آفاق ثقافية (الكتاب الشهري)

عـام ٢٠٠٣

عنوان الكتاب	المؤلف	المترجم	الشهر
١. العرب وتجربة المأساة	صدقي إسماعيل	–	أيار
٢. من المجهول إلى مايا – كتاب المستحيل	ع. آل شبلي	–	حزيران
٣. مقام العقل عند العرب	قدري حافظ طوقان	–	تموز
٤. فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في: – مستقبل اللغة العربية - نهضة الشرق العربي وموقفه إزاء المدنية الغربية	مجموعة من الكتّاب	–	آب
٥. بابلو نيرودا	ألبيرتو كوستي	صالح علماني	أيلول
٦. مختارات	عمر أبو ريشة	–	تشرين ١
٧. الأوراق «مقالات مختارة في الأدب والفن والاجتماع»	د. إبراهيم الككيلاني	–	تشرين ٢
٨. ٤٢ راكباً ونصف	فارس زرزور	–	كانون ١

عـــام ٢٠٠٤

عنوان الكتاب	المؤلف	المترجم	الشهر
٩. يا ليل	خير الدين الأسدي	–	كانون٢
١٠. حضارة الطين	شاكر مصطفى	–	شباط
١١. أبيات ريفية	عبد الباسط الصوفي	–	آذار
١٢. نبع « ثلج »	مكسنس فيرمن	عبود كاسوحة	نيسان
١٣. بدوي الجبل «مختارات»	بدوي الجبل	–	أيار
١٤. مسرح عربي قديم (كراكوز)	عادل أبو شنب	–	حزيران
١٥. الأدب والموقف القومي	محيي الدين صبحي	–	تموز
١٦. تاريخ الحضارة الإسلامية	ف. بارتولد	حمزة طاهر	آب
١٧. تاريخ الحضارة الأوروبية	كلود ديلماس	كوليت حبيب	أيلول
١٨. التربية عند العرب	خليل طوطح	–	تشرين ١
١٩. الجمهورية المثلى	زكي الأرسوزي	–	تشرين ٢
٢٠. بعض قضايا الفكر العربي المعاصر	جلال فاروق الشريف	–	كانون١

عـــام ٢٠٠٥

عنوان الكتاب	المؤلف	المترجم	الشهر
٢١. بحث في الحرية	جون ستيوارت ميل	–	كانون٢
٢٢. مقالات مختارة في الأدب الإنكليزي	مجموعة مؤلفين	محمد بدران	شباط
٢٣. مختـــارات	جرجي زيدان	–	آذار
٢٤. دفاع عن الأدب	جورج ديهاميل	محمد مندور	نيسان
٢٥. آلام السيد معروف	غائب فرمان طعمة	–	أيار
٢٦. البدائع – الجزء الأول	د. محمد سليم سالم	–	حزيران
٢٧. فلسفة الحضارة عند هربرت ماركيوز	إيمان حميدان	–	تموز
٢٨. الانتباه والنجاح المدرسي	كريستوف بوجون + كريستو فكيرو	وجيه أسعد	آب
٢٩. كل شيء الآن كل شيء	فيرنر شبرنغر	د.شاكر مطلق	أيلول
٣٠. مفخرة أبي،ذكريات طفولة	مارسيل بانيول	يمام بشور	تشرين ١
٣١. الشعور المأساوي بالحياة	ميغيل ده أونامونو	علي إبراهيم أشقر	تشرين ٢
٣٢. النظرية النقدية (مدرسة فرانكفورت)	آلن هاو	ثائر ديب	كانون١

عـــام ٢٠٠٦

الشهر	المترجم	المؤلف	عنوان الكتاب
كانون ٢	-	بشير يموت	٣٣. شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام
شباط	أمين محمود الشريف	أرنولد توينبي	٣٤. الحضارة في الميزان
آذار		صدقي إسماعيل	٣٥. رامبـــــو
نيسان	أديب يوسف شيش	جوليان باجيني	٣٦. الفلســـــفة موضوعات مفتاحية
أيـــار	عبد القادر عبد اللي	أورهان باموك	٣٧. اسطنبول الذكريات والمدينة
حزيران	د. محمد عوض محمد	لاسل أبركرومبي	٣٨. قواعد النقد الأدبي
تموز	أنطون حمصي	فرانسوا رابليه	٣٩. غرغانتوا
آب	أنطون حمصي	فرانسوا رابليه	٤٠. بانتاغروئيل
أيلول	عثمان نويه	برتراند رسل	٤١. النظرة العلمية
ت١		نديم محمد	٤٢. آلام
ت٢	بشارة الخوري (الأخطل الصغير)		٤٣. الهوى والشباب
ك١	محمد جديد	ستيفان تسفايغ	٤٤. انتصار إراسموس ومأساته

عدد الطبع

١٥٠٠ نسخة

آفـــاق ثقافيــة

سلسلة شهرية تصدرها وزارة الثقافة السورية تهدف الى استعادة كتب هامة قديمة، مثلما تنشر الجديد في الفكر والأدب الحديث.

صدر في هذه السلسلة:

النظرة العلمية
تأليف: برتراند رسل
ترجمة: عثمان نويه
مراجعة: د. ابراهيم حلمي عبد الرحمن

الام
قصة امرأة.. ورجل
نديم محمد

الهوى والشباب
بشارة الخوري
الأخطل الصغير

انتصار إراسموس ومأساته
تأليف: ستيفان تسفايغ
ترجمة: محمد جديد

يصدر:

مديح الحماقة
تأليف: إراسموس فون روتردام
ترجمة: محمد جديد



Bibliotheca Alexandrina
0600739

السعر [illegible]



دمشق ٢٠٠٦